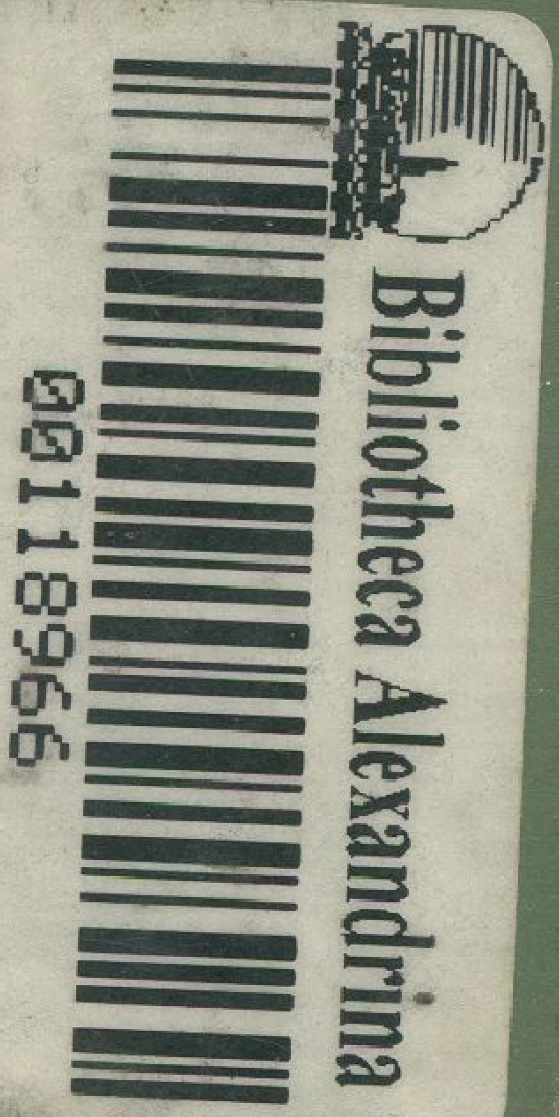

Bibliotheca Alexandrina
0118966

أمير الشعر في العصر القديم

امرؤ القيس

تأليف

محمد صالح سمك

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

الفجالة - مصر

مطبعة نهضة مصر

أمير الشعر في العصر القديم

امرؤ القيس

تأليف

محمد صالح سمك

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - مصر

مطبعة نهضة مصر

الحياة معرفة الواجب . . . .

والألم والأمــل باعثان لتلك

المعــرفة . . . . . .

وخير ما فى الحيــاة سمو المرء إلى

الفضائل وقيامه بعمل نافع . . .

المؤلف

إهداء

إلى كلية دار العلوم

لزامًا عليّ أن أرد الفضل إلى أهـله ، والفيض إلى نبعه ، وهذا الكتاب من (دار العلوم) وحيه وهديه ، فإليها تقدمته وإهداؤه .

كالبحر يمطره السحاب وماله فضـل عليه لأنه من مائه

محمد صالح سمك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم نابغة الأدب العربى
المغفور له
السيد (مصطفى صادق الرافعى)

الوجه فى إفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف، أن تصنع كأنك تعيده إلى الدنيا فى كتاب وكان إنساناً، وترجعه درساً وكان عمراً، وترده حكاية وكان عملا. وتنقله بزمنه إلى زمنك، وتعرضه بقومه على قومك، حتى كأنه بعد أن خلقه الله خلقة إيجاد يخلقه العقل خلقة تفكير.

من أجل ذلك لا بد أن يتقصى المؤلف فى الجمع من آثار المترجم وأخباره، وأن يحمل فى ذلك من العنت ما يحمله لو هو كان يجرى وراء ملكى من يترجمه لقراءة كتاب أعماله كتابه فى يديهما .... ولا بد أن يبالغ فى التمحيص والمقابلة، ويدقق فى الاستنباط والاستخراج، ويضيف إلى عامة ما وجد من العلم والخبر خاصة ما عنده من الرأى والفكر، ويعمل على أن ينقح ما انتهى إليه الماضى فى أدبه وعلمه بما بلغ إليه الحاضر فى فنه وفلسفته. وذلك من عمل العقل المتجدد أبدا، والمترادف بالليل والنهار على هذه الأرض. كل نهار أو ليل هو آخر وهو أول، وكذلك العقول كلها آخر من ناحية وأول من ناحية.

والتجديد فى الأدب إنما يكون من طريقتين: فأما واحدة فإبداع الأديب الحى فى آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة فى اللغة والبيان، وأما الأخرى فإبداع الحى فى آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة، وأساليب الفن الجديدة. وفى الإبداع الأول إيجاد ما لم يوجد،

وفى الثانى إتمام مالم يتم فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها، ولا تجديد إلا من ثمة ، فلا جديد إلا مع القديم .

وإذا تبينت هذا وحقيقته أدركت لماذا يتخبط منتحلو الجديد بيننا وأكثرهم يدعيه سفاها ويتقلده زورا ، وجملة عملهم كوضع الزنجى الذرور الأبيض (البودرة) على وجهه ثم يذهب يدعى أنه خرج أبيض من أمه لا من العلبة . . . . . فإن منهم من يضع رسالة فى شاعر وهو لا يفهم الشعر ولا يحسن تفسيره ولا يجده فى طبعه ، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها ، ومنهم من يجدد فى تاريخ الأدب ولكن بالتكذب عليه والتقحم فيه والذهاب فى مذهب المخالفة ، يضرب وجه المقبل حتى يجىء مدبراً ووجه المدبر حتى يعود مقبلا فإذا لكل طريق جديد . وينسى أن جديده بالصنعة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق .

ألا إن كل من شاء استطاع أن يطب لكل مريض لا يكافه ذلك إلا قولا يقوله وتلفيقا يدبره ، ولكن أكذلك كل من وصف دواء استطاع أن يشفى به ؟

* * *

وبعد فقد قرأت رسالة امرىء القيس التى وضعها الأديب الفاضل السيد (محمد صالح سمك) فرأيت كاتبها قد أدرك حقيقة الفن فى هذا الوضع من تجديد الأدب ، فاستقام على طريقة غير ملتوية ومضى فى المنهج السديد، ولم يدع التثبت وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحصيف الرأى ، ولا قصر فى التحصيل والاطلاع والاستقصاء ، ولا أراه فاته إلا ما لا بد أن يفوت غيره مما ذهب فى إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجماً بالغيب وحكما بالظن .

فإن امرأ القيس فى رأيى إنما هو عقل بيانى كبير من العقول المفردة التى خلقت خلقها فى هذه اللغة ؛ فوضع فى بيانها أوضاعاً كان هو مبتدعها

والسابق إليها ، ونهج لمن بعده طريقتها فى الاحتذاء عليها ،والزيادة فيها ، والتوليد منها، وتلك هى منقبته التىانفرد بها والتى هى سر خلوده فى كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى ما بقيت اللغة . فهو أصل من الأصول فى أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما حتى لكأنه مصنع من مصانع اللغة لا رجل من رجالها . وكما يقال فى زمننا فى أمم الصناعة : سيارة فورد وسيارة فيات يمكن أن يقال مثل ذلك فى بعض أنواع البلاغة العربية : استعارة امرىء القيس وتشبيه امرىء القيس .

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ما انفرد به الشاعر وتأريخ كلماته البيانية مما لا يستطيعه باحث وليس لنا فيه إلا الوقوف عندما جاء به النص

ولقد نبهنا فى (إعجاز القرآن) إلى مثل هذا إذ نعتقد أن أكثر ما جاء فى القرآن الكريم كان جديداً فى اللغة لم يوضع من قبله ذلك الوضع،ولم يجر فى استعمال العرب كما أجراه ، فهو يصب اللغة صباً فى أوضاعه لأهلها لا فى أوضاع أهلها ، وبذلك يحقق من نحو ألف وأربعمائة سنة ما لا نظن فلسفة الفن قد بلغت إليه فى هذا العصر ، إذ حقيقة الفن على ما نرى أن تكون الأشياء كأنها ناقصة فى ذات أنفسها ليس فى تركيبها إلا القوة التى بنيت عليها . فإذا تناولها الصنع الحاذق الملهم أضاف إليها من تعبيره ما يشعرك أنه خلق فيها الجمال العقلى ، فكأنها كانت فى الخلقة ناقصة حتى أتمها .

وهذا المعنى الذى بيناه هو الذى كان يحوم عليه الرواة والعلماء بالشعر قديماً يحسونه ولا يجدون بيانه وتأويله ، فترى الأصمعى مثلا يقول فى شعر لبيد : إنه طيلسان طبرى . أى محكم متين ولكن لا رونق له . أى فيه القوة وليس فيه الجمال ، أى فيه التركيب وليس فيه الفن .

والعقل البيانى كما قلنا فى غير هذه الكلمة هو ثروة اللغة وبه وبأمثاله نعامل التاريخ ، وهو الذى يحقق فيها فن ألفاظها وصورها ، فهو بذلك امتدادها الزمنى وانتقالها التاريخى وتخلقها مع أهلها إنسانية بعد إنسانية فى زمن بعد زمن ، ولا تجديد ولا تطور إلا فى هذا التخلق متى جاء من أهله والجديرين به

وهو العقل المخلوق للتفسير والتوليد وتلقى الوحى وأدائه واعتصار المعنى من كل مادة وإدارة الأسلوب على كل ما يتصل به من المعانى والآراء فينقلها من خلقتها وصيغها العالمية إلى خلق إنسان بعينه هو هذا العبقرى الذى رزق البيان .

* * *

وللسبب الذى أومأنا إليه بقى امرؤ القيس كالميزان المنصوب فى الشعر العربى ، يبين به الناقص والوافى . قال الباقلانى فى كتابه (الإعجاز) وقد ترى الأدباء أولا يوازنون بشعره (يريد امرأ القيس) فلاناً وفلانا ويضمون أشعارهم إلى شعره حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه (توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ للهجرة) وبين شعره فى أشياء لطيفة وأمور بديعة وربما فضلوهم عليه أوسووا بينهم وبينه أوقربوا موضع تقدمه عليهم وبروزه بين أيديهم ا.هـ

ومعنى كلامه أن امرأ القيس أصل فى البلاغة ، قد مات ولا يزال يخلق ، وتطورت الدنيا ولا يزال يجيء معها ، وبلغ الشعر العربى غايته ولا تزال عربيته عند الغاية .

وعرض الباقلانى فى كتابه طويلة امرىء القيس [1] فانتقد منها أبياتاً كثيرة ليدل بذلك على أن أجود شعر وأبدعه وأفصحه وما أجمعوا على تقدمه فى الصناعة والبيان هو قبيل آخر غير نظم القرآن لا يمتنع من آفات البشرية ونقصها وعوارها ، فركب فى ذلك رأسه ورجليه معاً .... فأصاب وأخطأ ، وتعسف وتهدى ، وأنصف وتحامل . وكل ذلك لمكانة امرىء القيس فى ابتكاره البيانى الذى لا يمكن أن يدفع عنه . ولما انتقد قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها — تمتعت من لهو بها غير معجل

قال : « فقد قالوا عنى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها ورقتها وهذه

(١) أى معلقته وهذه القصائد التى تسمى المعلقات لم تكتب ولم تعلق كما سنبينه فى تاريخ آداب العرب .

كلمة حسنة ولكن لم يسبق إليها بل هي دائرة فى أفواه العرب » ، ألا ليت شعري هل كان الباقلانى يسمع من أفواه العرب فى عصر امرىء القيس قبل أن يقول (وبيضة خدر) ؟

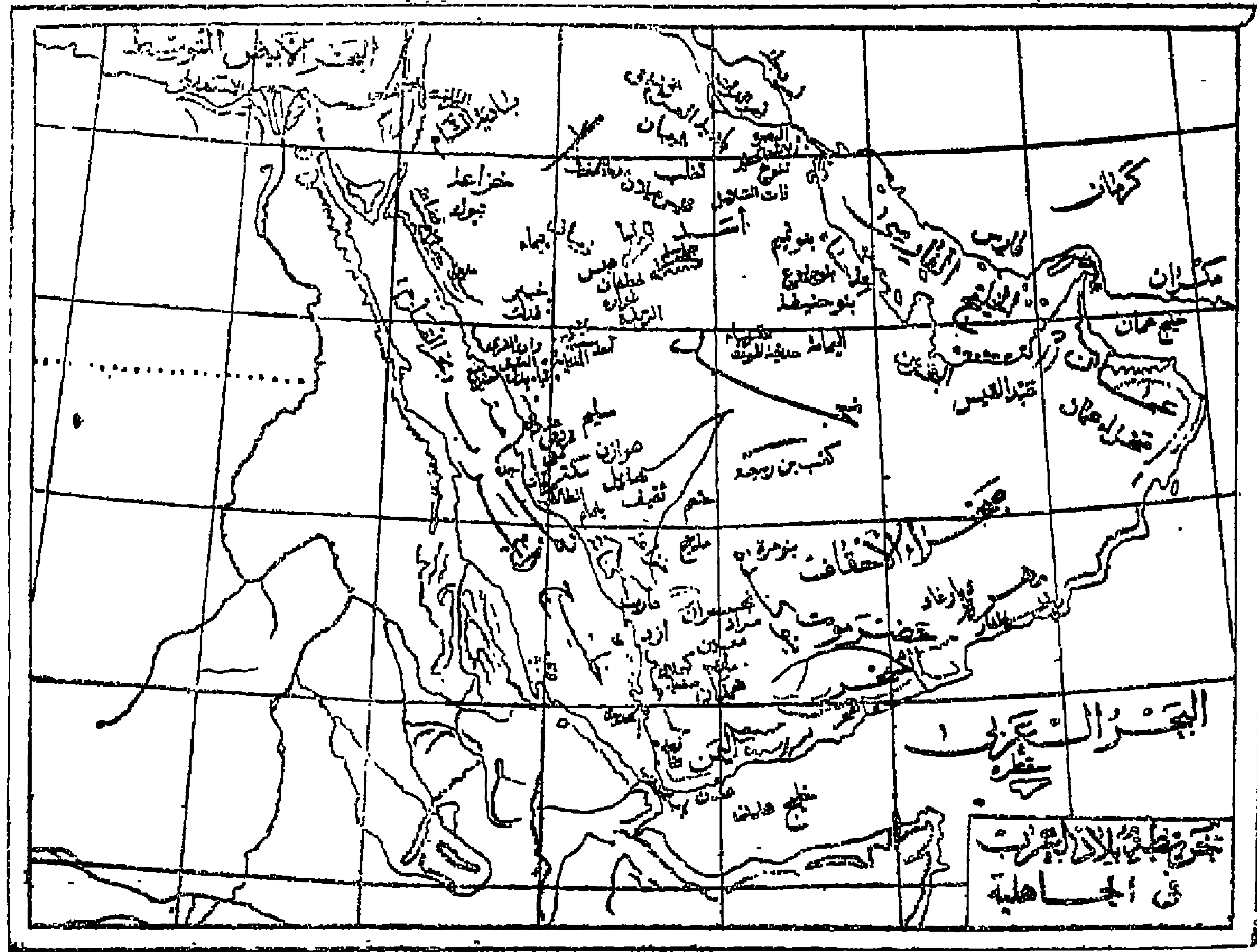
على أن الكناية عن الحبيبة (ببيضة الخدر) من أبدع الكلام وأحسن ما يؤتى العقل الشعرى ، ولو قالها اليوم شاعر من لندن أو باريس بالمعنى الذى أراده امرؤ القيس - لا بما فسرها به الباقلانى - لاستبدعت من قائلها ولأصبحت مع القبلة على كل فم جميل . بل هم يمرون فى بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة فيكنون عن البيت الذى يتلاقى فيه الحبيبان (بالعش) وما يتخذ العش إلا للبيضة . إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته فى نعومتها وترفها ولين ما حولها ، ثم فى مسها وحرارة الشباب فيها . ثم فى رقتها وصفاء لونها وبريقها ، ثم فى قيام أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها ، ثم فى انصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها وبجملة القوة إلى حياطتها والمحاماة عنها ، هى فى كل ذلك منهم ومن نفسها كبيضة الجارح فى عشه ، إلا أنها بيضة خدر ، ولذلك قال بعد هذا البيت :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً على حراصا لو يسرون مقتلى

فتلك بعض معانى الكلمة وهى كما ترى ، وكذلك ينبغى أن يفسر البيان .

مصطفى صادق الرافعى

طنطا : أغسطس سنة ١٩٢٩ م



خريطة بلاد العرب
في الجاهلية
البحر الأبيض المتوسط
كرمان
مكران
الخليج الفارسي
خليج عمان
عمان
عبد القيس
صحراء الأحقاف
حضرموت
البحر العربي
اليمن
خليج عدن
سقطرة

منهج البحث

قبل الأخذ فى دراسة ذلك الشاعر يجمل بى أن ألم بشىء مما يجب أن يتبع فى دراسة أى شاعر من الشعراء، لأجعل ذلك وسيلة موصلة لإدخال روح الطمأنينة وبشاشة اليقين على عقول القارئين فيما أورده عليهم فى هذا البحث .

أقول : إن ابن خلدون رسم فى مقدمته الخطة التى يجب أن يترسمها الباحث فى أحوال الجماعات والمتعاطى لتاريخ حياتها العامة . فأوجب عليه ألا يعتمد على مجرد النقل للأخبار من غير أن يتحا كم فيها إلى أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران ، ومذاهب الاجتماع .

وعندى أنه يجب على الباحث فى الأدب والشعراء أن يتبع هذا المنهاج ، مع إلمامه بشىء من الدراسات الضرورية لأجناس العلوم ، وقواعد الفلسفة، وأصول الأديان ، ومع أخذه من كل فن بطرف - كما يقولون - وأن يضيف إلى ذلك كله شيئاً من الشغف الفنى الذى يتصل بنفسه ، فيخلق فيها روح الأدب ، ويكون لها مزاج الأديب .

ولئن كان للشعر صناعة وثقافة — كما يقول ابن سلام — فإن البحث فى الأدب أحرى أن يكون كذلك . وصاحب هذه الصناعة محتاج إلى التشبث بكل فن ، حتى ما تقوله النادبة فى المآتم ، والماشطة عند جلوة العروس .

وقد لا يغنى عن مؤرخ الأدب والباحث فيه استحسانه لنوع منه عند نفسه ، وعلى قياس ذوقه ، إذا انحرف عن هذه الثقافة ، ولم يدخل فى اعتبار تلك الصناعة . ولقد قال قائل لخلف الأحمر إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالى ما تقول فيه أنت وأصحابك . فقال له خلف الأحمر أرأيت إذا استحسنت أنت درهما ثم قال لك الصيرفى إنه ردىء أ كان ينفعك استحسانك له ؟ . فأسكته . ولقد قال خلاد بن يزيد الباهلى لخلف بن حيان - وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله - بأى شى ترد هذه الأشعار

التى تروى ؟ قال له هل تعلم أنت منها ما أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال نعم . قال أفتعلم فى الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال نعم . قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك ما لا تعرف أنت .

وليس البحث فى الشاعر مقصوراً على أن نصفه بأنه نظم هذه القصيدة البارعة ، أوله تلك المعانى الرائعة . ولا أن شعره كان رقيقاً أو حوشيا . ولا أن نقول متى ولد ومتى مات ؟ . . . . . ولكن البحث الصحيح المنتج يتناول هذا الشاعر ، فيضرب حوله نطاقاً من أحوال بيئته الاجتماعية والسياسية والطبيعية ، ويتعرف ما كان للوارثة والمخالطة من آثار ظاهرة فى ملكات ذلك الشاعر ، ويتبع الحوادث التى كانت منبعاً لشعره وموردا لقوله ، ويقف على حاله من حيث غناه وفقره ، ورفعته وضعته ، وعزه وذله ، ونعمته وخشونته ، وسراؤه وضراؤه ، وحضره وبداوته ، وحربه وسلمه ، وعلمه وجهله ، وكبره وصغره . . . . . فكل ذلك له أثر فى نفسية الشاعر وشعره . فالناشىء بين بيئة راقية له مسلك فى معانيه وبيانه وأخيلته غير مسلك النابت بين السوقة . وكذلك شعر الشريف الناعم غير شعر الوضيع البائس . وشعر الحاضرة غير شعر البادية . وشعر الشاب الصغير غير شعر الشيخ الكبير ، وشعر المسالم الوادع غير شعر المحارب الثائر ، وشعر الناسك الزاهد غير شعر الماجن العاهر . . . .

وقد لا يوفق الباحث إلى نقل الصورة المطابقة لحقيقة الشاعر إذا حاول أن يأخذه من كلامه وحده ، غير باحث عن العوامل التى أحاطت به ، فقد تحتجب نفسية الشاعر لأمور سياسية ، أو لشهوات خاصة أو لأغراض أملتها عليه ظروف البيئة . والباحث يدور يبحث عن الشاعر فى شعره فلا يجد له إلا ظلا ضئيلا ، لا يكاد يحمل من حقيقته شيئاً ، بل قد لا يتصل بها فى شىء

وقــــد دلت التجربة مراراً على أن التباين قد يقع بين حقيقة الشاعر وبين ما يظهره فى شعره . فأين حقيقة المعرى فى قوله :

ألاح وقد أرى برقاً مليحا سرى فأتى الحمى نضوا طليحا [١]
كما أغضى الفتى ليذوق غمضا فصادف جفنه جفنا قريحا [٢]
إذا ما اهتاج أحمر مستطيرا حسبت الليل زنجيا جريحا [٣]

وقوله :

ولاح هلال مثل نون أجادها بجارى النضار الكاتب ابن هلال [٤]

وأين حقيقة بشار فى قوله :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه [٥]

ونحن نعلم أن كلاً منهما كان أعمى كفيف البصر .

بل أين حقيقة بشار فى قوله :

إن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم [٦]

ونحن نعلم أنه كان ضخم الجثة طبق لحما واكتنز شحما . ولكن الباحث إذا فتش عن تلك المؤثرات القائمة التى دعت الشاعر إلى أن ينتحى هذا المنحى ، ويسلك هذا المعنى . علم أن تلك النفس الشاعرة تحدثت بغير خاطرها ، وتنكرت فى صورتها ، ولبست ثوباً غير زيها .

* * *

وبعد فإنى لأرجو على ضوء هذا المنهج أن أوفى شاعرنا التاريخى العظيم حقه ، وأن أوفق فى تتبع حياته وشعره وأطواره ، ودراسته دراسة تحليلية تسد حاجتنا وتروى غلتنا .

ولست أدعى أنى فى ذلك بالغ ما لا يبلغه غيرى لأنى أعلم أن فى الناس من يعرف مالا أعرف والكمال لله وحده عليه توكلت وإليه أنيب .

---

(١) ألاح البرق أومض ولمع — سرى أى سار ليلا — النضو المهزول من السفر — الطليح المتعب
(٢) القريح الجريح
(٣) اهتاج أى ثار — مستطيراً منتشراً
(٤) النضار الذهب (٥) النقع الغبار (٦) البرد الثوب

أسرة امرىء القيس

يتصل نسب امرىء القيس بملوك كندة ، وكندة هم سادة اليمن ، ومجدها القديم ، وشرفها العميم ، كما يقول دغفل نسابة العرب ، وهم بطن من كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وأصلهم من البحرين والمشقر ، ثم أجلوا عنها فى زمن لا يمكن تحديده ، وقد أقاموا هناك حينا من الدهر على عهد التتابعة الحميريين،وكانت إقامتهم فى بلد عرف باسمهم «كندة» مرتفع عن الأرض ومشرف على حضرموت . ثم تحولوا إلى مهرة وأقاموا بدمون قصبتها الكبرى ، وكانوا على وفاق مع التتابعة الحميريين ، وهؤلاء الأخيرون اتخذوا منهم بطانة وأعوانا ، وأدخلوهم فى حاشيتهم ، واستخدموا خاصتهم وكبراءهم فى بعض مصالحهم — وقد ضاع أكثر أخبارهم — وأقدم من عرفت أخباره منهم حجر الملقب بآكل المرار ، وقد تولى حجر هذا ملك بعض القبائل العدنانية بنجد فى أوائل القرن الخامس الميلادى . وخبر ذلك أنه حين غلب سفهاء بكر عقلاءها على أمر القبيلة وأكل القوى منهم الضعيف ، وتقاطعت أرحامهم فتشاور رؤساؤهم فيما بينهم ، وقالوا الأفضل إلينا أن نملك علينا ملكا نعطيه الشاة والبعير ، ويأخذ للضعيف من القوى ، ويرد على المظلوم ماسلبه منه ظالمه ، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا حتى لا يطيعه قوم ويخرج عليه آخرون فتفسد ذات بيننا ، ولكننا نأتى تبع اليمن (حسانا) فنملكه علينا . فقصدوه وذكروا له أمرهم ، فملك عليهم حجرا آكل المرار ، لأنه كان ذا رأى ووجاهة ، فقدم حجر إلى نجد ، ونزل ببطن عاقل ، ثم توجه ببنى بكر بن وائل إلى ملوك الحيرة اللخميين وهم المناذرة ، فغزاهم بهم وغلبهم على أمرهم ، وردهم عما كانوا امتلكوه فى نجد ولاسيما بلاد بكر بن وائل ، ثم غزا بهم أيضا ملوك الشام وهم الغساسنة وانتصر عليهم ، فأحبته بكر واجتمعت كلمتها على احترامه وطاعته . ومازال كذلك حتى مات فيهم

ودفن بينهم ، وله من الولد عمرو ومعاوية الجون ، وقد قيل إنه خرف فى آخر حياته .

أما سبب تسميته بآكل المرار فإنه كان قد سار بجنده لغزو ربيعة ، وكان فى أيامه رجل يقال له زياد بن الهبولة بن عمرو القضاعى ـ رئيسا لقوم من العرب بأطراف الشام ـ فلما سمع بغيبة حجر وجيشه ، أغار على ديارهم وأخذ كثيرا من أموالهم ، وسبى غير قليل من نسائهم . وكانت إحدى السبايا امرأة حجر وهى هند بنت ظالم . ولما بلغ حجر خبر إغارة زياد ارتدعن غزو ربيعة فى طلب غريمه ابن الهبولة . وتعجل من جند حجر عمرو بن معاوية وعوف ابن محلم الشيبانى وقالا لحجر إنا متعجلان إلى زياد لعلنا نأخذ منه بعض ما أصاب ، فلقياه دون عين أباغ ، فكلمه عوف بن محلم ، وقال له ياخير الفتيان أردد على امرأتى أمامة ، فردها عليه وهى حامل — فولدت له بنتاً أراد عوف أن يئدها فاستوهبها منه عمرو بن معاوية ، وقال لعلها تلد أناسا فسميت «أم أناس» وتزوجها الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار فولدت عمرا ويعرف بابن أم أناس — ثم إن عمرو بن معاوية قال لزياد أيضا وأنا ياخير الفتيان أردد على ما أخذته من إبلى، فردها عليه وفيها فحلها ، فنازعه الفحل إلى الإبل فصرعه عمرو ، فقال له زياد لو صرعتم يا بنى شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لكنتم أنتم . فقال له عمرو : لقد أعطيت قليلا، وشتمت جليلا ، وجررت على نفسك ويلا طويلا . ثم ركض حتى صار إلى حجر فأخبره الخبر ، فأقبل حجر فى أصحابه حتى إذا كان بمكان يقال له الحفير — وهو دون عين أباغ — بعث سدوس بن شيبان وصليع بن عبد غنم يتجسسان له الخبر ، ويعلمان علم العسكر ، فخرجا حتى وصلا إلى عسكر زياد ليلا وقد أوقد نارا ونادى مناديه من جاء بحزمة من حطب فله فدرة[1] من تمر . فاحتطب سدوس وصليع ثم أتيا

---

(١) الفدرة القطعة والكمية من كل شىء .

بما احتطبا إلى ابن الهبولة وطرحاه بين يديه، فناولهما من التمر، وجلسا قريبا من القبة، ثم إن صليعا قال هذه آية وعلم ما يريد، فانصرف إلى حجر وأخبره بأمر زياد وعسكره وأراه التمر. أما سدوس فقال لا أبرح حتى آتيه بأمر جلي، وجلس مع القوم يسمع ما يقولون. ولما انقضى شطر من الليل أقبل رجالات من أصحاب زياد يحرسونه، وقد تفرق أهل العسكر فى كل ناحية، ودنا سدوس من القبة متخفيا بحيث يسمع ويرى. فإذا بزياد قد دنا من هند -امرأة حجر- فقبلها وداعبها، وقال لها ما ظنك الآن بحجر؟ فقالت ما هو ظن ولكنه يقين، إنه والله لن يدعك حتى تدع القصور الحمر، وكأنى به فى فوارس من بنى شيبان يذمرهم[1] ويذمرونه، وهو شديد الكلب[2] سريع الطلب، تزبد شفتاه كأنه بعير آكل مرار، فالنجاء النجاء، فإن وراءك طالبا حثيثا، وجمعاً كثيفاً، وكيدا متينا، ورأيا صليبا. فرفع زياد يده ولطمها، ثم قال لها ما قلت هذا إلا من عجبك به وحبك له. فقالت والله ما أبغضت أحدا بغضى له، ولا رأيت رجلا أحزم منه نائما ومستيقظا، إن كان لتنام عينه فبعض من أعضائه مستيقظ لا ينام. قال كيف ذلك؟. قالت كان إذا أراد النوم أمرنى أن أجعل عنده عسا[3] من لبن. فبينما هو نائم ذات ليلة وأنا قريبة منه أنظر إليه إذ أقبل أسود سالخ[4] إلى رأسه فنحى رأسه، فمال الثعبان إلى يده فقبضها حجر، فمال إلى العس فشربه ثم مجه. فقلت فى نفسى يستيقظ الرجل ويشربه فيموت فأستريح منه. ولما استيقظ من نومه قال على بالإناء، فناولته إياه فشمه ثم أهراقه على الأرض. وقال أين ذهب الأسود ياهند؟ فقلت ما رأيته فقال كذبت.

ذلك الحديث الذى تقصه هند على زياد بن الهبولة يسمعه سدوس

---

(١) يذمرهم يحرضهم على القتال (٢) الكلب الغضب والأسف.
(٣) العس الإناء (٤) الأسود السالخ من ذكور الحيات العظام.

ويعيه . فلما نامت الأحراس خرج سدوس يسرى ليلته حتى صبح حجرا فقال له : —

أتاك المرجفون بأمر غيب على دخل وجئتك باليقين

فمن يك قد أتاك بأمر لبس فقد آتى بأمر مستبين

ثم قص عليه جميع ما سمع ورأى . فجعل حجر يعبث بالمرار يأكل منه وهو غضبان محنق لا يشعر أنه يأكله من شدة ما أصابه من الغيظ والكمد، فسمى يومئذ بآكل المرار . ثم أمر حجر فنودى فى الناس بالرحيل ، فساروا إلى عسكر زياد واقتتلوا وإياهم قتالا شديدا ، وكان النصر حليف حجر وأجناده ، واستنقذت بكر وكندة ما كان بأيدى أعدائهم من الغنائم والسبايا ، وعرف سدوس زيادا وحمل عليه فاعتنقه وصرعه وأخذه أسيرا . فلما رأى ذلك عمرو بن معاوية حسد سدوسا على هذا فطعن زيادا فأرداه قتيلا حتى لا ينفرد سدوس بالفخر دونه ، فغضب سدوس من ذلك الفعل ، وقال لصاحبه قتلت أسيرى وديته دية ملك !! .. ثم تحاكما إلى حجر فحكم على عمرو وقومه لسدوس بدية ملك وأعانهم من ماله . وأخذ حجر زوجته هندفربطها فى فرسين ثم ركضا بها حتى قطعت إربا إربا ، ومزقت شر ممزق[1] ويقال إن حجرا أحرقها وقال فيها : —

لمن النار أوقدت بحفير لم ينم عنه مصطل مقرور[2]

---

(١) وجاء فى رواية أخرى أن حجراً سمى آكل المرار لأنه لما أتاه الخبر بأن (الحرث ابن جبلة) كان نائماً فى حجر امرأته هند وهى تفليه جعل يأكل المرار — وهو نبت شديد المرارة — من الغيظ وهو لا يدرى ويقال بل قالت هند للحرث وقد سألها ماترين حجرا فاعلا . قالت كأنك به قد أدركك فى الخيل وهو كأنه بعير قد أكل المرار .

وسواء لدينا أكان صاحب القصة مع حجر وزوجته هو زياد بن الهبولة أم الحرث بن جبلة فإن القصة فى ذاتها ومع تعدد رواياتها تدل فى جملتها على أن السبب فى تسمية حجر بآكل المرار ما كان من زوجته وجعلها هواها مع عدوه .

(٢) المصطلى المستدفىء . والمقرور الذى أصابه البرد .

أوقدتها هنـد الهنود وقالت ... أنت ذا موثق وثاقا أسير
إن من غره النســـاء بشيء ... بعد هنـد لجاهـل مغرور
حلوة القول والحـديث ومر ... كل شيء أكن منها الضـمير
كل أنثى وإن بداالك منهـا ... آية الحب حبها خيسعور [1]

وحكم كندة بعد حجر ابنه عمرو المقصور الذى اقتصر على ملك والده، أما معاوية الجون بن حجر فلقد كان ملكا على اليمامة .

وتولى حكم كندة بعد المقصور ابنه الحارث بن عمرو بن حجر ، ومكث فى الملك خمسين عاما (٤٩٠ ـ ٥٤٠م) وكان شديد البأس ، ذائع الصيت ، كبير المطامع ، وفى أيامه فتح الأحباش اليمن ، وقضوا على دولة حمير ، فضعف شأن كندة لأنها كانت حليفتها ومن خير أعوانها وأنصارها ، ولـكن الحارث كان سياسيا حازما ، وملكا بعيد النظر ، فلم يغفل عن إعزاز ملـكه وتقوية سـلطانه ، فولى وجهه شطر الأكاسرة كى يتخذ منهم أحلافا يشدون أزره ويقوون ساعده ، وكان الحارث هذا يحسد اللخميين على تقربهم من الأكاسرة وأحب أن تـكون تلك المكانة له من دون اللخميين ملوك الحيرة ، فما زال يترقب الفرص ، ويتهيأ للأمر حتى تنـكر كسرى قباذ ملك الفرس للمنـذر ابن ماء السماء ملك الحيرة بسـبب المزدكية . فإن المنذر جلس على العرش فى أواسـط حكم قباذ وظهر فى أثناء ذلك (مزدك) ذلك الرجل الزنديق الذى ذهب إلى إباحة الأموال والحرم ، ودعا الناس إلى مذهبـه ، فدخل فيه قباذ وتعصب لصاحبه ، وحمل رجاله على اعتناقه راجيا أن يسـتولى بذلك على ما بأيدى رعيته من الأموال فثار الأشراف فى وجهه ، وأكبر المنـذر هذه البدعة وأبى الدخول فيها ومناصرة أشياعها ، فغضب عليه قباذ وشرده واستعان عليه بدولة كندة ، وانتهز الحارث الـكندى هذه الفرصة فوافق قباذ على المزدكية وشـايعه عليها ابتغاء الوصول إلى غاياته ؛ ثم غزا الحيرة وأخرج

---

(١) الخيسعور المتغير الذى لا يدوم على حال

منها المنذر[١] وبذلك أصبح الحارث الكندى ملكا على الحيرة ، فعظم فى أعين القبائل ، وجعلوا يتقربون إليه ويفدون عليه ، يقدمون له الطاعة ويظهرون الولاء . ولما تفاسدت قبائل نزار ، وبدت بينهم العداوة والبغضاء ، ودب فيهم دبيب الفساد ، وآل أمرهم إلى التدابر والتخاذل ، أتى أشرافهم الحارث فقالوا له إنا نخاف أن نتفانى مما يحدث بيننا ، فوجه معنا بنيك ينزلون فينا فيكفون بعضنا عن بعض . فأجابهم إلى ما طلبوا ، وفرق أولاده فى القبائل ، فجعل ابنه حجرا ـ والد امرىء القيس ـ ملكا على بنى أسد وغطفان . وملك ابنه شرحبيل الذى قتل يوم الكلاب الأول على بكر بن وائل بأسرها وبنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم من تميم والرباب ، وملك ابنه معد يكرب على بنى تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية . وملك ابنه عبد الله على بنى عبد القيس ، وأمر ابنه سلمة على بنى قيس .

بيد أن الحال لم تدم للحارث بن عمرو بل غالبه القدر ، وتنكر له الدهر ، فنكب فى ملكه وعزته ، ولم يطل سلطانه على الحيرة . فما هو إلا أن مات قباذ وتولى بعده أنو شروان وكان حانقا على المزدكية متبرما من مسلك أبيه ، فلقد كانت أمه يوما بين يدى والده قباذ ، فدخل عليه مزدرك الزنديق فقال لقباذ ادفع إلى زوجتك لأقضى منها حاجتى ، فقال له قباذ دونكها . فوثب أنو شروان إلى مزدرك وطفق يتضرع إليه ، وما زال به يستعطفه ويرتجيه أن يرجع عن أمه ، ويكف عما يريد أن يفعله معها حتى وصلت به الحال أن قبل رجله ، فتركها مزدرك وكانت تلك فى نفس أنو شروان . فلما جلس على سرير الملك وفد الناس عليه ، وكان فيهم مزدرك ، ثم دخل عليه المنذر ، فقال أنو شروان

---

(١) هذا وليعلم القارىء أن المنذر كان زوجا لهند الكبرى ابنة الحارث الكندى أى أنه كان بين المنذر والحارث قرابة المصاهرة ولكن ذلك لم يحل دون منازعتهم وإشعال الحروب بينهم . وهذا يوقفنا على مدى القطيعة التى كانت بين القبائل العربية الجاهلية قبل أن يلم الإسلام شعثها وتجمع شتيتها وبجعل منها وحدة قومية وجبهة قوية .

لجلسائه إنى كنت تمنيت أمنيتين أرجو أن يكون الله قد جمعهما لى ، فقال مزدرك وما هما أيها الملك ؟ قال تمنيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف (يريد المنذر) وأن أقتل هؤلاء الزنادقة (يريد مزدك وأشياعه) فقال مزدك أوتستطيع أن تقتل الناس كلهم ؟ فقال له أنو شروان إنك لههنا يا ابن الزانية ، والله ما ذهب نتن ريح جوربك من أنفى منـــذ قبلت رجلك إلى يومى هذا ، وأمر به فقتل وصلب ، وأمر بقتل الزنادقة فقتل منهم ما بين حاذر إلى النهروان إلى المدائن فى ضحوة واحدةومائة ألف زنديق وصلبهم ، ثم أرجع المنذر إلى عرشه وغضب على الحارث بن عمرو ـ الذى تابع أباه قباذ على الزندقة حتى ولاه مكان المنذر ـ وجد فى طلبه ، فبلغ الحارث ذلك وهو بالأنبار وكان بها منزله فخرج هاربا بماله وهجائنه وأهله فتبعه المنذر على خيل من تغلب وإياد وبهراء فلحقوا الحارث بأرض كلب (بين الحجاز والعراق) فانتهبوا ماله وهجائنه ، وساقوا معهم ثمانية وأربعين نفسا من بنى آكل المرار فيهم عمرو ومالك من ولد الحارث ، فقدم بهم على المنذر فضرب رقابهم فى ديار بنى مرينا وفى ذلك يقول امرؤ القيس : ـ

مـــلوك من بنى حجر بن عمرو يساقون العشـــية يقتلونا
فلو فى يوم معركة أصـــيبوا ولكن فى ديار بنى مرينا
ولم تغســـل جماجمهم بغســـل ولكن فى الدماء مرملينا[1]
تظل الطـــير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيونا

وجاء فى الأغانى أنه فى ذلك يقول عمرو بن كلثوم التغلبى

فآبوا بالنهـاب وبالســـبايا وأبنا بالملوك مصفدينا[2]

أما الحارث فإنه نجا بنفسه ، وما زال هائما على وجهه حتى وافته منيته فى بنى كلب واختلفوا فى موته . فقالت كلب نحن قتلناه ، وقالت كندة إنما خرج للصيد فألظ[3] بتيس من الظباء فأعجزه ، فآلى على نفسه ألا يأكل إلا منه ، فطلبت

---

(١) المرمل الملطخ بالدم (٢) مصفدين موثقين (٣) الإلاظ التطارد .

خيله الظبي ثلاثة أيام ، ثم جيء به إليه وقد هلك جوعا فشوى له بطنه فالتهم فلذة من كبده وهي حارة فكان فيها حتفه . ونحن نميل إلى أن بني كلب هم قاتلوه، على أن كلتا الروايتين تحدثنا أن منيته كانت في ديار بني كلب .

وبعد أن هلك الحارث تشتت أمر بنيه ، وتفرقت كلمتهم ، فلقد سعى المنذر بينهم بالوشاية حتى بدت بينهم العداوة والبغضاء ، وتحاسدوا وتخاذلوا وتفاقم الأمر ، فجمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع ، وكان من أثر ذلك أن سلمة بن الحارث قاتل أخاه شرحبيل في معركة تعرف بيوم الكلاب الأول ، وكان سلمة هذا جعل جعلا لمن يقتل أخاه ، فقتله رجل يقال له أبو حنش ، واحتز رأسه وبعث بها إلى سلمة مع ابن عم له يسمى أبو أجأ بن كعب بن مالك بن غياث ، فألقاها بين يديه ، فقال له سلمة لو كنت ألقيتها إلقاء رفيقا . فقال ما صنع به وهو حي أشد من هذا ، وعرف أبو أجأ الندامة في وجه سلمة والجزع على أخيه بعد أن علم أن المنذر هو المسبب لهذا كله ، فهرب أبو أجأ وهرب أبو حنش ، وقال سلمة يرثى أخاه وفيها يظهر الندامة :

ألا أبلغ أبا حنش رسولا فمالك لا تجيء إلى الصواب
تعلم أن خير الناس طرا قتيل بين أحجار الكلاب
تداعت حوله جشم بن بكر وأسلمه جعاسيس الرباب[1]
قتيل ما قتيلك يا ابن سلمى تضربه صديقك أو تحابى

فأجابه أبو حنش :

أحاذر أن أجيئك ثم تحبو حباء أبيك يوم صنيعات
وكانت غدرة شنعاء تهفو تقلدها أبوك إلى الممات

وقال معد يكرب بن الحارث المعروف بغلفاء ـ وكان مسالما معتزلا عن جميع هذه الحروب ـ يرثى أخاه شرحبيل .

---

(١) تداعت تجمعت وأسلمه خذله والجعسوس القصير الدميم

إن جنبي عن الفراش لنابٍ   كتجافي الأسير فوق الظراب [1]
من حديث نمى إلىّ فلا تر   قأ عيني ولا أسيغ شرابي
مرة كالزعاف أكتمها النـــا   س على حر ملة كالشهاب
من شرحبيل إذ تعاوره الأر   ماح في حال لذة وشباب
يابن أمي ولو شهدتك إذ تد   عو تميما وأنت غير مجاب
لتركت الحسام تجرى ظباه   من دماء الأعداء يوم الكلاب
ثم طاعنت من ورائك حتى   تبلغ الرحب أو تبز ثيابي
يوم ثارت بنو تميم وولت   خيلهم يتقين بالأذناب
ويحكم يابني أســـيد إني   ويحكم ربكم ورب الرباب
أين معطيكم الجزيل وحابيـــكم على الفقر بالمئين اللباب
فارس يضرب الكتيبة بالسيـــف على نحره كنضح المذاب
فارس يطعن الكماة جرىء   تحتـه قارح كلون الغراب

وخرج سلمة من تغلب، والتجأ إلى بكر بن وائل فأذعنت له. فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى الطاعة فأبوا، فحلف ليسيرن إليهم فإن ظفر بهم ليذبحنهم على قمة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض، وسار إليهم في جموع كثيرة فقاتلوه فهزمهم، وأسر منهم يزيد بن شرحبيل الكندى وأمر به فقتل، وقتل في المعركة خلق كثيرون، وأسر المنذر من بكر عددا كبيرا أمر بذبحهم، وكان ذلك بنجد حوالى سنة ٥٤٨م

وبهلاك سلمة وشرحبيل ضعف شأن الباقين من أبناء الحارث الكندى وهم حجر ومعد يكرب وعبد الله، حتى إن بنى أسد تنكروا لحجر وأظهروا له العداء، وتابعهم في ذلك غطفان لأنه لم يحسن سياستهم، فقد ضرب عليهم إتاوة أثقل بها كاهلهم، ولكنهم كانوا يؤدونها له على مضض ما دام في عز بأبيه وأخوته، فلما علموا بنكبة أبيه وموته أولا، وتطاحن أخويه وهلاكهما

(١) الظراب ما نتأ من الحجارة .

ثانياً ، أظهروا له العصيان، وامتنعوا عن أداء الإتاوة وضربوا رسله ، وحجر يومئذ بتهامة وظنوا أنهم قادرون عليه ، ولكنه جلب عليهم بخيله ورجله ، وجرد لهم سيفه ، واستعان عليهم بأجناده من ربيعة وأجناد أخيه من قيس وكنانة ، وزج بطائفة من أشرافهم فى غياهب السجن ، وسامهم الذل وأنواع النكال ، وحرم على فريق منهم المقام بنجد ، فارتحلوا إلى تهامة . بيد أنه لم يطل عليهم أمد هذا الهوان فإن عبيد بن الأبرص استعطف حجراً وهو فى سجنه بقصيدة كانت شفاعة لقومه لدى الملك وفيها يقول : —

يا عين فابكى ما بنى أسد فهم أهل الندامة
أهل القباب الحمر والنعم المؤبل والمدامة(١)
وذوى الجياد الجرد والأسل المثقفة المقامة(٢)
مهلا أبيت اللعن مهلا إن فيما قلت آمة(٣)
فى كل واد بين يثرب فالقصور إلى اليمامة
تطريب عان أو صيا ح محرق أو صوت هامة
ومنعتهم نجداً فقد حلوا على وجل تهامة
برمت بنو أسد كما برمت ببيضتها الحمامة(٤)
جعلت لهم عودين من نشم وآخر من ثمامة
إما تركت تركت عفواً أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة
ذلوا لسوطك مثل ما ذل الأشيقر ذو الخزامة

فأطلق الملك سبيلهم ، وعفا عنهم ، ولكنهم يضمرون العداوة والبغضاء لحجر وأصحاب حجر لما أصابهم من هذا الذل وذلك الهوان ، فتمالئوا عليه ، وركبوا كل صعب وذلول ، وبيتوا له الشر ، وائتمروا على قتله ، وكان حجر قد بعث فى إثرهم كى يقبلوا عليه بعد فك إسارهم ، فساروا إليه حتى إذا كانوا

(١) المؤبل المكمل (٢) الأسل الرماح والنبل . المثقفة المقومة السواة (٣) الآمة العيب .
(٤) برم سئم وضجر .

على مسافة يوم من تهامة تكهن لهم كاهنهم وهو عوف بن ربيعة الأسدى ، فقال لهم : من الملك الأصهب،الغلاب غير المغلب ، فى الإبل كأنها الربرب، هذا دمه يتشعب ، وهو غداً أول من يسلب . قالوا من هذا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية . فما أدبر الليل وأسفر الصبح حتى جاءوا عسكر حجر وهجموا على قبته ، وأقبل علباء بن الحارث الكاهلى — وكان حجر قد قتل أباه فطعنه من خللهم فأصاب نساه فقتله ، وحينئذ قالت بنو أسد يا معشر كنانة وقيس أنتم إخواننا وبنو عمنا والرجل ليس منا ولا منكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم هو وقومه ، فانتهبوهم إنهم مأكولون ، ثم شدوا على هجائنه فمزقوها ، ولفوه فى ريطة بيضاء وطرحوه على ظهر الطريق ، وانتهبت قيس وكنانة أسلابه .

وقيل إن بنى أسد ناهضوه القتال فلم يلبثوا أن هزموا أصحابه وأخذوه أسيراً ثم حبسوه ريثما يتشاورون فى قتله ، فلما رأى ذلك علباء بن الحارث خشى أن ينجو حجر منهم فدعا غلاما من بنى كاهل هو ابن أخته . وكان حجر قد قتل أباه — وقال يا بنى أعندك خير فتثأر بأبيك ، وتنال شرف الدهر ، وإن قومك لن يقتلوك . فلم يزل بالغلام حتى أحمسه ، ودفع إليه حديدة قد شحذها ؛ وقال له ادخل عليه مع قومك ثم اطعنه فى مقتله ، فعمد الغلام إلى الحديدة فأخبأها ؛ ثم دخل على حجر فى قبته التى حبس فيها ، وانتهز الغلام غفلة من قومه ثم وثب عليه فضربه ضربة مميتة كان فيها هلاكه ؛ فوثب القوم على الغلام يريدون الفتك به ، فقال إنما ثأرت بأبى فخلوا عنه .

وهناك روايات أخرى فى مقتل حجر ذكرها الرواة ، ولكنها فى جملتها تتفق على أن بنى أسد هم الذين قتلوه وأوردوه موارد الموت .

وكان حجر ساعة احتضاره أوصى ودفع كتابه إلى رجل يثق به

من بنى عجل يقال له عامر الأعور ، وقال له انطلق إلى ابنى نافع — وكان أكبر أولاده ـ فإن بكى وجزع فاله عنه ، واستقر أولادى واحدا واحدا حتى تأتى امرأ القيس — وكان أصغرهم سنا ـ فأيهم لم يجزع فادفع إليه سلاحى وخيلى ووصيتى ، وكان قـــد بين فى وصيته من قتله ، وكيف كان خبره، فانطلق الرجل بالوصية إلى نافع فأخذ التراب فوضعه على رأسه، ثم جاءهم واحدا واحدا ، فكلهم جزع وفعل مثل مافعل نافع ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه النرد ، فقال له عامر الأعور قتل حجر ، فلم يلتفت إليه امرؤ القيس ، وأمسك نديمه عن اللعب ، فقال له امرؤ القيس اضرب ، فضرب حتى إذا فرغ.فقال : ما كنت لأفسد عليك دستك ، ثم سأل الرسول عن أمر أبيه ، فقص عليه القصص ، فقال الخمر والنساء علىّ حرام حتى أقتل من بنى أسد مائة ، وأجز نواصى مائة ، وفى ذلك يقول :

أرقت ولم يأرق لمابى نافع وهاج لى الشوق الهموم الروادع

وبذلك أصبح أمرؤ القيس أحق بملك والده ، وأجدر بالأخذ بثأره على حسب وصية أبيه حجر .

مولد امرئ القيس
وشاعريته المتوارثة

ليس يصح لدى النظر الصادق أن يكون ماعرف به امرؤ القيس من براعته فى الشعر، ونبوغه فى القريض جاءه على غير إرث من آبائه وأجداده، بل لابد أن يكون جاريا فى ذلك على عرق من عروقهم وسليقة من طبائعهم؛ فعمومته شعراء، وخئولته شعراء، والشعر وإن كان سليقة فى النفس إلا أن الوراثة لها أثر كبير فى تلك السليقة الشاعرية، وقل أن نجد شاعرا ليس فى أحد من أصوله ملكة الشعر. ولقد رأينا فى نسب امرىء القيس من جهة أبيه شاعرية متوارثة فى أجداده وعمومته الذين تلقوها كابرا عن كابر وذكرنا من شعر جده حجر الملقب بآكل المرار قوله

لمن النار أوقدت بحفير ... لم ينم عنه مصطل مقرور
أوقدتها هند الهنود وقالت ... أنت ذا موثق وثاقا أسير
إن من غره النساء بشىء ... بعد هند لجاهل مغرور
حلوة القول والحديث ومر ... كل شىء أكن منها الضمير
كل أنثى وإن بدالك منها ... آية الحب حبها خيسعور

ومن شعر عمه سلمة يرثى أخاه شرحبيل ويندم على ما فرط فى جنبه [1]

ألا أبلغ أبا حنش رسولا ... فمالك لا تجىء إلى الصواب
تعلم أن خير الناس طرا ... قتيل بين أحجار الكلاب
تداعت حوله جشم بن بكر ... وأسلمه جعاسيس الرباب
قتيل ما قتيلك يا ابن سلمى ... تضربه صديقك أو تحابى

ومن شعر عمه معد يكرب يرثى شرحبيل أيضاً

إن جنبي عن الفراش لنابى ... كتجافى الأسير فوق الظراب
من حديث نمى إلىّ فلا تر ... قأعينى ولا أسيغ شرابى
مرة كالزعاف أكتمها النا ... س على حرملة كالشهاب

---

(١) وروى بعضهم هذا الشعر لعمه معد يكرب .

من شرحبيل إذ تعاوره الأر ماح فى حال لذة وشـباب
يا بن أمى ولو شهدتك إذ تد عو تميما وأنت غير مجاب
لتركت الحسام تجرى ظبـاه من دماء الأعداء يوم الكلاب
ثم طاعنت من ورائك حتى تبلغ الرحب أو تبز ثيـابى
يوم ثارت بنـو تميم وولت خيلهم يتقـين بالأذناب
ويحكم يابنى أسـيد إنى ويحكم ربكم ورب الوباب
أين معطيكم الجـزيل وحابيـكم على الفقر بالمئين اللباب
فارس يضرب الكتيبة بالسيف على نحره كنضح المـذاب
فارس يطعن الكماة جرىء تحتـه قارح كلون الغراب

أما ميراث امرىء القيس الشعرى من جهة أمه ، فإن خاله هو مهلهل ابن ربيعة التغلبى الذى قال عنه بعض الرواة إنه هلهل الشعر ونقله من المقطعات إلى المطولات . وإنا لنجد فى شعر المهلهل بلاغة فياضة ، وفصاحة تنجاب دونها ألسنة المقاول . ومن قصائده : —

أليلتنـا بذى حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى (١)
فإن يك بالذنائب طال ليـلى فقد أبكى من الليل القصـير
وأنقذنى بياض الصبح منها لقـد أنقذت من شر كبير
كأن كواكب الجوزاء عوذ معطفة على ربع كسير (٢)
كأن الجـدى فى مثناه ربق أسير أو بمنزلة الأسـير (٣)
كأن النجم إذ ولى سـحيرا فصـال جلن فى يوم مطير (٤)
كواكبها زواحف لاغبات كأن سماءها بيـدى مدير (٥)
كواكب ليـلة طالت وغمت فهذا الصبح راغمـة فغورى
وتسألنى بديلة عن أبيهـا ولم تعـلم بديلة ما ضميرى

---

(١) ذى حسم موضع. تحورى ترجعى (٢) العوذ الحديثات النتاج . والربع ماتتج فى الربيع (٣) المثناة المثنى . والربق الحبل (٤) النجم الثريا (٥) الزواحف المعييات التى لا تقدر على النهوض واللاغبات مثلها .

ويقول فيها أيضاً مشيراً إلى حرب البسوس التي كانت بين بكر وتغلب :

فلو نبش المقـــابر عن كليب ... فيخبر بالذنائب أى زير[1]
بيـــوم الشعثمين لقر عينـــا ... وكيف لقاء من تحت القبور
وإنى قد تركت بواردات ... بجيرا فى دم مثـــل العبير
هتكت به بيوت بنى عبـــاد ... وبعض القتل أشفى للصـدور
وهمام بن مرة قد تركنا ... عليه القشعمين من النسور
ينوء بصـــدره والرمح فيه ... ويخلجه خـــدب كالبعير[2]
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا طرد اليتيم عن الجـــزور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا رجف العضاه من الدبور[3]
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما ضيم جيران المجـــير
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب ... غداة بلابل الأمر الكبير
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا برزت مخبـــأة الخدور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا علنت نجيـــات الأمور
فدى لبنى الشقيقـة يوم جاءوا ... كأسد الغـاب لجت فى الزئير
كأن رماحهم أشـــطان بئر ... بعيد بين جاليهـــا جرور[4]
فلا وأبى جليـــلة ما أفأنا ... من النعم المؤبل من بعير[5]
ولـكنا نهكنا القـــوم ضرباً ... على الأثبـاج منهم والنحور[6]
قتيل ما قتيل المـــرء عمرو ... وجساس بن مرة ذو ضرير
تظل الخيـــل عاكفة عليهم ... كأن الخيل تدحض فى غدير
كأنا غدوة وبنو أبينـا ... بجنب عنيزة رحيـا مدير

---

(١) يقال هو زير نساء إذا كان يتحدث إليهن ويتبعهن ويهواهن ويخالبهن (٢) ينوء ينهض ويخلجه يجذبه والخدب الضخم . (٣) رجف تحرك حركة شديدة والعضاه كل شجر له شوك
(٤) الأشطان الحبال وجال البئر وجولها ناحيتها ومايحبس الماء منها (٥) أفأنا رجعنا
(٦) الأثباج الأواسط .

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض يقرع بالذكور[1]

ومن شعر المهلهل أيضاً يرثى أخاه كليباً ويتوعد أعداءه .

إن تحت الأحجار حزما وعزما وقتيلا من الأراقم كهلا
قتلته ذهل فلست براض أو نبيد الحيين قيساً وذهلا
ويطير الحريق منا شراراً فينال الشرار بكراً وعجلا
قد قتلنا به ولا ثأر فيه أو تعم السيوف شيبان قتلا
ذهب الصلح أو تردوا كليبا أو تحلو على الحكومة حلا
ذهب الصلح أو تردوا كليباً أو أذيق الغداة شيبان ثكلا
ذهب الصلح أو تردوا كليبا أو تنال العداة هونا وذلا
ذهب الصلح أو تردوا كليبا أو تذوقوا الوبال ورداً ونهلا
ذهب الصلح أو تردوا كليبا أو تميلوا عن الحلائل عزلا
أو أرى القتل قد تقاضى رجالا لم يميلوا عن السفاهة جهلا
إن تحت الأحجار والترب منه لدفينا علا علاء وجلا
عز والله يا كايب علينا أن ترى هامتى دهانا وكلا

ومن شعر كليب أخى المهلهل وخال امرىء القيس أيضاً قوله يفتخر ويذكر واقعة خزاز التى كانت بين المضريين واليمنيين :

لقدعرفت قحطان صبرى ونجدتى غداة خزاز والحقوق دوان
غداة شفيت النفس من ذل حمير وأورثتها ذلا بصدق طعانى
زلفت إليهم بالصفائح والقنا على كل ليث من بنى غطفان
ووائل قد جذت مقادم يعرب فصدقها فى صخرها الثقلان

وقال كليب أيضاً بعد ما قتل لبيد بن عنبسة : —

إن يكن قتلنا الملوك خطاء أو صوابا فقد قتلنا لبيدا
وجعلنا مع الملوك ملوكا بجياد جرد تقل الحديدا

---

(١) بهذا البيت قالوا إن مهلهل أول من كذب فى شعره .

نسعر الحرب بالذى يخلف النا   س به قومكم ونذكى الوقودا
أو تردوا لنا الإتاوة والفى‍ء   ولا نجـعل الحروب وعيدا
إن تلبنى عجائز من نزار   فأرانى بما فعلت مجيدا

ومن شعر ربيعة الزهراء أخت كليب ومهلهل وخالة امرئ القيس قولها تحرض أخاها كليباً على زوجها لبيد بن عنبسه[1].

ما كنت أحسب والحوادث جمة   أنا عبيد الحى من قحطان
حتى أتتنى من لبيد لطمة   فعشت لها من وقعها العينان
إن ترض أسرة تغلب ابنة وائل   تلك الدنيـة أو بنو شيبان
لا يبرحوا الدهر الطويل أذلة   هذل الأعنـة عنـد كل رهان

ذلك الشعر وغيره لعمومـة امرىء القيس وخئولته أيضاً يوقفنا على بلاغتهم وشدة عارضتهم . ولا غرو بعد هذا إذا وجدنا امرأ القيس ينشأ شاعراً مفلقاً حاد القريحة ، ذكى الفؤاد ، فإن العرق دساس ، وهو مخول معم فى شاعريته ، تلقى من قبل أبويه ذلك الفيض الذى لا ينضب معينه ، وتلك الشاعرية التى علت علاء وجلت ، فكان من ذلك كله مدد لشعره ، ومورد لقوله ، ومنبع لفصاحته ، ومنهل لبيانه .

ولقد كانت ولادة ذلك الشاعر التاريخى العظيم فى أوائل القرن السادس الميلادى ، وفى شعراء النصرانيـة أنه ولد عام ٥٢٠ م أو قبل الهجرة بنحو مائة سنة ، وجاء فى الشهاب الراصد أن رينان ذكر فى كتابه تاريخ اللغات السامية أن امرأ القيس أقدم شعراء المعلقات ولد حوالى سنة ٥٠٠ م

---

(١) كان لبيد بن عنبسة هذا زوج الزهراء وعامل ملوك كندة قد ثقلت وطأته على بنى ربيعة فعتا وتجبر وأخذ فيهم بالعنف والظلم وأساء المعاشرة بينهم فزجروه فلم يزدجر وهو يزداد جورا . فانكرت عليه زوجته يوما صنعه ببنى ربيعة فقال لها ما بال أخيك ينتصر لمضر ويتهدد الملوك كأنه يعز بغيرهم . فقالت ما أعرف أعز من كليب وهو كفؤ لها فغضب لبيد ولطمها على وجهها لطمة أعشت عينيها فخرجت باكية إلى كليب وهى تقول . ما كنت أحسب والحوادث جمة ــ الخ فلما سمع كليب قولها ورأى ما بها من أثر اللطمة أخذته الحمية وسار إلى أبيات لبيد فهجم عليه وعلا رأسه بالسيف فقتله وعلى أثر ذلك شبت حروب بين اليمنيين والمضريين منها واقعة خزاز وواقعة السلان .

أما الديار التى ولد فيها ذلك الشاعر فإنا نعلم أن أباه كان ملكا على بنى أسد وغطفان ، وملكه يحد غربا بوادى القرى، وشرقاً ببلاد طيء ، وشمالا بأرض طيء أيضاً ، وجنوباً ببلاد غنى وعامر بن صعصعة. فنى تلك الديار التى حددناها من بلاد نجــــد والتى تملك عليها حجر كان مولد شاعرنا . واسم أمه فاطمة بنت ربيعة ، وقيل تملك أخذا من قول امرىء القيس نفسه :

ألا هل أتاها والحوادث جمة   بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

والرأى عندى أن تملك لقب لفاطمة بنت ربيعة

ولقد كانت وفاة ذلك الشاعر كما قال بعض الرواة والمؤرخين فى عام ٥٦٥ ميلادية

نشأة امرىء القيس

ببلاد نجد الواسعة ، وفى رباها المعشبة ، وأوديتها المتلاقية ، وبين قبائل معد بن عدنان ، كان امرؤ القيس صبيا يلهو مع لداته ، ويمرح فى أعطاف الصبا بين رعية أبيه ، وما كان يدرى أنه بعد قليل من الزمن سيفضى إلى الدنيا بسر من أسرار العظمة ، ولا أنه سيضع على جبين الدهر ذلك الإكليل الفاخر من الخلود والشهرة ، فبين تلك الأدواح الظليلة ، وفى خلال ربا العرار الشذى ، رسم شاعر التاريخ مدارك طفولته وملاعب صباه

فى تلك الأرض التى افترت الطبيعة فيها عن بعض محاسنها وأكثر الشعراء من تواصف طيبها وجمال مصطافها ومتربعها نشأ امرؤ القيس بن حجر . وما عرف سيرة أهله حتى وجدهم ملوكا تدين لهم ربيعة وأحياؤها ومضر فى أكثر عمائرها ، وكندة وعشائرها . فلا يولى وجهه شطر جهة من جهات نجد وتهائمها ، وبلاد اليمن ومزارعها ، إلا ولأهله ولاية عليها ، يأمرون فيها وينهون على قواعد من الاستبداد والملكية المطلقة . فما بلغ مبلغ الفتيان حتى مد عينيه إلى تلك العزة الشامخة تحيط به من أطرافه ، وذلك المجد الباذخ يتلقاه من قبل أبويه ، فمضى فى غلوائه سالكا فى ميعة شبابه طريق أمثاله من أبناء الملوك ، مؤثرا للذات القرائح ، محباً للمجانة والعبث لا تشغله تكاليف الحياة عن الإمعان فى هذه الفتوة ، فجرر مآزر اللهو ، وترنح فى سكرة الحداثة ، وصحب الفتيان يغشى بهم مناقع الماء ، ويرتاد أكنان الخلاعة والقصف ، ويتقلب بين قبائل وأحياء قد اختلط نساؤها برجالها ، لا رادع ولا حجاب سوى ما ارتكز فى تلك النفوس من وازعات الشمم ، وعلو المروءة وخوف العار . ويحضر مجالس أبيه ونوادى قومه يسمع ما يتلى فيها من الشعر وما يتناقل من أخبار الشعراء . وهو فى وسط ذلك كله غلام ذكى الفؤاد ، حاد القريحة ، مفتون بالشراب والصيد ، مغرم بالصافنات الجياد . فما لبث أن تفتحت فى نفسه عيون هذه الغريزة الشاعرة المتوارثة من قبل عمومته وخئولته ، فسألت بألوان من الكلام جرى مع هذا المسلك

الخليع من وصف النساء وذكر محاسنها ، وركوب الخيل وسرعة كرها ، ومجالس الشراب وأكوابها ، ودبيبه إلى معشوقته ومخاتلة أحراسها ، وفجر بذلك فى شعره ، وغلا فى فجوره ؛ حتى أنف له أبوه من تلك الحياة الخليعة التى ارتطم فى حمأتها ، وألقى بنفسه بين أحضانها ، ولم يعد فى نظره صالحا لما كان يرشحه له من الملك بعده ، فأذله ثم أقصاه عنه وطرده ، فهام على وجهه شريدا فى نواحى الجزيرة العربية ، ولم يزده ذلك إلا استمراء لمذاق هذا العبث وتلك المجانة ، فمضى على سبيله تتناوح بركابه أحياء العرب ، ينزل مياهها ، ويتنقل بين مرابعها ، ومعه أخلاط من شذاذ طيء وكلب وبكر بن وائل فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد ؛ أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنته وإياهم قيانه ، ولا يزال كذلك كل يوم يغدو عليهم بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر ، حتى ينفد ماء ذلك الغـــدير ، فينتقل عنه إلى غيره ، فتضرب له القباب وتنحر الجزور ، وتغنيه القيان . كل ذلك دواع انبعثت بها عين الشعر فى قريحة امرىء القيس فنطق به على سنة قومه فى عباب من بداوة العيش ، وطبيعة أرض كلها بين أودية وآكام ، فكان أول شعر قاله :

أذود القوافى عنى ذيادا ذياد غلام جرىء جوادا
فلما كثرن وعنينه تخير منهن شتى جيادا
فأعزل مرجانها جانبا وآخذ من درها المستجادا

بيئات امرىء القيس

يجب أن لا ننسى تأثير البيئة التى نشأ فيها شاعرنا. فنجعله كل شىء، ونضيف إليه كل شىء، ونمحو تلك البيئة التى نشأته وكونته وتضافرت على تربية جسمه وعقله ومشاعره، فهو ظاهرة من ظواهرها، وأثر من آثارها، تلقى على يدها ما جال بخاطره، وأخذ عنها ما أوحت به شاعريته.

ولسنا نغالى فى إكبار تلك البيئة، فنضيف كل شىء إليها، ونستنبط كل شىء منها، حتى نفنى الشاعر فيها، ونتركه لا حول له ولا قوة بجانبها. إنما السبيل أن نقدر البيئة قدرها، ونبوىء الشاعر مكانه منها، ونحدد الصلة بينه وبينها.

ولذلك سأجتهد ما استطعت أن أبين فى حدود الاختصار، وفى صورة غير شوهاء، تلك البيئات الطبيعية والاجتماعية والعلمية التى نشأ فيها امرؤ القيس وتأثر بها وأثر فيها، فكلاهما على الحقيقة متأثر بصاحبه، ومؤثر فيه.

البيئة الطبيعية

فى الجنوب الغربى من آسيا ، وبين البحر الأحمر والخليج الفارسى وبحر الهند تقع بلاد العرب ؛ التى قسمت فى عصر الجاهلية إلى خمسة أقسام جغرافية : تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن ، وأكثر الشعراء من ذكرها ، وتواصف طبيعتها وجمالها .

وقد جابها أمرؤ القيس من أقصاها إلى أدناها ، وضرب بجرانه فيها شرقا وغربا .

وتلك البلاد جديرة بالالتفات إليها من حيث طبيعة أرضها ، ومزاج قطرها ، فلقد كان لذلك أثر فى شاعرنا وفى غيره من الشعراء أيضا .

* * *

وقد ذكر : « روبرتسون ، وهكسلى » فى بعض مؤلفاتهما (أن شبه جزيرة العرب — قبل عشرات الألوف من السنين — كانت ذات خصوبة وأنهار وعيون غزيرة) ولعلهما يقصدان بذلك بلاد اليمن السعيدة . لأن ذلك الوصف كان منطبقاً عليها دون غيرها من سائر أقسام بلاد العرب .

أما شبه الجزيرة فى غير بلاد اليمن ؛ فقد كانت مجدبة قاحلة فى معظم أجزائها . وقد وصف القرآن الكريم حجازها الواقع بين الجبال والبحر الأحمر (القلزم) بأنه واد غير ذى زرع .

وهى — كما تبدو إلى الآن — فى غربها وشرقها وشمالها ومعظم جهاتها الجنوبية صورة موحشة من صور الأرض الجبلية الصحراوية ، ذات النجاد المرتفعة ، والبلاقع المستوية المترامية التى تغطيها لجج الرمال الناعمة السافية .

جعلت الطبيعة منها أرضا جرداء مقفرة ، وغبراء محرقة ، كما جعلت

فدافدها ومفاوزها ، وكهوفها ومغاورها ، ونجودها وهضابها ، ووهادها وأغوارها ، مما يتيه فيه الخيال ، ويحار البصر .

وليست المياه فى تلك الجزيرة معدومة ولـكنها نادرة ، ومعظم هذا النادر مر الطعم لا يخصب أرضا ، ولا ينبت زرعا ، ولا يطفىء ظمأ . والقـــلة من عيونها وينابيعها هى التى يستساغ ماؤها ، كعين أباغ ، وبئر زمزم ، والحوأب . . .

أما الصحارى فلا أثر فيها لماء ، ولا زرع ، ولا ظل . .

والشمس الساطعة تلفح أديمها . . . وتهب عليها — أحيانا — رياح السموم ، فتكاد من وقدتها ، وشدة حرارتها ؛ تذيب دماغ الضب ، وتلهب الرمال ، وتصهر الصخور . .

وكثبانها مكسوة بشجر الغضا والسدر والأثل . وهى أشجار تكون فى أغلب الأحيان ملتوية معوجة .

ومما ينبت على ثراها بسقيا أمطارها الشيح والقيصوم والحسك والسعدان .

وإذا ما عدونا ربعها الخالى ؛ ذا المفاوز والأهوال ، وتعدينا تهامة والحجاز ، وأنجدنا ، فسوف نجدُ فى نجد سلسلة من الواحات المتشابهة فى الشكل — وإن اختلفت فى الحدود والمساحة — وقد انبسطت تلك الواحات على ربواتها ، وسقاها مضاعف الغيث العميم ، فطاب أديمها ، وزكا نبتها ، ونضر زهرها ، وأينع ثمرها ، وسطع أريجها ، وفاح عطرها . . ورفت على جوانب جوها ريح الصبا ؛ فهزت أعطافها ورنحت أغصان بساتينها ، ونمت طيرها ، وأنعشت أهلها . . وضرعها . . وزرعها . .

وقد اشتهرت نجد منذ القدم بشعرائها ، وجمال نسائها ، وأصائل جيادها وصحة نسائمها .

أما اليمن — وهى الموطن الأصلى لقبيلة كندة التى ينتسب إليها شاعرنا أمرؤ القيس — فقد شاء الله لها منذ عصرها القديم السعيد ؛ أن تتدفق مياه

الأمطار على جبالها، وتجوس الأنهار والجداول المترعة خلالها، وتزدهر فيها البساتين اليانعة، وتمرع الحقول المخصبة . . . مما كفل لها المجد والشهرة والمدنية التي كانت مؤتلقة مشهورة، والمكانة التي كانت عظيمة مرموقة . .

والتاريخ يشهد لليمن بمجدها الغابر، وحضارتها العريقة التي قامت بين شمس المجوس ونيرانهم، وكواكب الوثنيين وأصنامهم، وفيها تعددت الهياكل، وتنوعت المعابد؛ بكهنتها وأسرارها. ولديها عـــزت الآمال، وتحطمت المطامع، ووهنت الأماني، فكانت ملكة سبأ، وكان حمير وتبع وقحطان، وقامت الحصون والقلاع والقصور وسدود الماء، ونشأ فيها العلماء والشعراء، ونوابغ فن البناء . .

وكتاب الإكليل للحسن بن أحمد الهمداني في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات حافل بأخبارها وأمجادها، وتاريخ ساستها وملوكها وعلمائها . .

* * *

وفي ضوء ما سبق يستبين لنا أن البيئة الطبيعية لبلاد العرب؛ التي عاش فيها امرؤ القيس؛ هي على جملتها غنية التربة، مبسوطة الرقعة، مجلوة الآفاق، ممتدة الجنبات، وفيرة الوحش، كثيرة الطير، شديدة الحر. فيها جبال وأودية، ووهاد غائرة، ونجاد عالية، وكثبان متنقلة، وعيون متفجرة، ومسايل جارية، وصحارى شاسعة، وبقاع مخصبة. جوها صحيح الهواء، وسماؤها ضاحية الشمس، سافرة البدر، ساطعة الكواكب، يتراكم فيها السحاب شتاء ثم ينجاب عنها وقد نبت في ثراها أنواع من الكلأ والمرعى ذات أشكال مختلفة، وأفنان متعددة، وأزهار متنوعة. مساكن أهلها بيوت مشيدة، أو خيام متنقلة على ظهور جمال بازلة؛ يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويتخذون من أصوافها وأوبارها أثاثا ومتاعاً إلى حين.

وقد قابل امرؤ القيس تلك الطبيعة الباسمة وجهاً لوجه، فطلعت عليه الشمس بأشعتها الذهبية المحرقة تصليه بشواظها، وبدا له القمر مرسلاً أنواره

الفضية الوادعة يبهر لبه ويملك عليه مشاعره ، وسطعت النجوم ولا حائل بينه وبينها يرى سناءها ويبصر لألاءها ، ووقف على الديار المتقوضة والغدران الممتلئة ، وتراءت له الفلوات الواسعة .

بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وعصفت من حوله الرياح العاتية تجعل من الرمال كثبانا ، أو تجرى رخاء وسلاما .

بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا !

شمس تسطع ، وقمر يلمع ، ونجوم تتلألأ ، ورياح تلعب ، وظباء ترتع ، وخيام تقوض فى جو فسيح كل ما فيه حر طليق

الحق ! . إنها طبيعة تملأ القلوب هيبة وجمالا ، والأفئدة رهبة وجلالا ، وتدع فى النفوس شغفا زائدا بجمالها، وخوفا شديدا من أهوالها ، واستجلاء لمظاهرها، واحتراما لأحداثها ، وأحاسيس تملأ القلب وتشغل الجوانح . فلا عجب إذا وجدنا امرأ القيس يمسك ريشته فيرسم بها تلك الطبيعة فى شعره ، ويتحدث عنها فى خياله . وسنقف على شىء من ذلك عند دراسة معلقته ، وقصيدته الثانية :

« ألا عم صباحا أيها الطلل البالى »

وليس بغائب عن البال أن امرأ القيس جال فى أنحاء الجزيرة العربية ورباعها ، وكثر تسياره وتطوافه فى بقاعها شمالا وجنوبا ، وفى شتى نواحيها شرقا وغربا ، طبقاً لما اقتضته ظروف حياته فى شبابه ورجولته ، بل إنه رحل إلى أوربا ، ونزل ضيفاً على قيصر بالقسطنطينية يطلب عونه لتثبيت عرشه ، وتدعيم ملكه ، ونصرته على أعدائه ، كما سنذكر فى فصل تال إن شاء الله تعالى

البيئة الاجتماعية

إن من أخلاق تلك البيئة التى عاش فيها امرؤ القيس . الشهامة والنجدة ، والشجاعة والنخوة ، والمروءة وعلو الهمة ، وكرم الخلق وشدة البأس ، والحلم والوفاء ، وإباء الضيم وعزة النفس . تمدحوا بذلك فى أشعارهم التى جمعت محاسن أقوالهم ، وكانت ديوانهم وسجلا تاريخياً لهم .

على أننا لا نكذب التاريخ فنبرىء الأمة العربية فى جاهليتها كل البراءة وندعى أنها كانت سواء فى اكتساب المحامد واطراح المآثم ، فذلك سبيل أهل الخيال الذين يأخذون من كل منهل أصفاه ، ويرون فى كل شىء غايته . فإن من الأعراب شذاذاً وصعاليك كانوا يقترفون الفواحش ويجترحون السيئات ؛ فيغدون على نساء مهينات مظلمات كن يتوارين عن الأنظار خارج المدائن والقرى ، وخلف مضارب القباب ، فإذا أرخى الظلام سدوله أسبل الرجل على آثار أقدامه إزاره ليعفى فوق الرمال معالمه ويعمى خطاه ، وغدا إليها تحت جنح الدجى لا تدركه الأبصار . أما بغاة الشرف وطلاب المجد فهم بمنجاة عن هذا حتى لقد بلغت الغيرة بهم أن كان الرجل يمد يده الأثيمة الظالمة إلى نفس وليدته الطاهرة التى بدأت تستقبل الوجود وتنهض فى الحياة على قدميها فيلقى بها فى حفرة من الأرض ثم يهيل على جسدها التراب ، ويدعها تعالج سكرات الموت تحت أطباق الثرى .

ولعمرى إذا نحن أسدلنا الستار على تلك المظالم التى لم تعم جميع القبائل والأحياء بل اختص بها فريق دون آخر ، فإنا واجدون تلك المرأة البدوية مثار عاطفة ذلك الرجل العربى،ومدار وجدانه ، وسر حياته ، ومصدر إلهامه ، ومناط آماله ، ومهبط وحيه ، وقبلة خاطره ، ومنتجع هواه ، ومجتلى قريحته ، ومطلع قصيدته ، بها غناؤه ، وفيها غناؤه . تغنى بمحاسنها ، وتمدح بشمائلها ، ووقف على أطلال دارها ومعالمها ، وائتمر بأمرها ، وتقبل أحكامها ، ونزل فى غالب الأحيان على إرادتها ، وكثيراً ما تقبل رغبتها . فهى نور الوجود فى ناظريه وكل شىء بين يديه . هتفت به تحت ظلال السيوف فاستمد منها

عزماً أكيداً وبأساً شديدا . ومن بين أحضانها خرج فتيان وفتيات نشأتهم منذ الطفولة على الشرف والسؤدد ، ولقنتهم آيات المجد والمحتد .

ولقد كان للعرب فى ذلك الحين مجالس وأندية يغشاها الرجال والنساء يتناشدون فيها الأشعار ويتبادلون الأخبار . وكان لهم أسواق تقام للبيع والشراء ، ويقف فيها الخطباء والشعراء ، يتنافرون ويتناشدون ، ويتحاكمون فيها إلى قضاة عدول لهم بصر بنقد المنثور والمنظوم . وفى ذلك شحذ لأذهانهم ، وتنمية لأفكارهم ، وتهذيب للغتهم .

وكانت لهم أيضاً حروب مشهورة وأيام معلومة لما فطرت عليه نفوسهم من سرعة الغضب والجرأة على الشر وحب الغزو والميل إلى الانتقام والأخذ بالثأر . فلا تنفتح عيونهم إلا على سيوف تتألق . ورماح تلمع ، وأسنة تشرع ، وجياد تصهل ، ورءوس تتطاير ، وأشلاء تتناثر ، وطير يهوى ، ووحش يزمجر . فرسخت فيهم صفات الفروسية وكثر بينهم الفتك والنهب . وما كان لهم مقام بأرض ؛ وإنما كانوا يبتغون مناقع الماء ، ويرتادون منابت العشب ليرعوا أنعامهم التى عليها بلاغهم فى حمولهم وشبعهم وريهم ، فتنازعوا على المرعى ، وتدافعوا على النجعة ، ونشبت بينهم دواعى الخلاف ، وانتشرت العداوة والبغضاء ، وقامت الحروب ، وتفرقوا شيعاً وأحزابا ، يتخطف بعضهم بعضا . والشعر فى تلك المواقع يقوم مقام الموسيقى ، إذ هو والغناء يحلقان كزوجى الطائر فوق رءوس الربا وبين خمائل الزهر ، يتناغيان بنجوى النفوس ، ويوقعان على أوتار القلوب ، تجيش به الأفئدة فى مثل تلك المواطن استنهاضاً للهمم ، وبكاء على القتلى ، وافتخاراً بالعصبية ، والشعر يوحيه الحب والحرب والموت .

أما ديانات العرب فى ذلك العصر فكانت على ضروب شتى ، فمنهم عابد الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والنار والحجر . ومنهم من تهود أو تنصر ، ومنهم من بقى على ملة إبراهيم يحج ويعتمر ، ويعظم الأشهر الحرم . ومنهم من كان مجوسياً يعبد مبدأ الخير والشر . ومثل ذلك الدين المضطرب الواهن

قد أسلم العرب إلى صنوف من العقائد، وضروب من الهواجس، رسخت في نفوسهم، وتمكنت من قلوبهم، فهناك بين ثنايا الجبال وأعطاف المغاور صنوف من الحجر تطاول عليها القدم، وقد تنوعت أشكالها، وتعددت ألوانها، اتخذوا منها تمائم ورقى؛ تجلب الخير، وتدفع الشر بما لها من سر دفين وأثر مكين.

وإذا اعتزم الواحد منهم أمرا وأراد السفر طلب معرفة مآله قبل إقدامه بالتفاؤل والتطير، وإن بدأ ارتحاله وكان مبغضاً إلى زوجته قامت إلى النار فأوقدتها حتى تحول دون مآبه، وإن كان عزيزاً عليها قبضت قبضة من أثر أقدامه واحتفظت بها حتى يعود إليها سراعا.

وإن من أفدح أثقال الظلم أن نرى الرجل منهم يعمد إلى شجرة حين سفره فيعقد بين غصنين منها فإن عاد وكان الغصنان على حالهما زعم أن زوجته لم تخنه، وإلا فقد خانته، كأن عرض المرأة بل عرض القبيلة مرتهن بغصنين تعصف بهما الريح أو تعبث بهما الأيدي فتفرق بينهما.

تلك صورة من مظاهر هذه البيئة الاجتماعية التي درج في عشها امرؤ القيس من المهد إلى اللحد؛ نقدمها بين يدي القارىء لتطمئن نفسه ولتسكون إليه هاديا.

البيئة العلمية

ما كان العربى إلا إنساناً فيه عاطفة وبين جنبيه نفس متأثرة تعشق الحرية والعدل، وتحب الطبيعة والجمال، طال إصغاؤها لتلك النغم المترددة فى أسجاع الطير، وحنين الأبل، وخرير الماء، وحفيف الشجر، وهزيم الرعد، وعصف الريح، وصهيل الخيل، وقعقعة السيوف، وصلصلة الأصفاد، وزمجرة الوحوش. فما هو إلا أن حكى صداها وصار وترا من أوتارها يشدو معها. وقد ضرب العـــربى فى تلك البادية القاحلة على ظهر راحلته البازلة، يبتغى من فضل الله، ترقصه تلك الإيقاعات المتوالية، فهدته نفسه الشاعرة أن يلقى على ضروبها من ألحانه الساذجة حداء لناقته، وأنيساً له فى وحشته، وما كان للناس عجباً أن يمتاز العربى بالشعر، وأن يفوق فيه سائر الأمم؛ إذ لم يعرف عنه أنه مال إلى فلسفة أو نشط إلى علم أو زوال صناعة، وإنما كان اهتمامه مصروفا إلى هذا الفن الجميل من القول، ولم يزد ما أثر عنه من ضروب الحكمة على أن يكون فى جملته أشبه بالحقائق المجردة التى لا تبعد عن متناول الفطرة وإنتاج التجربة والمشاهدة. وكل ما وصل إلى العرب بعد ذلك من أسباب العلوم لا تتعدى معلومات أولية مبنية على قوة النظر أو صدق الحدس، ومستمدة من التجربة والمشاهدة حيناً، ومخالطة من جاورهم من الأمم أحيانا. فمن ذلك علم النجوم، فقد كان ما انبسط لأعينهم من رقعة السماء داعياً إلى إدمان النظر فى كواكبها، وتعرف صورها وأنوائهـا، ومطالعها وألوانها، وغروبها وأشكالها. وقد وصلوا بذلك إلى معرفة أوقات الخصب والمحل، والريح والمطر. واهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر.

أما علم الطب فكان ينبوعه تجربة قاصرة متوارثة عن مشـايخ الحى وعجائزه، فلم يكن يتجاوز عندهم الـكى بالنـار، وبتر الأعضاء بمحمى الشفار، واتخذوا من العسل دواء، ووجدوا فى عصارات بعض النباتات

شفاء ، ومن خرافاتهم أن المجروح إذا شرب الماء فاضت نفسه ، وأن المرأة إذا ذعرت من شيء حتى برد قلبها تسقى لشفائها ماء حارا .

وقد توصلوا بقوة ذكائهم إلى الاستدلال على أخلاق الشخص وصفاته من هيئته وكلامه وظاهر أعضائه ، وتلك هي الفراسة . أما القيافة عندهم فهي الاستدلال بآثار الأقدام على أصحابها ، ولقد بلغوا في ذلك من الأعاجيب أمداً بعيدا ففرقوا بين آثار المرأة والرجل ، والأعمى والبصير .

ومع انتشار الأمية فيهم إلا أن قوة الحافظة عندهم أدت بهم إلى تفوقهم في علم الأنساب ، يتعرفون به ألقابهم ، ويحفظون أصولهم وأحسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قبيلته ، ولا يدعى إلى غير أبيه ، دعاهم إلى ذلك اعتزازهم بالعشيرة ، ومغالاتهم في العصبية .

وكانت من معارفهم الكهانة والعرافة وزجر الطير والطرق بالحصى ؛ يبتغون بذلك اختراق حجب الغيب ، ومعرفة أسراره ومكنونه .

أما بصرهم بالخيل ، ومعرفة شياتها وأوضاحها وعتاقها ، وما يستحب من صفاتها ، وما يتعلق بها من إنتاج وبيطرة ؛ فقد فاقوا في ذلك سواهم من الأمم .

أما تاريخهم وأحوالهم فصحائفها منشورة في شعرهم الذي هو ديوان علمهم وأخبارهم ، وسجل حياتهم ومفاخرهم وأنسابهم وأحسابهم .

شباب امرىء القيس

ترعرع امرؤ القيس وكأني به يتقلب بين نجد وروابيها ، واليمامة وأوديتها ، والبحرين وأحسائها ؛ وهو فتى ناعم العيش ، رخي البال ، قرير العين ، خلى القلب من هموم الحياة وأعبائها ؛ تخالطه الحسان ، وتعزف القيان ؛ يلهو بالصيد وركوب الصافنات الجياد ، قد خلع الملك على شبابه ثوباً من الجمال، وحلة من الاختيال ، ينزل فى كل منزلة ما أراد ، ويرتع فى كل واد ما شاء ، ويتقلب فى ملك أعمامه وأبيه وجده . وهو فى خلال ذلك يسمع الشعر فى تراجيع الحداة ، وأغانى الرعاة ، وسمر السمار ؛ وأحاديث الرواة . ويرى عناية القبائل بالشعر وإكبار الأحياء للشعراء . وهو ذو سليقة شاعرة وقريحة مطبوعة . يصحب الشعراء ويصحبونه ، وينشدهم الشعر وينشدونه ، وما هو بالمحزون فيشتكى ، ولا بالفقير فيجتدى ، إن هو يومئذ إلا أسير لذات ، وخدن لهو وصبوات ، فدواعى الشعر عنده لا تعدو هذه المؤثرات ، ولذلك ذهب امرؤ القيس مع الشباب ، وسبح فى واديه ، وترنح فى سكرة الحداثة ، يحب هذه ويشبب بتلك وفجر بذلك فى شعره وغلا فى فجوره حتى شبب بنساء كنّ إلى والده أما غيظه منه فهو القائل :

أحار بن عمرو كأنى خمر ويعدو على المرء ما يأتمر [1]

وفيها يقول :

وهر تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر
رمتنى بسهم أصاب الفؤاد غداة الرحيل فلم أنتصر

---

(١) قال البغدادى فى خزانة الأدب إن مطلع هذه القصيدة :

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أني أفر

وإن أبا عمرو الشيباني والمفضل وغيرهما أثبتوا أن هذه القصيدة لامرىء القيس أما الأصمعى فقد زعم فى روايته عن أبي عمرو بن العلاء أنها لرجل من أولاد النمر بن قاسط يقال له ربيعة ابن جشم وأولها عنده :

أحار بن عمرو كأني خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

فأسبل دمعي كفض الجمان   أو الدر رقراقه المنحدر
وإذا هي تمشي كمشي النزيف   يصرعه بالكثيب البهر [١]
برهرهة ، رودة ، رخصة   كخرعوبة البانة المنفطر [٢]
فتور القيام ، قطيع الكلام   تفتر عن ذي غروب خصر
كأن المدام وصوب الغمام   وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها   إذا طرب الطائر المستحر

وقد عرف حجر عن ولده امرىء القيس أنه كان فاحشاً فاجراً مستهتراً ، يحب اللهو ، ويستتبع صعاليك العرب ؛ يغير بهم على أحيائها ، مما جعل الوالد يفكر فى عقاب يؤدب به هذا الولد الفاجر ، فأرسله فى رعاء الإبل ليكون فى هذا إذلال له وصغار ، وتعب ونصب ، حتى ينصرف عن تلك الحياة الخليعة الطائشة ، ويرعوى عن غيه وضلاله ، ولكن امرأ القيس لم يأبه لهذا ، وخرج بالأبل يرعاها عامة يومه ، ثم آواها مع الليل ، وجعل ينيخها ، ويقول : حبذا طويلة الأقراب ، غزيرة الحلاب ، كريمة الصحاب ، حبذا شداد الأوراك ، عراض الأحناك ، طوال الأسماك . ثم بات ليلته يسمر مع السمار بذكرها والحديث عنها ، وعلم أبوه ذلك فقال : والله ما أذللته ، ولا بد من عقاب يزجره عن غيه ، فلما صبحه الصباح قال له اخرج مع الخيل فخرج بها إلى المرعى حتى إذا أقبل الليل رجع بها . وسمعه والده حجر يقول عند إيوائها : حبذ الجياد ، إناثها نساء ، وذكورها ظباء ، نعم الصحاب راجلا وراكبا ؛ تدرك طالبا ، وتفوت هاربا . فساء ذلك أباه ، فجعله فى رعاية الأغنام ، فخرج بها عامة يومه ، حتى إذا أمسى آض من المرعى ، وهو يقول : أخزاها الله ، لا تهتدى طريقا ، ولا تعرف صديقا ، ولا تطيع راعيا ، ولا تسمع داعيا . ثم تهالك على نفسه إعياء وكلالا ، ومضى — لا يلوى

---

(١) النزيف السكران الذى يترنح فى مشيته . والبهر انقطاع النفس والكلال

(٢) البرهرهة الرقيقة الجلد الملساء المترجرجة والرودة الشابة . والرخصة الناعمة . والخرعوبة الغضة اللينة .

على السمار — إلى مضجعه ، فظن أبوه أنه قد قدر عليه . فلما أسفر الصبح ، قال له : اخرج بالشاء . فمضىء امرؤ القيس يقودها . حتى بعد عن الحى وأشرف على الوادى فأخذ التراب وطفق يحثوه على وجوهها ، وهى ترتد عنه إلى الديار ، وهو خلفها لا يكف عن فعله قائلا : حجر فى حجر ، حجر لا مدر ، هبهاب لحم وإهاب ، للطير والذئاب فلما رأى حجر فعل امرىء القيس بالأغنام أسقط فى يده ، وعلم أن لن يقدر عليه ، فنادى مولى من مواليه يسمى ربيعة ، وأمره أن يأخذ امرأ القيس إلى خارج الحى ثم يقتله ويأتيه بعينيه ، فانطلق ربيعة به إلى الصحراء ، ولكنه فكر ملياً فأشفق على امرىء القيس ، وأشفق على نفسه أيضاً من أن يعود حجر بعد أن تهدأ ثائرته فيجزع على فقد ولده الذى أصدر عليه الحكم بالموت وهو محتدم العاطفة فى ثورة وغضب . نظر ربيعة إلى هذا فخشى على نفسه أن يصيبه الأذى إن هو قتل امرأ القيس ، ولذلك فإنه تركه فوق رابية يرتع ويلعب ، ثم رجع إلى حجر ، ومعه عينا جؤذر ، ولكن سرعان ما عرف الندامة فى وجه حجر وأسفه على موت ولده ، فقال له : أبيت اللعن ، لا تجزع فإنى لم أقتله . فقال له حجر : علىّ به . فسار ربيعة إلى امرىء القيس حيث خلفه ليعود به إلى والده فوجده يقول :

لا تتركنى ياربيع لهذه وكنت أرانى قبلها بك واثقا
مخالفة نوى أسير بقرية قرى عربيات يشمن البوارقا (١)
فإما ترينى اليوم فى رأس شاهق فقد أغتدى وأقود أجرد تائقا (٢)
وقد أذعر الوحش الرتاع بغرة وقد أجتلى بيض الخدود الروائقا (٣)
نواعم تجلو عن متون نقية عبيراً وريطا جاسدا أو شقائقا (٤)

---

(١) شام البرق تشوفه ونظر إليه (٢) فى رأس شاهق أى فى قمة جبل . والأجرد الفرس القصير الشعر . وتائقاً محباً للعدو (٣) بغرة أى على حين غفلة منهن . المراد ببيض الخدود النساء المحجبات . والروائق البيض النواصع (٤) المتون النقية الأسنان البيضاء . والريط الجاسد الثياب المزعفرة . والشقائق الحمر كشقائق النعمان .

ولما رجع امرؤ القيس إلى والده لم يكف عن فجوره وفحشه في قوله وفعله ، فعاد أبوه فطرده وأبى أن يقيم معه أنفة منه وعارا ، فخرج امرؤ القيس مراغما لأبيه ، وعاد سيرته الأولى ؛ يتعاطى أسباب المجانة والعبث ، ويهيم على وجهه في الأحياء ، ويتبع الصعاليك ، ويخالط الشذاذ ؛ يصحبهم ويصحبونه ، فيخرج بهم إلى الصيد والغارات ، وينزل بهم على الغياض والرياض ؛ يذبح لهم جزوره ، وتغنيهم قيانه ، ويسبأ الزق الروى ؛ إلى أن ألقى عصاه ، واستقر به نواه في بلدة (دمون) وهي التي يقول فيها .

كأني لم ألهو بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوماً بعندل

وجاءه النذير بنعي والده في دمون ، فكان منه ما كان ؛ مما سنقف عليه عند الكلام عنه بعد مقتل أبيه .

عشق امرىء القيس

وصواحبه

جرى امرؤ القيس وراء المجانة والعبث إلى أبعد غاية ، وما كان عاشقا وإنما كان فاحشا . يشبب اليوم بهر وفاطمة ، وفى الغداة يزين له الهوى أن ينتقل إلى هند والرباب وفرتنا . فهو كالنحلة ينتقل من زهرة إلى زهرة ، ويدف بجناحيه على كل غصن رطيب يصادفه ، ثم يتجافى عنه إلى غيره [ولم يكن امرؤ القيس صبا ولوعا ، ولا عاشقا متيما . وإنما كان أسير لذات ، وصنو شهوات ، وخدين خلاعة ولهو] ويظهر أثر ذلك فى شعره فنحن لا نجد فيه برحاء المحب المستهام ، ولا لوعة الصب الولوع . وكل ما فى شعره من نسيب إنما هو ذكر للنساء ومحاسنهن ، ووقوف على ديارهن وأماكنهن ، ووصف عبثه معهن ولهوه بهن . ومع ما نعلمه من تلك الحياة الخليعة العابثة التى ارتضاها امرؤ القيس لنفسه فى شبابه وقضاها فى ارتياد أكنان الخلاعة والقصف ؛ نرى أن شعره مثل هذه الناحية أصدق تمثيل ، فهو وحى الإلهام الصادق ، والغريزة التى أنبأت عن مكنونها ، وحديث النفس التى انتزعت من دخيلتها صورة مطابقة لحقيقتها ، ثم أظهرتها إلى الملأ ، بعد أن خلعت عليها من فنها ثوباً بيانياً رائعا ./. فامرؤ القيس عندى هو الشاعر الملهم الصادق الوحى والتصوير ، وهو مثل أعلى فى شاعريته وفيضه فلا تزييف فى عاطفته ولا افتعال .

وهذه أسماء من ورد ذكرهن فى شعره وقوله فيهن :

أم مالك قال فيها : —

قفا نسأل الأطلال عن أم مالك وهل تخبر الأطلال غير التهالك[1]

وأم جندب وهى زوجته الطائية قال فيها : —

(١) روى هذا البيت صاحب جمهرة أشعار العرب

خليلى مرا بى على أم جندب لنقض لبانات الفؤاد المعذب
فإنكما إن تنظرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب [١]
ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
عقيلة أتراب لها لا دميمة ولا ذات خلق إن تأملت جانب [٢]
ألا ليت شعرى كيف حادث وصلها وكيف تراعي وصلة المغيب
أقامت على ما بيننا من مودة أميمة أم صارت لقول المخبب
فإن تنأ عنها حقبة لا تلاقها فإنك مما أحدثت بالمجرب

وسليمى قال فيها :

يابؤس للقلب بعد اليوم ما آبه ذكرى حبيب ببعض الأرض قد رابه [٣]
قالت سليمى أراك اليوم مكتئبا والرأس بعدى رأيت الشيب قدعابه
وحار بعد سواد الرأس جمته كمعقب الريط إذ نشرت هدابه [٤]

وقال فيها أيضاً :

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قو فعرعرا
كنانية بانت وفى الصدر ودها مجاورة غسان والحى يعمرا
بعينيك ظعن الحى لما تحملوا لدى جانب الأفلاج من جنب قيمرا [٥]

والخنساء قال فيها [٦] :

قالت الخنساء لما جئتها شاب بعدى رأس هذا واشتهب [٧]
عهدتنى ناشئا ذا غرة رجل الجمة ذا بطن أقب [٨]
أتبع الولدان أرخى مئزرى ابن عشر ذا قريط من ذهب

---

(١) تنظراني أى تنتطراني (٢) العقيلة الكريمة المخدرة والأتراب اللدات وهم الذين يولدون مع الإنسان فى وقت واحد والجانب القصير اللحيم (٣) ما آبه ما شأنه ومرجعه (٤) حار رجع وعاد وصار . والجمة مقدم شعر الرأس . والمعقب الخمار تعتقب به المرأة . والريط ثوب لين رقيق . (٥) الأفلاج جمع فلج وهو النهر الصغير . وقيمر مدينة بالشام (٦) وقيل أن هذا الشعر منحول لامرىء القيس (٧) اشتهب صار أشهب الرأس والشهبة بياض فى سواد (٨) رجل الجمة ممشط شعر الرأس . وأقب عال

وهى إذ ذاك عليها مئزر ... ولها بيت جوار من لعب[1]

ورقاش قال فيها :

لله زبدان أمسى قرقرا جلدا ... وكان من جندل أصم منضودا[2]
لا يفقه القوم فيهم كل منطقهم ... إلا سرارا تخال الصوت مردودا[3]
قامت رقاش وأصحابى على عجل ... تبدى لى النحر واللبات والجيدا

وهند قال فيها :

أأذكرت نفسك ما لن يعودا ... فهاج التذكر قلباً عميدا
تذكرت هنداً وأترابها ... فأصبحت أزمعت منها صدودا[4]

وقال فيها أيضا :

طرقت هند بعد طول تجنب ... وهنا ولم تك قبل ذلك تطرق[5]

والرباب وفرتنا ولميس قال فيهن جامعاً معهن هندا .

لمن الديار غشيتها بسحام ... فعمايتين فهضب ذى إقدام
فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر ... تمشى النعاج بها مع الآرام
دار لهند والرباب وفرتنا ... ولميس قبل حوادث الأيام
عوجا على الطلل المحيل لأننا ... نبكى الديار كما بكى ابن خزام
دار لهم إذ هم لأهلك جيرة ... إذ تستبيك بواضح بسام
أزمان فوها كلما نبهتها ... كالمسك بات وظل فيه فدام[6]
أو ما ترى أظعانهن بواكرا ... كالنخل من شوكان حين صرام[7]
حور تعلل بالعبير جلودها ... بيض الوجوه نواعم الأجسام

---

(١) يعنى أنها كانت صغيرة ولها بيت تضع فيه لعبها ودماها التى على شكل الجوارى
(٢) زبدان موضع بين دمشق وبعلبك. والقرقر الأرض المطمئنة. والجلد الأرض الصلبة المستوية المتن (٣) السرار الخفوت (٤) وقال بعضهم إن المقصود فى هذا الشعر هند ابنة امرىء القيس ذكرها أبوها وهو بعيد عنها فى ديار قيصر .
(٥) وهنا أى بعد هدأة من الليل (٦) الفدام الغطاء (٧) الأظعان النوق عليها الهوادج فيها النساء . بواكر مبكرات . وشوكان موضع . وصرام قطاف النخل .

فظللت فى دمن الديار كأننى   نشوان باكره صبوح مدام

وقال أيضاً ذاكراً هنداً والرباب وفرتنا .

لمن طلل أبصرته فشجانى   كخط زبور فى عسيب يمانى
ديار لهند والرباب وفرتنا   ليالينا بالنعف من بدلان
ليالى يدعونى الهوى فأجيبه   وأعين من أهوى إلىّ روانى

وقال فى فرتنا أيضاً ذاكراً معها هرا .

ألا إنما الدهر ليال وأعصر   وليس على شىء قويم بمستمر
ليال بذات الطلح عند محجر   أحب إلينا من ليال على أقر
أغادى الصبوح عند هر وفرتنا   وليدا وهل أفنى شبابى غير هر
إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة   معتقة مما تجىء به التجر
هما نعجتان من نعاج تبالة   لدى جؤذرين أو كبعض دمى هكر
إذا قامتا تضوع المسك منهما   برائحة من اللطيمة والقطر

وهر قال فيها :

تروح من الحى أم تبتكر   وماذا عليك بأن تنتظر
أمرخ خيامهم أم عشر   أم القلب فى إثرهم منحدر[1]
وفى من أقام من الحى هر   أم الظاعنون بها فى الشطر[2]
وهر تصيد قلوب الرجال   وأفلت منها ابن عمرو حجر
رمتنى بسهم أصاب الفؤاد   غداة الرحيل فلم أنتصر
فأسبل دمعى كفض الجمان   أو الدر رقراقه المنحدر
وإذ هى تمشى كمشى النزيف   يصرعه بالكثيب البهر
برهرهة رودة رخصة   كخرعوبة البانة المنفطر
فتور القيام ، قطيع الكلام   تفتر عن ذى غروب خصر

---

(١) المرخ شجر قصير ينبت بنجد والعشر شجر طويل ينبت بالغور ويعنى الشاعر هل هم منجدون أو مغيرون (٢) الشطر جمع شطير وهو الغريب .

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر
فبت أكابد ليل التما م والقلب من خشية مقشعر
فلما دنوت تسديتها فثوباً نسيت وثوباً أجر (١)
ولم يرنا كالیء كاشح ولم يفش منا لدى البيت سر (٢)
وقد رابنى قولها ياهناه ويحك ألحقت شراً بشر (٣)

وسلامة وقذور قال فيهما :

عفا شطب من أهله فغرور فمربولة إن الديار تدور
فجزع محياة كأن لم تقم بها سلامة حولا كاملا وقذور

وماوية قال فيها .

أماوى هل لى عندكم معرس أم الصرم تختارين بالوصل نيأس (٤)
أبينى لنا إن الصريمة راحة من الشك ذى المخلوجة المتلبس (٥)

وقال فيها أيضاً :

يادار ماوية بالحائل فالسهب فالخبتين من عاقل
صم صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائل

وسلمى قال فيها مع تعرضه لذكر بسباسة :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطال
وتحسب سلمى لاتزال ترى طلا من الوحش أو بيضا بميثاء محلال (٦)
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا بوادى الخزامى أو على رأس أوعال
ليالى سلمى إذ تريك منصبا وجيدا كجيد الرئم ليس بمعطال (٧)
ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وأن لا يحسن السر أمثالى (٨)

---

(١) تسديتها أى علوتها (٢) الكالیء المراقب والكاشح المعادى (٣) هناه اسم من أسماء النداء لا يستعمل فى سواه ومعناه كما تقول ياهذا (٤) ماوى ترخيم ماوية . والمعرس المنزل الذى يحله المسافر عند السحر ليستريح فيه (٥) المخلوجة المعوجة (٦) الميثاء الأرض السهلة . ومحلال أى يكثر الناس النزول فيها. (٧) منصباً ثغراً مستوياً متنسقا (٨) السر النكاح

كذبت لقد أصبي على المرء عرسه ... وأمنع عرسى أن يزن بها الخالى [١]
ويارب يوم قد لهوت وليلة ... بآنسة كأنها خط تمثال [٢]
يضيء الفراش وجهها لضجيعها ... كمصباح زيت فى قناديل ذبال [٣]
كأن على لباتها جمر مصطل ... أصاب غضا جزلا وكف بأجزال [٤]
وهبت له ريح بمختلف الصوا ... صبا وشمال فى منازل قفال [٥]
إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها ... تميل عليه هونة غير مجبال [٦]
كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه ... بما احتسبا من لين مس وتسهال [٧]
ومثلك بيضاء العوارض طفلة ... لعوب تنسيني إذا قمت سربالى [٨]
لطيفة طى الكشح غير مفاضة ... إذا انفتلت مرتجة غير متفال [٩]
إذا ما استحمت كان فيض حميمها ... على متنتيها كالجمان لدى الحالى
تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال [١٠]
نظرت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب لقفال
سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا على حال [١١]
فقالت سباك الله إنك فاضحى ... ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يميـــين الله أبرح قاعدا
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى [١٢]
حلفت لها بالله حلفة فاجر ... لناموا فما إن من حديث ولا صال [١٣]

---

(١) أصبي على المرء عرسه أى أغرى زوجته وأردها إلى الصبا. ويزن يتهم . والخالى الأعزب
(٢) خط تمثال أى كنقش التمثال المصور والمعنى المراد أنه قد لها بحسن هذه الآنسة وجمالها التى كأنها صورة مصورة (٣) قناديل ذبال المراد ذبال قناديل والذبال الفتيلة (٤) كف بأجزال أى جعل له كفاف من أصول شجر الغضا .
(٥) الصوا جمع صوة وهى العلامة التى تكون فى الطريق أو هى الأرض المرتفعة فى غلظ . والقفال العائدون من السفر (٦) ابتزها سلب عنها ثيابها . وهونة أى لينة والمجبال الغليظة الخلق
(٧) حقف النقا الكثيب المستدير من الرمل وقد ذكر ذلك قاصداً تشبيه العجيزة
(٨) العوارض صفحتا العنق . والطفلة الرخصة الناعمة (٩) لطيفة طى الكشح أى رقيقة الخصر والمفاضة المسترخية البطن والمرتجة التى يترجرج لحمها من كثرته والمتفال المنتنة الريح .
(١٠) تنورتها أى نظرت إلى نارها (١١) سموت إليها يعنى علوتها وحباب الماء فقاقيعه (١٢) أبرح
(١٣) قاعداً أى لا أبرح قاعداً لناموا أى لقد ناموا .

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرت بغصن ذى شماريخ ميال [١]
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أى إذلال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها ... عليه القتام سيء الظن والبال [٢]
يغط غطيط البكر شد خناقه ... ليقتلنى والمرء ليس بقتال
أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال
وليس بذى رمح فيطعننى به ... وليس بذى سيف وليس بنبال
أيقتلنى أنى شغفت فؤادها ... كما شغف المهنوءة الرجل الطالى [٣]
وقد علمت سلمى وإن كان بعلها ... بأن الفتى يهذى وليس بفعال
وماذا عليه إن ذكرت أوانسا ... كغزلان رمل فى محاريب أقوال [٤]
وبيت عذارى يوم دجن ولجته ... يطفن بجباء المرافق مكسال [٥]
قليلة جرس الليل إلا وساوسا ... وتبسم عن عذب المذاقة سلسال [٦]
سباط البنان والعرانين والقنا ... لطاف الخصور فى تمام وإكمال
نواعم يتبعن الهوى سبل الردى ... يقلن لأهل الحلم ضلا بتضلال
صرفت الهوى عنهن من خشية الردى
ولست بمقلى الخلال ولا قالى [٧]

وأم هاشم وابنة عفزر قال فيهما ذاكرا معهما البسباسة ابنة يشكر :

لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها ... ولابن جريج فى قرى حمص أنكرا
نشيم بروق المزن أين مصابه ... ولا شىء يشفى منك يابنة عفزرا [٨]

---

(١) أسمحت لانت وانقادت (٢) القتام الغبار.
(٣) شغفت فؤادها أى بلغ حبي شغاف قلبها والمهنوءة الناقة التى تطلى بالقطران وربما نحرت فيوجد طعم القطران فى لحمها (٤) المحاريب الغرف والأقوال كالاقيال آخر الملوك ودونهم
(٥) الدجن ظل الغمام. وجباء المرافق أى غائبة عظام المرافق من كثرة لحمها .
(٦) الجرس الصوت . والوساوس أصوات الحلى (٧) المقلى المبغض (٨) مصاب المزن هو السحاب حيث يقع ومعنى البيت أنه يقول نحن ننظر إلى هذه البروق رجاء منا أن يكون الغيث الواقع معها فى ديار من نحب فنسقى بسقياهم، والعرب يدعون لمن يحبون بالسقيا، ثم كان كل شىء لا يستشفى به من الشوق إلى ابنة عفزر وعفزر اسم رجل .

من القاصرات الطرف لو دب محول
من الذر فوق الإتب منها لأثرا [1]

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا [2]

ويقول أيضاً فى هذه القصيدة ذاكرا سليمى وأسماء :

كأن دمى سقف على ظهر مرمر كسا مزبد الساجوم وشيا مصورا [3]
غرائر فى كن وصون ونعمة يحلين ياقوتا وشذراً مفقرا [4]
وريح سنا فى حقة حميرية تخص بمفروك من المسك أذفرا [5]
وبانا وألويا من الهند ذاكيا ورندا ولبنى والكباء المقترا [6]
غلقن برهن من حبيب به ادعت سليمى فأمسى حبلها قد تبترا [7]
وكان لها فى سالف الدهر خلة يسارق بالطرف الخباء المسترا [8]
إذا نال منها نظرة ريع قلبه كما ذعرت كأس الصبوح المخمرا [9]
نزيف إذا قامت لوجه تمايلت تراشى الفؤاد الرخص إلا تختر [10]
أأسماء أمسى ودها قد تغيرا سنبدل إن أبدلت بالود آخرا

وسعاد قال فيها :

لعمرى لقد بانت بحاجة ذى الهوى سعاد وراعت بالفراق مروعا
وقد عمر الروضات حول مخطط إلى اللج مرأى من سعاد ومسمعا
متى تر دارا من سعاد تقف بها وتستجر عيناك الدموع فتدمعا

---

(١) المحول من الذر الصغير جدا ، والأتب قيص غير مخيط الجانبين .

(٢) له الويل يعنى امرؤ القيس نفسه (٣) سقف اسم موضع والساجوم واد فى جزيرة العرب . والمزبد الذى علاه الزبد (٤) الغرائر النواقل اللاتي لا تجربة لهن . والشذر قطع الذهب . والمفقر المصنوع على شكل فقار الجرادة .

(٥) الستانبت ذكى الرائحة (٦) الألوى العود الذى يتبخر به والرند شجر طيب الثمر . واللبنى الميعة والكباء البخور والمقتر المدخن .

(٧) غلق الرهن حل موعده وتعذر فكاكه والرهن القلب والمراد أنهن احتبسن قلب هذا الحبيب الذى ادعته سليمى بأنها أحق به (٨) الخلة الخليل (٩) المخمر الذى رنحه الخمار

(١٠) تراشي ترمى والتختر الخداع .

وليلى قال فيها :

تنكرت ليلى عن الوصل ونأت ورث معاقد الحبل[1]
ولووا متاعهم وقد سئلوا بذل المتاع فضن بالبذل[2]
ونحت له عن أزر تألبة فلق فراغ معابل طحل[3]
وافت بأصلت غير أكلف محروم البهاء وقلة الأسل[4]
ومؤشر عذب مذاقته برد القلال بذائب النحل[5]

وقال فى ليلى أيضاً :

عيناك دمعهما سجال كأن شانيهما أوشال[6]
أو جدول فى ظلال نخل للماء من تحته مجال
من ذكر ليلى وأين ليلى وخير ما رمت لا ينال

وأم الحويرث وأم الرباب وعنيزة وفاطمة[7] ورد ذكرهن فى معلقته قال :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل
ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفاً بها صحبي علىّ مطيهم يقولون لا تهلك أسا وتجمل
وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول[8]

---

(١) تنكرت تغافلت وتناست (٢) لووا مالوا وتباعدوا .

(٣) نحت أى تنحت . أزر تألبة مجتمع حمر وحشية . فلق أى بيض . فراغ أى فطاب . والمعابل نصال السهام . والطحل جمع أطحل من الطحلة وهى لون بين الغبرة والسواد ببياض (٤) وافت جاءت والمراد بالأصلت الجبين الواضح الذى لا كلف فيه والأسل الطول والاسترسال يوصف به الخد (٥) المؤشر الثغر والمراد بذائب النحل الشهد .

(٦) السجال جمع سجل وهى الدلو العظيمة المملوءة بالماء وشأنيهما جانبيهما أومجارى الدموع منهما والأوشال جمع وشل وهو الماء يحتلب من أعالى الجبل بكثرة (٧) قيل إن أم الحويرث هى هر وقيل أيضاً إن عنيزة هى فاطمة وذكر ذلك مفصل فى آخر هذا الباب (٨ وفى رواية أخرى وإن شفائي عبرة إن سفحتها .

كدأبك من أم الحويرث قبلها ‏ وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قامتا تضوع المسك منهما ‏ نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
ففاضت دموع العين منى صبابة ‏ على النحر حتى بل دمعى محلى
ألا رب يوم لك منهن صالح ‏ ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعذارى مطيتى ‏ فياعجباً من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها ‏ وشحم كهداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ‏ فقالت لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معا ‏ عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ‏ ولا تبعدينى عن جناك المعلل (١)
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ‏ فألهيتها عن ذى تمائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ‏ بشق وتحتى شقها لم يحول
ويوما على ظهر الكثيب تعذرت ‏ علىَّ وآلت حلفة لم تحلل
أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ‏ وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
وإن تك قد ساءتك منى خليقة ‏ فسلى ثيابى عن ثيابك تنسل
أغرك منى أن حبك قاتلى ‏ وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى ‏ بسهميك فى أعشار قلب مقتل
وبيضة خدر لا يرام خباؤها ‏ تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا ‏ على حراصا لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ‏ تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها ‏ لدى الستر إلا لبسة المتفضل (٢)
فقالت يمين الله مالك حيلة ‏ وما إن أرى عنك الغواية تنجلى
خرجت بها أمشى تجر وراءنا ‏ على إثرنا أذيال مرط مرحل (٣)
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى ‏ بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل (٤)

(١) لا تبعدينى عن جناك المعلل أى لا تبعدينى من اقتطاف ثمرة خديك بالقبل والمعلل المطيب (٢) نضت ثيابها أى خلعتها ولبسة المتفضل ما يلبس عند النوم من قميص أو إزرار (٣) المرط ثوب خز معلم والمرحل المخطط المنقوش على هيئة الرحال (٤) أجزنا قطعنا وانتحى قصد واعتمد والحقف الرمل المشرف المعوج والعقنقل أيضاً الرمل الكثير المتعقد المتلبد .

هصرت بفودى رأسها فتمايلت ... علىَّ هضيم الكشح ريا المخلخل [١]
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل [٢]
كبكر المقاناة البياض بصفرة ... غذاها نمير الماء غير المحلل [٣]
تصد وتبدى عن أسيل وتتقى ... بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ... إذا هى نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل [٤]
غدائره مستشزرات إلى العلا ... تضل العقاص فى مثنى ومرسل [٥]
وكشح لطيف كالجديل مخصر ... وساق كأنبوب السقى المذلل [٦]
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها ... نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل [٧]
وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبى أو مساويك إسحل [٨]
تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل
إلى مثلها يرنو الحليم صبابة ... إذا ما اسبكرت بين درع ومجول [٩]
تسلت عمايات الرجال عن الصبا ... وليس فؤادى عن هواها بمنسل
ألا رب خصم فيك ألوى رددته ... نصيح على تعذاله غير مؤتل [١٠]

وإنى لأقف هنا وقفة أعرض فيها أقوال الرواة والعلماء واختلافهم فيما تعرضوا له من نسب هر وبعض صواحب امرىء القيس فأقول :

---

(١) هصرت جذبت والفودان جانبا الرأس وهضيم الكشح ضامر الوسط وريا ملآن والمخلخل مكان الخلخال من الساق (٢) المهفهفة الضامرة البطن والمفاضة الكبيرة البطن والترائب النحر ومصقولة مجلوة والسجنجل المرآة (٣) والمقاناة المخالط بياضها صفرة وحمرة ، والنمير الصافى والمحلل الذى كثر حلول الناس عنده والمراد بالبكر بيضة النعامة أول ما تبيض والبكر من كل شىء مالم يسبقه مثله (٤) الأثيث الكثيف والمتعثكل المتراكم بعضه فوق بعض أو هو المتدلى (٥) المستشزرات المرتفعات والعقاص جمع عقيصة وهى الخصلة المجموعة من الشعر (٦) الجديل خطام الناقة وزمامها والمراد بقوله كأنبوب السقى المذلل أى كأنبوب نبات البردى المسقى المذلل بالإرواء (٧) تضحى تستيقظ فى ضحوة النهار وتنتطق تشد نطاقاً للعمل ويقصد أنها مرهفة منعمة ، وعن تفضل أى عن الثوب الذى تنام فيه (٨) تعطو تتناول والمراد بالرخص الأصابع اللينة وغير شثن أى غير خشنة والأساريع دود صغار وظبى اسم موضع والأسحل شجر تتخذ منه المساويك كالأراك .

(٩) اسبكرت أى مشت مستقيمة ، وبين درع ومجول أى بين صغيرة تلبس المجول وفتية تلبس الدرع (١٠) ألوى شديد الخصومه وتعذاله لومه وغير مؤتل أى غير مقصر .

إن ابن قتيبة وصاحب معاهد التنصيص قالا « إن هرا هذه من زوجات أبيه واسمها أم الحويرث أيضا ، وقال أبو عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى « أم الحويرث التى كان يشبب بها امرؤ القيس فى أشعاره هى أخت الحارث بن ضمضم من كلب ، وهى امرأة حجر أبى امرىء القيس ، فلذلك كان أبوه طرده ونفاه وهم بقتله ، وعلق البغدادى فى خزانته على قول أبى عبيد بقوله « وهذا هو الصواب ، ولكن جاء فى نزهة ذوى الكيس « أن هرا هى ابنة العامرى وأبوها الحارث بن حصين الكلبى ، ويقال إن هرا جارية لحجر بن عمرو أبى امرىء القيس ، ويقوى هذا قول امرىء القيس وأفلت منها ابن عمرو حجر لأنها جاريته ، فهو ينال منها غربته ، ويدرك مراده ، دون غرام بها ولا عناء ، والوزير أبو بكر بن أيوب يقول عن هر « إنها ابنة سلامة بن علند من كلب ، وإن فاطمة التى يذكرها من كاب أيضاً ، وإنه قال هذه القصيدة فى حيهم بعد أن نفاه أبوه ونزل بهم فعلق هواه بهاتين ، وقد علق ابن أيوب على قول امرىء القيس :

وهر تصيد قلوب الرجال   وأفلت منها ابن عمرو حجر

فقال استعارة الصيد مع الهر مضحكة ، ولو أن حجرا أباه من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف ، وهذه الاستعارة وإن لم تكن فاسدة فقد تجنبها المحدثون ظرفا ولطافة . وقد رجع أبو بكر بن أيوب فذكر قولا آخر عن نسب هر عند شرحه للمعلقة فقال « أم الحويرث هى هر التى كان يشبب بها فى أشعاره وهى أخت الحرث بن الحصين بن ضمضم ، وقد تقدم فى نسبها غير هذا ، والتبريزى يقول « أم الحويرث هى هر أم الحارث بن حصين بن ضمضم الكلبى ، وأم الرباب من كلب أيضاً ، وقال أيضاً عن عنيزة « إنها ابنة عمه صاحبة يوم دارة جلجل ، وقال ابن الكلبى — فيما أورده الزوزنى — عن فاطمة « هى ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر ، وعامر هو الأجدار بن عوف بن عذرة ، قال ولها يقول :

لا وأبيك ابنة العامرى   لا يدعى القوم أنى أفر

وابن قتيبة تابع ابن الكلبي على هذا الرأى

وقال الزوزنى عن عنيزة « إنها ابنة عمه شرحبيل » وذكرها فى موضع آخر من كتابه فقال « عنيزة اسم عشيقته وهى ابنة عمه وقيل هو لقب لها ، واسمها فاطمة ، وقيل بل اسمها عنيزة . وفاطمة غيرها » وقال فى موضع آخر أيضاً « فاطمة اسم المرضع واسم عنيزة . وعنيزة لقب لها فيما قيل » وقال أبو الحسن الطوسى عن هر «إنها ابنة العامرى ، وهى ابنة سلامة بن عبد ، ويقال ابن عبد الله بن عليم ، قال : وكان امرؤ القيس فى كلب وطيء أيام نفاه أبوه ، وقال : وابنها الحرث بن حصن بن ضمضم بن جناب الكلبى ، وفاطمة أيضاً من كلب فشبب بهاتين » وقال فى موضع آخر « أم الحويرث هى هر التى كان يشبب بها فى أشعاره وهى أخت الحرث بن حصين بن ضمضم من كلب » وقال عن فاطمة أيضا « إنها بنت العبيد بن ثعلبة من عذرة » وقال صاحب الخزانة عن البسباسة ابنة يشكر « إنها من بنى أسد »

وإنى لأميل إلى الرأى القائل بأن عنيزة لقب لفاطمة لأن سياق المعلقة يرجح ذلك . كما أننى أميل أيضا إلى الرأى القائل بأن هرا جارية لحجر ابن عمرو وإحدى سراريه ، لأنه لا يمكننى أن أفهم أن امرأ القيس يصل به الفحش والعهر إلى هذا الدرك المنحط فيشبب بزوجة أبيه وهو ابن ملك تأبى عليه أخلاقه ذلك ، بل كل الأعراب فى إباء مثل هذا سواء ، فما بالنا بأبناء الملوك منهم ، فما عرف عن العربى فى يوم من الأيام أنه اعتدى على حرمة أبيه فتعشق نساءه وزوجاته لأن ذلك سبة وعار كبير ، وغاية ما عرف عن العرب القدامى فى مثل ذلك أن الأب بعد موته إن ترك امرأة يكون أكبر أولاد ذلك الرجل من غير تلك المرأة وليا عليها فإن شاء تزوجها وإن شاء عضلها حتى تموت وإن شاء زوجها من غيره وقبض مهرها ولكن زواج الولد بزوجة الأب كان قليلا يستقبحه العرب ولذلك سموه نكاح المقت . أما عن غضب حجر على ولده امرىء القيس فسببه فى نظرى تلك الجارية (هر) وتشبيه بها ، لأنه بذلك خرج عن حد اللياقة والأدب مع والده مما أغضبه

عليه ، وجعله يمقته ويزدريه ويشرده فى البلاد بعد ذلك . أضف إلى هذا تلك الحياة الخليعة التى ارتضاها امرؤ القيس لنفسه ، وأنفها له أبوه .

وأعود فأقول مهما يكن من شىء فسواء علينا أن تكون هر هذه من نساء أبيه أو جواريه ، وأن تكون أخت الحصين أو أمه ، وأن تكون بنت سلامة ابن علند أو بنت غيره . وسواء علينا أيضاً أن تكون فاطمة من بنات عمه أم لا ، فقد عرف عن امرىء القيس أنه كان فاحشا مستهترا فى فعله وقوله ، كثير العبث بالنساء ، كما عرف عنه أنه قضى زهرة شبابه منغمسا فى اللهو والمجانة ، يستتبع صعاليك العرب يغير بهم على الأحيـــاء مما أثار عليه حفيظة والده .

وإن اختلاف الرواة والعلماء بالشعر فى نسب هر وفاطمة إلى هذا الحد يجعلنى أجنح إلى القول بأن اسم (هر) لم يكن علما على معشوقة واحـدة لامرىء القيس وإنما كان علما على معشوقات ، وكذلك اسم (فاطمة) لم يكن علما على معشوقة واحدة وإنما كان علما على معشوقات ، ويرجح ذلك عندى ما كان من امرىء القيس فى شبابه من كثرة تنقله فى أحياء العرب ، وجريه وراء المجانة والعبث إلى أقصى غاية وأبعد شوط .

منزلة امرىء القيس الشعرية

امرؤ القيس فحل من فحول شعراء الجاهلية ، وعلماء البصرة يجعلونه رأس الطبقة الأولى ، وغيرهم متفق على أنه من الطبقة الأولى وإن كانوا يقدمون عليه سواه ، فأهل الكوفة يقدمون عليه الأعشى ، وعلماء الحجاز والبادية يقدمون عليه زهيرا والنابغة ، وابن سلام قد قرنه بزهير والنابغة وأعشى قيس ، ولكن الغالبية مع امرىء القيس فى زعامته ورئاسته لتلك الحلبة الجاهلية .

وقد قيل للفرزدق من أشعر الناس فقال ذو القروح (يعنى امرأ القيس) حيث يقول :

وقاهم جــدهم ببنى أبيهم وبالأشقين ماكان العذاب

ومر لبيد بالكوفة فى بنى نهد ، فسألوه من أشعر الناس ؟ فقال الملك الضليل (يريد امرأ القيس) قيل له ثم من ؟ قال ابن العشرين (يريد طرفة) قيل ثم من ؟ قال أبو عقيل (يريد نفسه) .

وقال سيدنا عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما وقد سأله عن الشعراء « أمرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقرت عن معان عور أصح بصراً » وقد شرح السيوطى فى كتابه (المزهر) عبارة سيدنا عمر ، فقال : خسف لهم من الخسف وهى البئر التى حفرت فى حجارة فخرج منها ماء كثير ، وقوله افتقر أى فتح من الفقر وهو فم القناة وقوله عن معان عور يريد أن امرأ القيس من اليمن وأن أهل اليمن ليست لهم فصاحة نزار فجعل لهم معانى عورا فتح امرؤ القيس أصح بصر ، فإن امرأ القيس يمانى النسب ، نزارى الدار والمنشا .

وفضله سيدنا على رضى الله عنـه على شعراء الجاهلية بأن قال : رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة .

وقال الحطيئة : امرؤ القيس أشعر العرب حيث يقول :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وقيل لكثير من أشعر العرب ؟ فقال . امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب .

وقيل لنصيب من أشعر العرب ؟ فقال : لم أر لأحد من الشعراء بعد امرىء القيس ما لزهير والنابغة والأعشى فى النفوس .

وكان أبو عبيدة يقول : افتتح الشعر بامرىء القيس ، واختم بابن هرمة .

وقالت طائفة : الشعراء ثلاثة ؛ جاهلى وإسلامى ومولد ، فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز .

وقوم يرون تقدمة الشعر لليمن فى الجاهلية بامرىء القيس ، وفى الإسلام بحسان بن ثابت ، وفى المولدين بالحسن بن هانىء وأصحابه .

وقال ابن سلام : إن امرأ القيس سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء منها : استيقاف صحبه ، والبكاء على الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض ، والخيل بالعقبان والعصى ، وهو أول من قيد الأوابد وأجاد فى التشبيه . وتلك شهادة من ابن سلام لها ما قبلها ، وعليها ما بعدها .

وقال الآمدى فى الموازنة « ... وبهذه الخلة دون ما سواها فضل امرؤ القيس ؛ لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى ، وبديع الوصف ، ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة ؛ فوق ما استحار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام ، حتى إنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأنواع ، ولولا لطيف المعانى واجتهاد امرىء القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم ، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا فى تقديمه بأن قالوا : هو أول من شبه الخيل بالعصى ، وذكر الوحش والطير ، وأول من قال : قيد الأوابد ، وأول قال كذا وقال كذا ، فهل هذا التقديم له إلا لأجل

معانيه ، ويشهد الآمدى بعد ذلك أن امرأ القيس جمع الفضيلتين فضيلة جمال اللفظ والأسلوب وفضيلة جلال المعنى .

وقدذكر ابن قتيبة فى عيون الأخبار ، أن قوما قدموا على النبى صلوات الله وسلامه عليه من اليمن ، فقالوا : يارسول الله أقبلنا نريدك ولكننا ضللنا الطريق ومكثنا ثلاثة أيام بغير ماء فاستظللنا بالطلح والسمر ، فأقبل علينا راكب متلثم بعمامته ، فنظر إليه بعض القوم فأعجبه سير الناقة ، فقال متمثلا بيتين هما .

ولما رأت أن الشريعة همها   وأن البياض فى فرائصها دامى
تيممت العين التى عند ضارج   يفىء عليها الظل عرمضها طامى

فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟فقلنا أمرؤ القيس ، فقال : والله ماكذب هذا ضارج عندكم ، وأشار بيده إليه ،فجثونا على الركب إلى ماء غدق عليه الطلح والعرمض والظل يفىء ، فشربنا حتى روينا ، وحملنا منه ما يكفينا ويبلغنا الطريق . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ذلك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها ، منسى فى الآخرة خامل فيها، يجىء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار » وروى ذلك الخبر أيضا الألوسى فى بلوغ الأرب وجاء فى المزهر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال امرؤ القيس أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار ، يعنى الجاهليين

وقال يونس النحوى : قدم علينا ذو الرمة من سفر ، وكان أحسن الناس وصفا للمطر ، فاختار قول امرىء القيس : —

ديمة هطلاء فيها وطف   طبق الأرض تحرى وتدر [1]
تخرج الود إذا ما أشجذت   وتواريه إذا ماتعتكر [2]

---

(١) الديمة السحابة المطيرة الدائمة فى سحها يوما وليلة . هطلاء مسبلة . فيها وطف أى لها حواش وأهداب متدلية من جانبيها حتى لتكاد تمس الأرض . وطبق الأرض أى تعم الأرض حتى تصير كالطبق وتحرى أى تتحرى بمعنى تقصد وتعتمد . تدر أى تصب .

(٢) الود الوتد . أشجذت أقلعت وكفت . تعتكر تشتد .

وترى الضب خفيفا ماهرا   ثانيا برثنه ماينعفر [١]
وترى الشجراء فى ريقها   كرءوس قطعت فيها الخمر [٢]
ساعة ثم انتحاها وابل   ساقط الأكناف واه منهمر [٣]
راح تمريه الصبا ثم انتحى   فيه شؤبوب جنوب منفجر [٤]
ثج حتى ضاق عن آذيه   عرض خيم فخفاف فيسر [٥]
قد غدا يحملنى فى أنفه   لاحق الأيطل محبوك ممر [٦]

وقد قال صاحب شعراء النصرانية إن هذا أحسن شعر جاء فى وصف الغيث :

وحكى البغدادى فى خزانته عن بعض العلماء بالشعر أن امرأ القيس أحسن الشعراء ابتداعا فى الجاهلية حيث يقول :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى   وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وكان امرؤ القيس كثير الإجادة فى وصف الفرس ، حتى لانكاد نجد قصيدة من قصائده تخلو من وصفه ، ومن أحسن ماوصفه به قوله :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها   بمجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

فقوله قيد الأوابد من الألفاظ الشريفة البالغة نهاية الحسن ومنتهى الجودة ، فقد عنى بذلك أنه إذا أرسل فرسه على الصيد ، صار قيدا له وكأن

(١) البرثن الأصبع . ما ينعفر أى ما يصيبه التراب .
(٢) الشجراء الغابة الكثيرة الشجر . وريقها مستهلها أى أول المطر . والخمر جمع خمار وهو ما يغطى به الوجه .
(٣) انتحاها قصدها واعتمدها . والوابل المطر الشديد . والأكناف النواحى . والواهى المتشقق . ومنهمر أى سائل شديد الوقع .
(٤) راح أى عادفى آخر النهار . تمريه الصبا أى تستدره ريح الصبا . وشؤبوب جنوب أى مطر ريح الجنوب وهى التى تقابل الصبا وقوله منفجر أى غزير شديد .
(٥) ثج أى صب والآذى الموج . عرض رحاب . وخيم وخفاف ويسر أماكن .
(٦) أنفه أى أوله . ولاحق الأيطل ضامر الخصر . والمحبوك المدمج الشديد الخلق . والممر المفتول المضل غير مترهل اللحم .

الصيد بحالة المقيد ، وذلك من شدة عدو هذا الفرس . وقد ذكر الأصمعى وأبو عبيدة وحماد وقبلهم أبو عمرو ذكروا جميعا : أنه أحسن فى هذا المعنى وأنه اتبع فيه فلم يلحق .

وقد قال خلف : لم أربيتا أفاد وأجاد وساد وزاد وقاد وعاد ولا أفضل من قول امرىء القيس : —

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

فقد شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء مع إحسانه فى ذلك ، فمما امتاز به امرؤ القيس حسن التشبيه ورقته . وقد قال بشار بن برد : لم أزل أحسد امرأ القيس على قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

حتى قلت:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ولكن امرأ القيس قد سبق إلى صحة التقسيم فى التشبيه ، ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل .

ومن بديع تشبيهات امرىء القيس قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

فانظر إليه كيف جعل الليل جملا له صدر ، ثقيل تنحيه ، بطىء تقضيه، وجعل له كلكلا ينوء به ،وأعجازا كثيرة يردفها ، وجعل له صلبا يمتد ويتطاول،

ثم بالغ فى طول الليل ، فقال : كأن نجومه شدت بحبال إلى جبال، فكأنها لا تسير ولا تغور ، وزاد على جلال هذا المعنى جمال اللفظ والأسلوب .

ومن تشبيهاته الحسنة أيضاً قوله :

كأنى غداة البين يوم تحملوا ... لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

وقوله أيضا يصف المرأة :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى ... بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ... إذا هى نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا ... تضل العقاص فى مثنى ومرسل
وكشح لطيف كالجديل مخصر ... وساق كأنبوب السقى المذلل

ويجب أن نذكر أن خيال امرىء القيس خيال شاعر عاش فى البادية بين الوهاد والنجاد ، والربا والآكام ، والظباء الوادعة والوحوش النافرة ، ولكل هذا جمال خاص ، وجلال يقف على حقيقته من طبع نفسه بطابع البيداء ، وجعلها مرآة لذلك العراء . فلا غرابة بعد هذا إن وجدنا لامرىء القيس فى بعض تشابيهه نزعة لا تروق أهل الحاضرة وسكان الأمصار .

ومن أحسن غزل امرىء القيس الذى جمع إلى عذوبة اللفظ رقة المعنى قوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقد ذكر ابن قتيبة أن أشرافا من الناس والشعراء اجتمعوا عند عبد الملك فسألهم عن أرق بيت قالته العرب ، فاجتمعوا على قول امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقد قال الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن « وأنت لا تشك فى جودة شعر امرىء القيس ، ولا ترتاب فى براعته ، ولا تتوقف فى فصاحته وتعلم أنه قد أبدع فى طرق الشعر أمورا اتبع فيها من ذكر الديار ، والوقوف عليها ؛ إلى ما يتصل بذلك من البديع الذى أبدعه ، والتشبيه الذى أحدثه ، والتميح[1] الذى يوجد فى شعره والتصرف الكثير الذى تصادفه فى قوله ، والوجوه التى ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح » وتعرض الباقلانى بعد ذلك إلى معلقة امرىء القيس فانتقد منها أبياتا كثيرة ، ليدل بهذا النقد على إعجاز القرآن الكريم ، وأنه فوق مقدور البشر ، وأن أبلغ شعر للعرب وأفصح كلام لهم لا يمتنع من النقص ، وأنه لا يصل إلى مرتبة القرآن الكريم فى بلاغته وفصاحته وجمال لفظه وجلال أسلوبه وشرف معناه ، ونحن نوافق الباقلانى رضى الله عنه على أن القرآن فى الذروة العليا من البيان العربى ، وأنه لا يلحق له غبار ولا يدانيه شىء من كلام العرب ، وأنه قبيل آخر منقطع النظير ، فهو وحى يوحى ، نظمه مميز ، وأسلوبه مخصص . ولكنى آخذ على الإمام الباقلانى تعسفه فى نقد امرىء القيس ، وغلوه فى ذلك حتى جاوز حد النقد البرىء ، فجاء كلامه مختلطا ذا عوج غير مبين ، وسنبين ذلك مفصلا عند كلامنا على أوهام نقاد شعر امرىء القيس

وينتهى بنا القول إلى أن امرأ القيس جيد السبك ، رشيق المعنى ، قريب المأخذ ، إلا أنه أحيانا تخشن ألفاظه ، وتجف عباراته .

---

(١) التميح : التبختر فى المشى .

معلقة امرىء القيس

قال ذلك الشاعر التاريخى العظيم :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها　　لما نسجتها من جنوب وشمأل
ترى بعر الآرام فى عرصاتها　　وقيعانها كأنه حب فلفـــل
كأنى غداة البين يوم تحملوا　　لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفا بها صحبى عـــلى مطيهم　　يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عـــبرة مهراقة　　فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحويرث قبلها　　وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قامتا تضوع المسك منهما　　نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
ففاضت دموع العين منى صبابة　　على النحر حتى بل دمعى محملى

وقال يصف يوم الغدير :

ألا رب يوم لك منهن صالح　　ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعذارى مطيتى　　فواعجبا من كورها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها　　وشحم كهداب الدمقس المفتل

إلى أن يقول :

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت　　على وآلت حلفة لم تحلل

وفيها يقول أيضا مخاطبا ابنة عمه

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل　　وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى　　وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى　　بسهميك فى أعشار قلب مقتل

ثم مضى يقص ما كان منه مع معشوقته ويصفها بقوله :

وبيضة خدر لايرام خباؤها　　تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا　　على حراصا لو يسرون مقتلى

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها   لدى الستر إلا لبسة المتفضل

إلى أن يقول :

ألا رب خصم فيك ألوى رددته   نصيح على تعذاله غير مؤتل

ثم خرج من ذلك إلى وصف الليل فقال :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى (١)
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى   بصبح وما الإصباح منك بأمثل (٢)
فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل (٣)
كأن الثريا علقت فى مصامها   بأمراس كتان إلى صم جندل (٤)

وروى أبو سعيد السكرى بعد ذلك أربعة أبيات عدها من المعلقة وهى قوله فى وصف الذئب :

وقربة أقوام جعلت عصامها   على كاهل منى ذلول مرحل (٥)
وواد كجوف العير قفر قطعته   به الذئب يعوى كالخليع المعيل (٦)
فقلت له لما عوى إن شأننا   قليل الغنى إن كنت لما تمول (٧)
كلانا إذا ما نال شيئا أفاته   ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل (٨)

ولكن الأصمعى وأبا حنيفة الدينورى فى كتاب النبات وابن قتيبة فى

---

(١) ليبتلى ليختبر .
(٢) بأمثل أى بأفضل .
(٣) مغار الفتل شديد الفتل . ويذبل جبل .
(٤) مصامها موضع وقوفها والأمراس الحبال . وصم جندل أى حجارة صلبة .
(٥) عصام القربة سيرها الذى تحمل منه وذلول مذلل موطأ . والمرحل المعود أن يرحل عليه .
(٦) الخليع الذى خلعه قومه وطردوه والمعيل ذو العيال .
(٧) لما تمول أى لما تصب مالا .
(٨) أفاته أضاعه والمراد بالحرث هنا الفعل والسعى .

أبيات المعانى رووها لتأبط شرا . والبغدادى علق على هذه الأبيات فى خزانته بأنها أشبه بكلام اللص والصعلوك لا بكلام الملوك .

ثم قال امرؤ القيس يصف الفرس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها — بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)
مكر مفر مقبل مدبر معا — كجلمود صخر حطه السيل من عل (٢)
كميت يزل اللبد عن حال متنه — كما زلت الصفواء بالمتنزل (٣)
على الذبل جياش كأن اهتزامه — إذا جاش فيه حميه غلى مرجل (٤)
مسح إذا ما السابحات على الونى — أثرن الغبار بالكديد المركل (٥)
يزل الغلام الخف عن صهواته — ويلوى بأثواب العنيف المثقل (٦)
درير كخذروف الوليد أمره — تتابع كفيه بخيط موصل (٧)
له أيطلا ظبى وساقا نعامة — وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٨)
ضليع إذا استدبرته سد فرجه — بضاف فويق الأرض ليس بأعزل (٩)

---

(١) اغتدى أخرج أول النهار والمنجرد الفرس القصير الشعر والأوابد الوحوش والمراد بهيكل طويل .

(٢) مكر مفر أى معاود للكر والفر . والجلمود الصخر الأصم .

(٣) الفرس الكميت هو الذى فى لونه حمرة ضاربة إلى السواد . والصفواء الصخرة الملساء والمتنزل المطر .

(٤) الذبل هو الذبول. جياش أى يزداد فى الجرى . والاهتزام الصوت والمراد بحميه شدة جريه والمرجل القدر .

(٥) مسح كثير الجرى والمراد بالسابحات الخيل والونى الإعياء والكديد ما صلب من الأرض والمركل الذى ركلته الخيل بحوافرها .

(٦) الخف الخفيف الحاذق بالركوب ويلوى يذهب والمراد بالعنيف المثقل الذى لا يحسن الركوب .

(٧) درير سريع الجرى والخذروف قال البغدادى هى الفرارة التى يلعب بها الصبيان يسمع لها صوت .

(٨) أيطلا ظبى خاصرتيه لانفراجهما . وإرخاء السرحان سرعة الذئب والتقريب وضع الرجلين الخلفيتين موضع الرجلين الأماميتين فى العدو والتتفل ولد الثعلب .

(٩) ضليع قوى الأضلاع واستدبرته نظرت إليه من خلف والأعزل الذى يميل عظم ذنبه إلى أحد الشقين .

كأن على المتنين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل [١]
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل [٢]
فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار فى ملاء مذيل [٣]
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة مخول [٤]
فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها فى صرة لم تزيل [٥]
فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا ولم ينضح بماء فيغسل [٦]
فظل طهاة اللحم مابين منضج صفيف شواء أو قدير معجل [٧]
ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه متى ماترق العين فيه تسفل [٨]
فبات عليه سرجه ولجامه وبات بعينى قائما غير مرسل [٩]

وقال بعد ذلك يصف البرق والمطر ومرح الطير وطربها بصفاء السماء بعد تسكاب الماء.

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حبى مكلل [١٠]
يضىء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل [١١]
قعدت وأصحابى له بين ضارج وبين العذيب بعدما متأمل [١٢]

---

(١) مداك العروس الحجر الذى يسحق عليه الطيب لها . والصلاية الحجر الذى يدق عليه الحنظل وكلاهما يكون صلبا براقا .

(٢) الهاديات أوائل الصيد والوحش . والمرجل المسرح بالمشط .

(٣) عن ظهر والسرب قطيع البقر الوحشية والدوار صنم كانت العرب تنصبه وتدور به والملاء جمع ملاءة وهى ثوب ذو لفقين والمذيل الطويل الذيل .

(٤) الجزع الخرز .

(٥) والجواحر المتخلفات . والصرة الجماعة . لم تزيل أى لم تتفرق .

(٦) عادى أى والى الجرى . دراكا أى سريعاً . ينضح يعرق .

(٧) الصفيف شرائح اللحم المرققة والقدير المطبوخ فى القدر .

(٨) متى ما ترق العين فيه تسفل أى متى ما ارتفعت عين الناظر إلى أعالى خلقه تسفلت فبادرت بالنظر إلى قوائمه .

(٩) بات بعينى أى بحيث أراه .

(١٠) الحبى المكلل السحاب المتراكم .

(١١) السليط الزيت .

(١٢) المعنى فى قوله بعد ما متأملى بضم الباء على ما قاله التبريزى يا بعد ما تأملت .

على قطن بالشيم أيمن صوبه ... وأيسره على الستار فيذبل [1]
فأضحى يسح الماء حول كتيفة ... يكب على الأذقان دوح الكنهبل [2]
ومر على القنان من نفيانه ... فأنزل منه العصم من كل منزل [3]
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أطما إلا مشيدا بجندل [4]
كأن ثبيرا فى عرانين وبله ... كبير أناس فى بجاد مزمل [5]
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة ... من السيل والغثاء فلكة مغزل [6]
وألقى بصحراء الغبيط بعاعه ... نزول اليمانى ذى العياب المحمل [7]
كأن مكاكى الجواء غدية ... صبحن سلافا من رحيق مفلفل [8]
كأن السباع فيه غرقى عشية ... بأرجائه القصوى أنابيش عنصل [9]

فأنت ترى أنه بدأ هذه القصيدة العالية بما عده الأدباء بحق من أجود مطالع الشعر الجاهلى بل الشعر العربى جملة ، وضربوا بحسنه المثل ، فقالوا : أحسن من قفانبك ، وإن كانوا يريدون القصيدة كلها ، وقد جمع فى شطر هذا المطلع بين أشياء عدها الناس من أولياته لأنه وقف واستوقف ، وبكى وأبكى معه صاحباه ، وذكر الحبيب والمنزل ، ثم جعل يذكر صواحبه ويصفهن بالطيب والنعمة فى عذوبة ورشاقة ، وأخذ يتحدث عن قصته مع صاحبته يوم الغدير ، وما كان من تحالفه وقسمه الممزوج بمطاوعة الشباب ، وكان فى مثل عذوبة السلاف حين رقق الغزل فى قوله :

---

(١) الشيم النظر إلى البرق وصوبه مطره .

(٢) كتيفة موضع ببلاد باهلة وقوله يكب على الأذقان دوح الكنهبل أى يقتلع شجر الكنهبل من أصوله ويلقيه على أم رأسه لشدة سحه .

(٣) القنان اسم جبل لبنى أسد والنفيان ما يتطاير من قطر المطر والعصم جمع أعصم وهو الوعل الذى فى إحدى يديه بياض .

(٤) الأطم القصر .

(٥) ثبير جبل والعرانين الأنوف وقد استعيرت هنا لأوائل المطر والبجاد كساء مخطط .

(٦) الغثاء ما جاء به السيل من الحشيش والشجر والكلأ والتراب وغير ذلك .

(٧) البعاع الثقل .

(٨) المكاكى جمع مكاء وهو ضرب من الطير حسن التغريد فى الصباح .

(٩) الأنابيش أصول النبات والعنصل البصل البرى .

أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وحين رققه أيضا عندما وصل إلى وصف الدبيب ، والاستهتار فى الحب والتعرض للتهلكة فى مخاتلة الأحراس الحراص على قتله والفتك به ، ثم انتحى نحوا آخر فى وصف الليل ووصف الفرس بما هو فيه أول بالإجماع ، ثم جرد من الذئب شخصا خياليا وخاطبه فى قوة خيال وروعة تصوير [1] ثم وصف البرق والمطر ، وجعل الطيور وهى المكاكى من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد نزول المطر كأنما شربن سلافا من رحيق مفلفل ، وكل هذا مفرغ فى ذوب من ماء العربية بين الجزالة والعذوبة . نستطيع أن نحكم بعد ذلك على هذه المعلقة بأنها من أجل الآثار التاريخية لتلك الفصاحة العربية فى ذلك العصر الجاهلى ، وهى فى جملة أغراضها وأوصافها ونسيبها وكناياتها المثال الذى احتذى عليه الشعراء بعده وجعلوه رئيس فحولهم والمقدم عليهم غير مدافع فى ذلك ، وليس فى شعراء الجاهلية من نشعر بقوة شخصيته فى شعره مثل امرىء القيس ، وهو يعتبر من شعراء العالم الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، ولئن جاز فى عقل أحد أن يشك فى شىء من أشعار الجاهلية ليكونن امرؤ القيس آخر من يتطرق إليهم الشك أو تتصل بحياتهم التهمة ، ولقد روى شعره ثمانية من ثقاة الرواة ودنوه وتناولوه بالنقد والشرح وهم أبو عمر ابن العلاء وأبو سعيد الأصمعى وابن السكيت وأبو عباس الأحوال وأبو عبيده وأبو سعيد السكرى ومحمد بن جبيب، وخالد بن كلثوم ، وتناوله أيضا العلماء المستشرقون ونقدوه وحللوه وهؤلاء جميعاً لم يمكنهم أن ينكروا شعر امرىء القيس ولا شخصيته ويكفى أن نذكر شهادة المستشرق (نيكلسون) لهذه المعلقة فقد قال « أما معلقة امرىء القيس فقد تسابق النقاد الأوربيون

(١) يقول صاحب الشهاب الراصد إن قصيدة الفريددى فينى أحد أعضاء أكاديمية فرنسا فى (موت الذئب) لا تضارع فى مجموعها أبيات امرىء القيس ثم يقول إن فكرة الشاعر العربى هى التى أوحت بلا أدنى ريب إلى الشاعر الفرنسى قصيدته الشهيرة .

إلى التغني بجمال تعبيرها ، والتحدث بفاخر تصويرها، وحلاوة تدفق أبياتها ، وسحر تمثيلها المنوع ، ومما زاد إعجابهم بهاذلك الشعور بأفراح الحياة، وتمجيد الشباب الذى أوحى إلى الشاعر معانيها الخلابة ومبانيها البالغة أعلى درجات الفصاحة ، أما ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من إنكار شعر امرئ القيس وشخصيته فسنفند هـــذا الرأى ونبين وجه الخطأ فيه فى فصل مقبل إن شاء الله تعالى .

رأينا فى المعلقة

قال ابن قتيبة « كان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع بالشعر بفاطمة ما صنع وكان لها عاشقا ، فطلبها زمنا فلم يصل إليها ، وكان يطلب غرة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان ، فقال قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ، فلما بلغ ذلك حجراً أباه دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس ، وائتنى بعينيه ، فذبح جؤذرا ، فأتاه بعينيه ، فندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن ، إنى لم أقتله ، قال : فائتنى به ، فانطلق ، فإذا هو قد قال شعراً فى رأس جبل وهو قوله :

فلا تتركنى ياربيع لهذه   وكنت أرانى قبلها بك واثقا

فرده إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ، ثم إنه قال : ألا عم صباحا أيها الطلل البالى فبلغ ذلك أباه ، فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدمون » .

ومن تلك الرواية التى تحدث بها ابن قتيبة نعلم أن امرأ القيس قد قال معلقته وقصيدته الثانية (ألا عم صباحا أيها الطلل البالى) فى أيام شبابه ولهوه ، قبل أن يغالبه القدر ، وينازعه الدهر ، وعلى هذا فنحن ندرس هاتين القصيدتين على أنهما تمثلان امرأ القيس فى طوره الأول طور الشباب

أما قصة الغدير ، فقد قالت الرواة فى أنبائها : إن امرأ القيس كان عاشقا لعنيزة ابنة عمه شرحبيل ، وكان قد منع من الاجتماع بها ، وحيل بينه وبينها ، جريا على مألوف العرب فى عدم تمكين العاشق من الاجتماع بمعشوقته ، وعدم تزويجه إياها، وأيضاً لأن امرأ القيس كان متهتكا مشهورا بالفواحش ، ولكنه كان يمنى نفسه بملاقاتها ، والوقوف بين يديها ؛ يمتع نظره برؤيتها ، ويستمع إلى حديثها العذب المشتهى ، وشاء القدر أن يظعن حيهما ، وكان من عادة العرب فى ظعنهم أن يتقدم الرجال ، وتتبعهم النساء ، فتخلف امرؤ القيس عن الرجال ، وتربص يترقب النساء مستخفيا ، حتى ظعن ، فمشى على إثرهن ، وهن لا يشعرن به . وكان فى طريق الظاعنين غدير يسمى

دارة جلجل من منازل كندة بنجد ، فلما ورد العذارى هـذا الغدير نضون عن جسومهن ثيابهن ، ونزلن إلى الماء يستحممن ، وكانت فيهن عنيزة ، فبرز إليهن امرؤ القيس من مكمنه وجمع ثيابهن وجلس عليها ، فلما شعرن به وأدركن مكيدته تضرعن إليه وتلطفن فى المقال معـه لعله يعطيهن ثيابهن ، فأقسم أنه لن يعطي واحدة منهن ثيابهـا حتى تخرج إليه عارية ، فخاصمنه ساعات من النهار ، فأبى إلا إبرارا بقسمه ووفاء بيمينه ، واستمسك بهذا وأصر ، فخرجت إليه أو قحهن فرمى إليها ثيابها ، ثم تتابعن عليه ولم يبق فى الغدير إلا عنيزة معشوقته ، فأقسمت عليه وتوسلت إليه أن يعدل عن شرطه ، فأبى مطاوعتها ، وقال لها : لابد لك من أن تفعلى مثل ما فعلن ، وما زال بها حتى خرجت إليه وهى عارية ، فأبى أن يعطيها ثيابها إلا إذا رآها مقبلة مدبرة ، ففعلت فدفع إليها ثيابها فلبستها ، ثم اجتمعت عليه النسوة ، وأخذن فى عذله وتعنيفه على تلك الفعلة الشنعاء ، وقلن له : لقد جوعتنا وأخرتنا عن الحى ، فقام إلى ناقتـه فعقرها لهن ، وجمعت الإماء الحطب وأوقدن النار ، وطفق النسوة يشوين اللحم ويأكلن إلى أن شبعن ، وكانت مع امرىء القيس ركوة من خمر فسقاهن منها . ولمـا تأهبن للرحيل قسمن أمتعته بينهن فحملنها على رواحلهن ، ولم يكن لعنيزة نصيب من هذا المتاع ، وبقى امرؤ القيس ولا مركب له فقال لعنيزة : لابد لك من أن تحمليني ، وألحت عليها صواحبها أن تحمله على مقدم هودجها ، فحملته مرغمة ، فجعل يدخل رأسه فى الهودج يقبلها ويغازلها ويحادثها أحاديث الهوى والصبابة ، ثم نظم هذه المعلقة ، وذكر فى أثنائها تلك القصة

ومهما يكن من تحدث الرواة عن يوم الغدير وجعله سبباً لتلك المعلقة ، فالباعث الحق على هذه القصيدة هو اللهو والعبث والرغبة فى قول الشعر : لأنها لم تقتصر على النسيب والتشبيب ، بل تناولت عدة فنون وأغراض وذلك معناه أن الباعث على تلك القصيدة إنما هو الرغبة فى الشعر بمختلف فنونه جريا على سنة الشعراء فى أشعارهم

ولا مرية فى أنها من شعر امرىء القيس أيام الشباب،أيام زهوه بخفض العيش وخلو قلبه من هموم الحياة وأثقالها التى أناخت عليه بكلكلها بعد موت أبيه .

والمؤثرات فى تلك القصيدة هى مناظر تلك الأماكن التى رادها ، والمياه التى وردها ، والصحارى التى ضرب فيها ، والجبال التى شاهدها ،حيث الدخول وحومل وتوضح والمقراة ودارة جلجل وبطن خبت ووجرة وظبي ودوار وضارج والعذيب وقطن والستار ويذبل وكتيفة والقنان وتيماء وثبير والمجيمر وصحراء الغبيط ، يدل على ذلك قوله :

قفانبك من ذكر حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

وقوله :ـ

ألا رب يوم لك منهن صالح   ولا سيما يوم بدارة جلجل

وقوله :ـ

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى   بنابطن خبت ذى حقاف عقنقل

وقوله . ـ

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى   بناظرة من وحش وجرة مطفل

وقوله . ـ

وتعطو برخص غير شثن كأنه   أساريع ظبي أو مساويك إسحل

وقوله . ـ

فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وقوله . ـ

فعن لنا سرب كأن نعاجه   عذارى دوار فى ملاء مذيل

وقوله : ـ

قعدت وأصحابى له بين ضارج وبين العذيب بعد ما متأمل
على قطن بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الأذقان دوح الكنهبل
ومر على القنان من نفيانه فأنزل منه العصم من كل منزل
وتيماء لم يترك بها جزع نخلة ولا أطما إلا مشيدا بجندل
كأن ثبيرا فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والغثاء فلكة مغزل
وألقى بصحراء العبيط بعاعه نزول اليمانى ذى العياب المحمل

أما أغراض القصيدة فأربعة : ـ

أولها التشبيب بالنساء من مطلعها إلى أن يقول : ـ

تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواها بمنسل

وثانيها الشكوى ووصف الليل وطوله إلى قوله : ـ

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وثالثها وصف الخيل والصيد إلى قوله : ـ

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حبى مكلل

ورابعها وصف الغيث وسيوله حتى ينتهى إلى قوله : ـ

كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

وقد أطال فى الغرض الأول لأنه شاب ناعم مترف ، أحب شىء إليه النساء ، وأعذب حديث عنده ذكرهن ، فمجال القول له فيهن واسع . وأقل فى الثانى لأن الشكوى من المعانى التى لا يهتم بها مثله فى ذلك الحين لأنه إذ ذاك لا يشعر بشىء ينغص عليه عيشه ويكدر صفوه ، فهو لا يطيل القول فى شىء لا يحسه . وأطال فى الثالث حتى قرب من الأول ، لأن ركوب الخيل عند الفتيان لذة تكاد تعدل حب النساء والهيام بهن ، ولا سيما عند

أمثال امرىء القيس . وأما الغرض الرابع فإنه كان فيه وسطا بين الثـانى والثالث فى الكثرة ، لأنه وإن يكن من ضروب اللذات لما فيه من لهو وطرب إلا أنه فى نفس ذلك الشاعر الفتى لا يعدل حب النساء والخيل ، فلم يبعد الشوط فيه إبعاده فيهما ، على أنه أظهر لنفسه فيه ميزة لا يلحقه فيها شاعر آخر إذ كان كالمصور الماهر أخذ ريشة التصوير ورسم بها على لوحة الخيالة الناطقة ماأوحته إليه شاعريته وأملاه عليه خياله فى وصف تلك الطبيعة . ثم عرضها على سمعك وبصرك معا ، وهو فى وصفه للمرأة والفرس أيضاً فارس لا يلحق غباره .

ومما امتازت به هذه القصيدة أن كلماتها متجانسة متجاذبة ، آخذ بعضها بحجز بعض ، حتى إنك إذا بدأت بأول كلمة فى البيت تتابعت على مسمعك بقية الكلمات قبل أن تكلف لسانك نطقها ، فاعرض أى بيت شئت على سمعك تجد له رنة موسيقية وحلاوة إيقاع ولن تحس إلا ماذكرت لك .

ولقد أظهر امرؤ القيس فى هذه القصيدة نعمة النبلاء ، وترف السادة المالكين كقوله : —

فظل العذارى يرتمين بلحمها   وشحم كهداب الدمقس المفتل

وقوله أيضاً : —

فظل طهاة اللحم ما بين منضج   صفيف شواء أو قدير معجل

ولإعجاب المتأخرين بفاخر تصوير امرىء القيس فى معلقته ، وتقديرهم لجمالها وجلالها ، وتذوقهم لعذوبة ألفاظها وروعة معانيها ، كان بعضهم يضمن أبياتها وأشطارها فى قصائدهم ومن هؤلاء صلاح الدين الصفدى الذى قال يخاطب ابن نباتة المصرى مضمنا بعض المعلقة

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى   (كجلمود صخر حطه السيل من عل)
وترمى على طول المدى متجنيا   (بسهميك فى أعشار قلب مقتل)
فأمسى بليل صاح جنح ظلامه   (على بأنواع الهموم ليبتلى)

وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى (إذا جاش فيه حميه غلى مرجل)
وسالت دموعى من همومى ولوعتى (على النحر حتى بل دمعى محملى)
إذا عاين الإخوان ما بى من الأسى (يقولون لا تهلك أسى وتجمل)
ترفق ولا تجزع على فائت الوفا (وهل عندرسم دارس من معول)
ولى فيـــك ود طالما قد شددته (بأمراس كتان إلى صم جندل)
فكر على جيش الجنـاية عائداً (بمنجرد قيـــد الأوابد هيكل)
تجد خفرات الأنس منها كواعباً (ترائبها مصقولة كالسجنجل)
وخل الجفا وارجع إلى معهد الوفا (وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجمل)
حلا ودك الماضى وإن لم تعد أعد (لدى سمرات الحى ناقف حنظل)

ومنهم أيضاً ابن نباتة المصرى الذى قال يرد على قصيدة صلاح الدين الصفدى :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتباً (أفاطم مهلا بعض هذا التدلل)
بروحى ألفـاظ تعرض عتبها (تعرض أثناء الوشاح المفصل)
فأحييت وداً كان كالرسم عافياً (بسقط اللوى بين الدخول فحومل)
تعفى رياح العـــذر منك رقومه (لما نسجتها من جنوب وشمأل)
نعم قوضت منك المودة وانقضت (فيا عجباً من رحلها المتحمل)
أمولاى لا تسلك من الظلم والجفا (بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل)

ما تمثله القصيدة

من أحوال الاجتماع

أول ما تعطيه القصيدة من أحوال الاجتماع أن الشاعر يشبب فيها بنساء من البدو حياتهن بين الحل والترحال، وسكنى الخيام بين الجبال والآكام على أنهن كن على شيء من النعمة التى نراها فى هذه الأيام من نحو النوم إلى الضحى، ونض الثياب عند النوم إلا لبسة المتفضل، وتعطير الفراش بالروائح العطرة، ويظهر ذلك فى قوله :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وقوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

وأن الملابس عند الأعراب أيام امرىء القيس كانت على شيء من الرقش مثل الذى نراه الآن، يؤخذ ذلك من قوله :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل

فذلك يعطيك أن ثوبها وهو المرط كان مرقشاً بصورة رحال الإبل كما تفعل مناسج أوربا وأمريكا اليوم فى نقش الصور المختلفة على الثياب.

ومن ذلك عادتهم فى الميسر لقوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

ومنها أن نساء العرب كن يضفرن بعض شعورهن ويرسلن بعضه يؤخذ ذلك من قوله :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص فى مثنى ومرسل

وأن الرهبان كانوا أشهر الناس بإيقاد المصابيح وإشعالها، يبين ذلك فى قوله :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل

وقوله :

يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

وأن ألوان النساء الحسان فى تلك الجهات بياض تقانيه صفرة كنساء أهل مصر الوسطى اليوم ، ومن أدواتهن السجنجل ، يؤخذ ذلك من قوله :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

ولعب أطفالهم بالخذروف (لعبة الخيطين والزر) قال :

درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل

والخضاب بالحناء قال :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل

والالتحاف بالملاء قال :

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار فى ملاء مذيل

وتقليد أطفالهم العقود ، ونسائهم الوشح المفصلة بالذهب قال :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقال أيضاً :

فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة مخول

وأنهم كانوا يشوون اللحم على الطريقة المعروفة اليوم (البفتيك) وهو صفيف الشواء فى قوله :

فظل طهاة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل

ولبسهم البجاد وهو العباءة المخططة قال :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

وأن تجار الأقمشة يرتحلون فى بيعها من مكان إلى آخر فى الأحياء والقبائل ، وأن اليمنيين هم الذين اشتهروا بالتجارة يؤخذ ذلك من قوله :

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليمانى ذى العياب المحمل

وأنهم كانوا يعلقون التمائم للأطفال قال :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

وأنهم كانوا يستعملون الحرير قال :

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

وأنهم كانوا يستعملون المغازل يغزلون عليها الخيط قال :

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والغثاء فلكة مغزل

وغير ذلك من الشئون المختلفة والأمور الكثيرة التى يجلوها أدب القصيدة على من يطالعها بإمعان . وإنما جئنا بنموذج فى ذلك على ما اقتضاه نظر التاريخ والأدب .

قصيدة امرىء القيس الثانية

(ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى)

قال ذلك الشاعر التاريخى العظيم :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى — وهل يعمن من كان فى العصر الخالى
وهل يعمن إلا سعيد مخلد — قليل الهموم ما يبيت بأوجال[1]
وهل يعمن من كان أحدث عهده — ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال
ديار لسلمى عافيات بذى الخال — ألح عليها كل أسحم هطال

ثم استمر فى غزله الفاحش وتشبيبه ، وجعل يصف معشوقته ، ويذكر موقفاً من مواقفه معها إلى أن يقول :

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى — ولست بمقلى الخلال ولا قالى

ثم خرج من ذلك إلى ذكر صبوته وفتوته ونبله فقال :

كأنى لم أركب جوداً للذة — ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل — لخيلى كرى كرة بعد إجفال[2]
ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى — على هيكل نهد الجزارة جوال[3]

ثم انتقل من ذلك إلى الصيد ووصف فرسه وتشبيهه بالعقاب فى شدة هويه وسرعة كره فقال :

---

(١) المخلد الذى ابطأ عنه الشيب أو هو الصبى الذى ألبس القرط . والأوجال جمع وجل وهو الخوف

(٢) اسبأ أى اشترى . والروى الذى يروى من شربه .

(٣) المراد بالهيكل الفرس العظيم . ونهد الجزارة أى غليظ عصب القوائم . والجوال السريع فى كره وفره .

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا ... له حجبات مشرفات على الفال[1]
وصم صلاب ما يقين من الوجى ... كأن مكان الردف منه على رال[2]
وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... لغيث من الوسمى رائده خال[3]
تحاماه أطراف الرماح تحامياً ... وجاد عليه كل أسحم هطال[4]
بعجلزة قد أترز الجرى لحمها ... كميت كأنها هراوة منوال[5]
ذعرت به سرباً نقياً جلوده ... وأكرعه وشى البرود من الخال[6]
كأن الصوار إذ يجاهدن غدوة ... على جمد خيل تجول بأجلال[7]
نخر لروقيه وأمضيت مقدما ... طوال القرا والروق أخنس ذيال[8]
فعادى عداء بين ثور ونعجة ... وكان عداء الوحش منى على بالى
كأنى بفتخاء الجناحين لقوة ... صيود من العقبان طأطأت شملالى[9]
تخطف خزان الشربة بالضحى ... وقد حجرت منها ثعالب أورال[10]

---

(١) الشظى عظم لازق بالذراع . عبل الشوى أى غليظ عصب اليدين والرجلين . والشنج المنقبض . والنسا عرق من الفخذ إلى الكعب ومتى كان الفرس شنج النسا لم تسترخ رجلاه وهذا دليل العتق . والحجبات رءوس عظام الوركين . الفال والفائل أيضاً عرق عن يمين عجب الذنب أى أصله وعن يساره .

(٢) المراد بالصم الصلاب حوافر الفرس . ويقين يهين ويتقين . والوجى الحفا أو أشد منه والردف الراكب خلف الراكب والرال فرخ النعام (٣) المراد بالغيث الكلأ على سبيل المجاز والوسمى أول مطر الخريف والرائد الباحث عن الكلأ والخالى الذى يكون فى الخلا

(٤) الأسحم السحاب الأسود والهطال الماطر السيال (٥) العجلزة الفرس الشديدة واترز ايبس والكميت الفرس التى لونها بين السواد والحمرة والهراوة العصا والمنوال خشبة ينسج عليها ويشد عليها الثوب وقت النسيج وإنما خص هراوة المنوال لأنها لا تتخذ إلا من أصلب الخشب وهذا وجه الشبه (٦) الأكرع جمع كراع وهو مستدق الساق والخال ضرب من برود اليمن الموشاة (٧) الصوار هو السرب والقطيع من بقر الوحش والجمد المكان الصلب المرتفع والأجلال جمع جل (٨) الروق القرن وطوال بمعنى طويل والقرى الظهر والأخنس المنخفض قصبة الأنف والذيال طويل القد والذيال المتبختر فى مشيته .

(٩) فتخاء الجناحين عقاب لينة الجناحين طويلتهما واللقوة السريعة التى تختطف كل شىء وصيود أى حاذقة فى الصيد ومنادته طأطأ فرسه أى حزه بفخذيه وحركه والشملال الفرس السريعة

(١٠) الخزان جمع لخزن وهو ذكر الأرنب والشربة موضع وحجرت بالبناء للمجهول أى منعت فلا تخرج من الخوف وأورال موضع

كأن قلوب الطير رطبـــاً ويابساً   لدى وكرها العناب والحشف البالى

ثم ختمها بما يطلبه أمثاله من أبناء الملوك من مجد وسؤدد فقال :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجـــد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه   بمدرك أطراف الخطوب ولا آلى

فهذا الحديث المترقرق فى ماء الحلاوة والرقة فيما يشبه أن يكون قصصاً شعرياً ، وتلك السلاسة والتدفق المعجب ، وهذه الفتوة ولطافة المخالعة ، وذلك الابتكار فى التشبيه ، وهذه اللذات العجيبة التى وصفها فى الركوب والشراب والدبيب والعشق ، هى امرؤ القيس فى حياة صبوته ، وامرؤ القيس فى ذلك الوقت هو هذه الأشياء أو هو ذلك الشعر الذى لم تشهده جزيرة العرب قبل هذا الأمير السادر فى بحبوحة الترف وظلال النعيم والملك .

رأينا فى قصيدة امرىء القيس الثانية

سبق أن قلنا إن هذه القصيدة قالها امرؤ القيس فى طوره الأول وهو فى شبابه قبل مقتل أبيه ، وأنها جاءت بعد المعلقة بشهادة ابن قتيبة ويؤيدنا فى ذلك قوله فيها :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وألا يحسن السر أمثالى

فهو لم يتعرض لذكر الكبر ولا لتعيير النساء له به فى المعلقة وهذا مما يصح اعتباره دليلا على أن هذه القصيدة جاءت بعد المعلقة .

ولقد ذكر بعض المؤرخين كصاحب معاهد التنصيص أن ابنة قيصر أحبت امرأ القيس وأحبها ، وراسلها فأجابته إلى ما سأل ، وذلك حيث يقول لما وصل إليها .

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

والبستانى أورد ذلك أيضاً فى دائرة معارفه ولعله نقله عن معاهد التنصيص أو عن الأنطاكىّ فى تزيين الأسواق وإنى لأعجب من هذا أشد العجب فأين ابنة قيصر فى هذه القصيدة وأين منها فى قوله بعد البيت السابق .

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها بأن الفتى يهذى وليس بفعال

فالمرأة التى يتحدث عنها امرؤ القيس اسمها سلمى وهى ذات بعل فلا شك أنها إحدى خليلاته من نساء الأعراب ويؤيد هذا قوله قبل ذلك .

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

فأهل تلك المعشوقة كانوا حلولا بيثرب وهى المدينة فضلا عن هذا أن ابن قتيبة ذكر أن امرأ القيس قال هذه القصيدة قبل مقتل والده ، أى قبل رحلته إلى قيصر .

فالحق أن أصحاب هذا الرأى مخطئون فى زعمهم أنها قيلت فى ابنة قيصر ،

ولا شك أن هذه القصيدة قالها امرؤ القيس قبل مقتل حجر ، وقبل أن يرحل إلى القسطنطينية ، وقبل أن يتصل بقيصر وابنته كما يزعمون ، والقصيدة فى سياقها من أولها إلى آخرها تنهض حجة لنا وعليهم ، فليس فيها ما يشتم منه رائحة ابنة قيصر ، بل القصيدة فى جملتها وتفصيلها تقطع بفساد هذا الرأى وتنفيه نفياً باتاً .

أما الباعث على تلك القصيدة فهو اللهو العام والعبث والرغبة فى قول الشعر ، والمؤثرات التى ظهرت آثارها فى هذه القصيدة هى عين المؤثرات التى تأثر بها فى المعلقة،لأن الأماكن التى ذكرها هنا فى هذه القصيدة هى من معاهد البلاد التى جاء ذكرها فى المعلقة ، فذو الخال جبل مما يلى نجد من ناحية البحرين ، وكذلك وادى الخزامى من أودية البحرين ، وأوعال هضبة هناك بالقرب منها الدخول وحومل وتوضح والمقراة ، وأيضاً أذرعات بالشام حيث قطن والستار ويذبل ، وكذلك الشربة وأورال فى بلاد غطفان، وكذلك يثرب وهى المدينة من البلاد التى ضرب على أقدامه فيها . ويظهر أثر هذه المعاهد فى قوله :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطال

وفى قوله أيضاً :

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا بوادى الخزامى أو على رأس أوعال

وكذلك فى قوله :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

وفى قوله :

تخطف خزان الشربة بالضحى وقد حجرت منها ثعالب أورال

أما أغراض هذه القصيدة فاثنان

أولهما التشبيب بالنساء إلى أن يقول :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

وثانيهما الصيد ووصف الفرس حتى يقول :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

وبعد ذلك انتهى به القول إلى ما يتطلبه مثله من مجدد وسؤدد .

ودرجة هذه القصيدة من البلاغة على سنته المعروفة من الابتداع وجودة التشبيه من نحو قوله :

إذاما استحمت كان فيض حميمها على متنتيها كالجمان لدى الحالى

وقوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

وقوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

وتمتاز هذه القصيدة بظهور أثرها بيناً فى شعر عمر بن أبى ربيعة فى قصيدته التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

وقد ذكر صاحب كتاب (شرح شواهد الكشاف) شيئاً من غزل قصيدة امرىء القيس ثم علق عليه بعد ذلك بقوله . إنه أورد هذه الأبيات لحلاوة ألفاظها ولطافة فحواها ثم قال إن قصيدة عمر بن أبى ربيعة « أمن آل نعم » مشابهة لقصيدة امرىء القيس بمعناها مشابهة اليوم للأمس ومطابقة لها مطابقة الخمس بالخمس .

وممن تأثر بهذه القصيدة من المتأخرين وأعجب بها ابن عبدون الأندلسى فقد قال مضمناً شطوراً منها فى دار أنزله بها المتوكل بن الأفطس وكان سقفها قديماً فهطل عليه منها المطر .

أيا سامياً من جانبيه إلى العلا (سمو حباب الماء حالا على حال)

لعبدك دار حل فيها كأنها (ديار لسلمى عافيات بذى الخال)

يقول لها لما رأى من دثورها (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى)
فقالت ولم تعبأ برد جوابه (وهل يعمن من كان فى العصر الخالى)
فمر صاحب الإنزال فيها بعاجل (فإن الفتى يهذى وليس بفعال)

وأما أخلاق امرىء القيس فى هذه القصيدة فالتهتك والفجور والفحش بدرجة أشد منه فى المعلقة ، وقد شهد على نفسه بالفجور فيها فقال .

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صال

صفات امرىء القيس وأخلاقه

فى شىء من أخباره وحوادثه

كان امرؤ القيس جميل الوجه ، طلق المحيا ، حسن البزة ، وسيم الخلقة وقد ذكر بعض الرواة أن ابنة قيصر عشقته وعشقها ، لحسنه وجمالها ، حتى أضحى يراسلها ، ويختلس غفلة من أبيها . فتأتيه ويأتيها . قال ذلك ابن قتيبة وصاحب معاهد التنصيص .

ولقد شهد ابن سلام على امرىء القيس بأنه كان عاهراً فاحشاً فى شعره ومسلكه ، قال « كان من الشعراء من يتأله فى جاهليته ويتعفف فى شعره ولا يستهتر بالفواحش ولا يتهكم فى الهجاء ، ومنهم من كان يبغى على نفسه ويتعهر ومنهم امرؤ القيس والأعشى »

وقد وقفنا على شىء من هـذا الفحش وذلك العهر عند دراسة معلقته وقصيدته الثانية « ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى » حتى لقد صور إلينا هذا الشاعر فى شعره امرأة بلغت من الجمال غايته ومن الحسن نهايته ، ثم أبرزها إلينا فى تلك الصورة البارعة الفاتنة تروح علينا وتغدو عارية .

ولقد روى الجاحظ فى البيان والتبيين أن سائلا سأل امرأ القيس : ما أطيب عيش الدنيا ؟ فقال « بيضاء رعبوبة ، بالطيب مشبوبة ، بالشحم مكروبة » ولئن صح ما قاله الرواة عنه يوم الغدير ليكونن هذا أبعد غايات العهر ، وأقصى درجات الفحش ، ويكفى أن يشهد هو على نفسه بالفجور فى قوله :

حلفت لهـا بالله حلفـــة فاجر   لناموا فما إن من حديث ولا صال

وأى قول أفحش من قوله :

فمثلك حبـــلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذى تمائم محول
إذا ما بكى من خلفهـا انصرفت له   بشق وتحتى شقهـا لم يحول

وقوله :

هصرت بفودى رأسها فتمايلت   على هضيم الكشح ريا المخلخل

أو قوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها   سمو حباب الماء حالا على حال

وقوله :

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها   تميل عليه هونة غير مجبال
كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه   بما احتسبا من لين مس وتسهال

وقوله يصف قلف قيصر ، وكان قد دخل معه الحمام فرآه على ما تحدث به الرواة .

إنى حلفت يميناً غير كاذبة   بأنك أقلف إلا ما جنى القمر
فإذا طعنت به مالت عمامته   كما تجمع تحت الفلكة الوبر

أو قوله يصف موقفاً من مواقف صبوته :

يعز عليها ريبتى ويسوءها   بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعا
بعثت إليها والنجوم ضواجع   حذاراً عليها أن تهب فتسمعا
فجاءت قطوف المشى هيابة السرى   يدافع ركناها كواعب أربعا
يزجينها مشى النزيف وقد جرى   صباب الكرى فى مخها فتقطعا
تقول وقد جردتها من ثيابها   كما رعت مكحول المدامع أتلعا
وجدك لو شىء أتانا رسوله   سواك ولكن لم نجدلك مدفعا
تصد عن المأثور بينى وبينها   وتدنى على السابرى المضلعا
إذا أخذتها هزة الروع أمسكت   بمنكب مقدام على الهول أروعا

وما أجمل تصويره للمرأة فى قوله :

وإذ هى تمشى كمشى النزيف   يصرعه بالكثيب البهر
برهرهة رودة رخصة   كخرعوبة البانة المنفطر
فتور القيام قطيع الكلام   تفتر عن ذى غروب خصر

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر

وامرؤ القيس وإن كان وسيما جميلا فاحشاً عاهراً ، يشبب بالنساء ، ويعبث بهن ، إلا أنه كان مفركا ، فقد روى الميدانى عن المفضل الضبي أن امرأ القيس ابن حجر الكندى كان رجلا مفركا لا تحبه النساء ، ولا تكاد امرأة تصبر معه ، فتزوج امرأة من طيء فابتنى بها فأبغضتــه من تحت ليلتها ، وكرهت مكانها معه ، فجعلت تقول ياخير الفتيان أصبحت أصبحت أصبحت ! .. فيرفع رأسه فينظر فإذا الليل كما هو ، فتقول المرأة أصبح ليــل . فلما أصبح قال لها : قد علمت ما صنعت الليلة ، وقد عرفت أن ما صنعت كان من كراهية مكانى فى نفسك ، فماذا كرهت منى ؟ فقالت ما كرهتك ، فلم يزل بها حتى قالت كرهت منك أنك خفيف العجز ، ثقيل الصدر ، سريع الإراقة ، بطيء الإفاقة . فلما سمع ذلك منها طلقها وذهب قولها « أصبح ليل » مثلا يضرب فى الليلة الشديدة التى يطول فيها الشر .

وفى نزهة ذوى الكيس والموشح أن تلك المرأة هى أم جندب زوجة امرىء القيس الطائية ، وأنه لم يطلقها بعد أن أبانت له ما كرهته منه ، وأنها لم تزل عنده حتى أتاه علقمة بن عبدة فتذاكرا الشعر عندها ، فقال هذا أنا أشعر ، وقال هذا أنا أشعر ، ثم تحاكما إليها فقالت لهما : قولا شعراً على روى واحد وقافية واحدة يصف فيه كل منكما فرسه ، وينعت الصيد ، فقال امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

خليــلى مرابى على أم جندب لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة قصيدته التى مطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

فقالت المرأة لامرىء القيس : علقمة أشعر منك ، لأنك زجرت فرسك وحركته بساقك ، وضربته بسوطك ، ورأيت علقمة أدرك الصيد ثانياً

من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب . فغضب عليها امرؤ القيس ، وقال لها : ليس كما قلت ، ولكنك هويته ، ثم طلقها فتزوجها علقمة بعد ذلك ، وقد جاء فى بعض الأقوال ، أنه سمى علقمة الفحل لهذا .

وسأل امرؤ القيس مرة إحدى نسائه عما يكره النساء منه ، فقالت : إنك إذا عرقت فحت بريح كلب ، فقال : أنت صدقتنى، إن أهلى أرضعونى لبن كلب ، ولم تصبر عليه من زوجاته إلا امرأته من كندة ، وكان أكثر ولده منها .

أما ذكاء هذا الشاعر وحدة خاطره وسرعة بديهته ، فنحن نقف على ذلك فى شعره ، وفيما ذكره الرواة ، فقد قص علينا على بن ظافر (صاحب كتاب بدائع البداية) فى أنبائه قصة ذكرها غيره أيضاً كصاحب شعراء النصرانية واحتج بها الأستاذ (أحمد أمين) فى كتابه فجر الإسلام على ما كان عند أعراب الجاهلية من الألغاز والأحاجى التى استعملوا فيها الشعر . ولئن صحت تلك القصة وصدق على ومن تابعه فإنها تنشر بين أيدينا صحيفة من ذكاء هذا الشاعر الخالد . انظر إليه وقد أقبل عليه عبيد بن الأبرص يسأله مامعرفتك بالأوابد ؟ فقال : قل ما شئت تجدنى كما أحببت ، فأخذ عبيد يلقى عليه ألغازاً فى أبيات من الشعر ، وأمرؤ القيس يحل تلك الألغاز على البديهة فى شعر أيضاً ، وتلك مقدرة فائقة وذكاء متوقد نعهدهما فى فتى كندة

قال عبيد :

ما حية ميتة قامت بميتها   درداء ما أنبتت سناً وأضراسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تسقى فى سنابلها   فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة   لا يستطيع لهن الناس تمساسا

فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها روى بها من محول الأرض أيباسا

فقال عبيد :

ما مرتجات على هول مراكبها يقطعن طول المدى سيراً وأمراسا

فقال امرؤ القيس :

تلك النجوم إذا حانت مطالعها شبهتها فى سواد الليل أقباسا

فقال عبيد :

ما القاطعات لأرض لا أنيس بها تأتى سراعا وما يرجعن أنكاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الرياح إذا هبت عواصفها كفى بأذيالها للترب كناسا

فقال عبيد :

ما الفاجعات جهاراً فى علانية أشـد من فيلق مملوءة باسا

فقال امرؤ القيس :

تلك المنايا فما يبقين من أحد يكفتن حمقى وما يبقين أكياسا

فقال عبيد :

ما السابقات سراع الطير فى مهل لا يشتكين ولو طال المدى باسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الجياد عليها القوم قد سبحوا كانوا لهن غداة الروع أحلاسا

فقال عبيد :

ما القاطعات لأرض الجو فى طلق قبل الصباح وما يسرين قرطاسا

فقال امرؤ القيس ،

تلك الأمانى يتركن الفتى ملكا دون السماء ولم ترفع له راسا

فقال عبيد :

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يعجب الناسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أنزلها   رب البرية بين الناس مقياسا

وقد روى صاحب الأغانى عن محمد بن القاسم حديث الحق لا حديث الباطل كما يقول ، فقال :

إن امرأ القيس آلى بألية ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين ، فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا ، قلن أربعة عشر ، فبينما هو يسير فى جوف الليل إذ هو برجل معه ابنة له كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فقال لها يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنتان ، فقالت أما الثمانية فأطباء الكلبة ، وأما الأربعة فأخلاف الناقة ، وأما ثنتان فثديا المرأة ، فخطبها إلى أبيها فزوجه إياها ، وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك ، وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل وعشرة أعبد وعشر وصائف وثلاثة أفراس ، فقبل ذلك ، ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة وأهدى إليها نحياً من سمن ونحياً من عسل وحلة من قصب ، فنزل العبد ببعض المياه فنشر الحلة ولبسها ، فتعلقت بشعره فانشقت ، وفتح النحيين فأطعم أهل الماء منهما فنقصا ، ثم قدم على حى المرأة وهم خلوف ، فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديتها ، فقالت له : أعلم مولاك أن أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً ، وأن أمى ذهبت تشق النفس نفسين ، وأن أخى يراعى الشمس ، وأن سماءكم انشقت ، وأن وعاءيكم نضبا ، فقدم الغلام على مولاه فأخبره ، فقال امرؤ القيس أما قولها إن أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً فإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه ، وأما قولها ذهبت أمى تشق النفس نفسين فإن أمها ذهبت تقبل امرأة نفساء ، وأما قولها إن أخى يراعى الشمس فإن أخاها فى سرح له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به ، وأما قولها إن سماءكم انشقت فإن البرد الذى بعثت به انشق ، وأما قولها إن وعاءيكم نضبا فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا ، فاصدقنى ا ..

فقال يا مولاى إنى نزلت بماء من مياه العرب فسألونى عن نسبى فأخبرتهم أنى ابن عمك ، ونشرت الحلة فانشقت ، وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل الماء . فقال : أولى لك . ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام ، فنزلا منزلا فخرج الغلام يسقى الإبل فعجز ، فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام فى البئر ، وخرج حتى أتى حى المرأة بالإبل وأخبرهم أنه زوجها ، فقيل لها قد جاء زوجك ، فقالت والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ انحـــروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذنبها ، ففعلوا وأكل ، فقالت : اسقوه لبناً حازراً وهو الحامض ، فسقوه فشرب ، فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ، ففرشوا له فنام ، فلما أصبحت أرسلت إليه إنى أريد أن أسألك ، فقال سلى عما شئت . فقالت مم تختلج شفتــاك ؟ قال لتقبيلى إياك . قالت فمم تختلج كشحاك ؟ قال لالتزامى إياك . قالت فمم يختلج فخذاك ؟ قال لتوركى إياك . قالت عليكم بالعبــــد فشدوا أيديكم به ففعلوا . ومر قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر ، فرجع إلى حيه فاستاق مائة من الإبل ، وأقبـل إلى امرأته ، فقيل لها قد جاء زوجك . فقالت والله ما أدرى أهو زوجى أم لا ؟ ولـكن انحروا له جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا ، فلما أتوه بذلك أبى أن يأكل ، وقال وأين الـكبد والسنام والملحاء ؟ فقالت أسقوه لبناً حازرا فأبى أن يشربه ، وقال فأين الصريف والرثيئة . فقالت افرشوا له عند الفرث والدم فأبى أن ينام ، وقال افرشوا لى فوق التلعة الحمراء واضربوا لى عليها خباء . ثم أرسلت إليه هلم شريطتى عليك فى المسائل الثلاث فقال لها سلى عما شئت ، فقالت له مم تختلج شفتاك ؟ قال لشربى المشعشعات ، قالت مم تختلج كشحاك ؟ قال للبسى الحبرات . قالت فمم يختلج فخذاك قال لركضى المطيات . قالت هـذا زوجى لعمرى ، فعليكم به واقتـلوا العبد ، فقتلوه ، وتزوج امرؤ القيس بالمرأة .

ونحن وإن كنا نأخذ بالحيطة فى شأن هذه القصة فلا ندعيها حديث الحق لا حديث الباطل ، إلا أنه قد يكون لها نصيب من الصحة فى جملتها لا فى

تفصيلها ، وهى إن صحت — وهذا ما نشك فيه — تدل على أن امرأ القيس ينشد فى زوجته وشريكة حياته الجمال والذكاء ، كما يبدو فى خلالها أيضاً ذكاء ذلك الشاعر حين فهم المراد من رسالة خطيبته مع مولاه وخادمه ، ونلمح فيها أيضا شممه ونبله حين عاف أن يأكل الكرش والذنب ويشرب حازر اللبن وينام على الفرث والدم ، وأبى إلا أن يكون الكبد والسنام والملحاء له طعاماً والصريف والرثيئة له شراباً ، ولم ينم إلا على فراش فوق التلعة الحمراء وقد ضرب عليها خباء . ونقف أيضاً على نبله وعزه عند ما أخذت زوجته تلقى عليه مسائلها ، وهو يجيبها بشرب المشعشعات ولبس الحبرات وركض المطيات ، على حين غيره جعل نفسه فحلا ينازع على الإبل تختلج شفتاه من تقبيلها وكشحاه من التزامها وفخذاه من توركها .

وليس أدل على شجاعة امرىء القيس وإقدامه من تلقيه لنعى أبيه بجأش رابط ، وقلب ثابت لم يعرف إليه الجزع سبيلا ، ثم إيلائه على نفسه بعد ذلك أن لا سكر ولا خمر ولا لهو ولا طرب حتى يثأر بأبيه من بنى أسد ، وهب إليهم فأنهل سيفه من دمائهم وأعله ، وصاح فيهم صيحة قذفت عاليهم على سافلهم .

يطعنهم سلكى ومخلوجة كرك لأمين على نابل

بعد ذلك أباح لنفسه ما كان منع ، فقال :

حلت لى الخمر وكنت امرأ عن شربها فى شغل شاغل
فاليوم أسقى غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

وكان امرؤ القيس شديد الظنة فى شعره ، كثير المنازعة لأهله ، مدلا فيه بنفسه ، محباً للظهور على أقرانه ، كارها أن ينتصر عليه غيره ، قابل التوأم اليشكرى ، فقال له : إن كنت شاعراً فأجز أنصاف ما أقول ، فقال التوأم : قل ما شئت .

فقال امرؤ القيس : أصاح ترى بريقا هب وهنا

فقال التوأم : كنار مجوس تستعر استعارا
فقال امرؤ القيس : أرقت له ونام أبو شريح
فقال التوأم : إذا ما قلت قد هدأ استطارا
فقال امرؤ القيس : كأن هزيمه بوراء غيب
فقال التوأم : عشار ولهٌ لاقت عشارا
فقال امرؤ القيس : فلما أن علا كنفى أضاخ
فقال التوأم : وهت أعجاز ريقه فحارا
فقال امرؤ القيس : فلم يترك بذات السر ظبيا
فقال التوأم : ولم يترك بجلهتها حمارا

وتلك الحكاية رواها أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء ، وقد ذكر أن امرأ القيس لما رأى مماتنة التوأم له آلى على نفسه ألا ينازع أحداً بعده .

ولو نظرنا إلى الكلامين كما يقول ابن رشيق فى عمدته لوجدنا التوأم أشعر فى شعرهما هذا ، لأن امرأ القيس مبتدىء ما شاء هو فى فسحة مما أراد والتوأم محكوم عليه بأول البيت مضطر فى القافية التى عليها مدارهما جميعا ، ومن هنا والله أعلم عرف له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف .

عقيدة امرىء القيس الدينية

قبل أن نأخذ فى دراسة عقيدة امرىء القيس نلم بشىء من بيئته الدينية ونذكر فى حدود الإيجاز ما كانت عليـــه ديانات العرب فى ذلك العصر الجاهلى . فقد كانت عقيدتهم واهنة ، ودينهم شتى ، ونحلهم مختلفة ، ومذاهبهم متباينة ، فجاء الإسلام والنزعات الدينية لديهم ترجع إلى ثلاثة أصول كان لها الأثر الأكبر فى نظمهم الاجتماعيـة ، وحياتهم العقلية ، وفى أخلاقهم وعاداتهم وهذه الأصول الثلاثة هى: اليهودية والنصرانية والوثنية ، والأخيرة كانت الدين الغالب إذ ذاك ، حتى عم انتشارها جل أصقاع الجزيرة العربية .

فالعرب القدامى منهم الصابئة عبـدة الـكواكب والأجرام السماوية . ومنهم عبدة الأوثان والأصنام ، ومنهم عبدة الملائكة والجن . . . فالشمس معبودة حمير ، والقمر والدبران إلاها كنانة ، والمشترى إله لخم وجذام ، وسهيل إله طىء ، وعطارد إله أسد ، واللات إله ثقيف ، ومنـاة إله هذيل وقضاعة ، وود إله بنى كلب . وغير ذلك من الـكواكب والأصنام التى اختصت بعبادتها قبائل بأعيانها . وإنه ليطول بنا القول إن نحن أسندنا إلى كل قبيلة إلاهها وتقصينا جميع أسماء تلك الآلهة ، وعلى الجمـلة فقد جعلت العرب آلهة فى الشمس والقمر والشعرى والثريا والجوزاء والجدى والحمل والدبران وسهيل والمشترى والعيوق وعطارد ... ومن أصنامهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى ومناة والهبل الأكبر وأساف ونائلة وغيرها مما ورد ذكره فى كتاب الأصنام

وقد شابت وثنية العرب عقيدة التثليث التى كانت منتشرة لدى كثير من الشعوب فى العصور القديمة ، ومن قبل أن يعرف العرب عبادة الأصنام . ففى الـكعبة كان هبل وإلى جانبيه أساف ونائلة ، كما قرنوا فى التقديس اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى .... وفى اجتماع أمثال هـذه الأقانيم الثلاثة

تقليد ومحاكاة لثالوث قدماء المصريين : إيزيس وأوزيريس وحورس . وثالوث الهند كريشنا وسيفا وفيشنو . وشبيـــه بذلك ثالوث النصرانية الآب والابن وروح القدس . . .

وقد كان فى الكعبة تمثالان لإبراهيم الخليل وولده إسماعيل ، وكل منهما قابض على نبال الكهانة ومعرفة المستقبل .

ومن الشعائر الدينية للعرب الجاهليين القرابين يذبحونها على النصب ويتزلفون بها إلى أصنامهم وآلهتهم . وكانوا يحجون ويعتمرون ، ويحرمون ويطوفون ، ويسعون بين الصفا والمروة ملبين، إلا أن كثيرا منهم كان يشرك فى تلبيته ، وكانوا يقفون مواقف الحج كلها ، ويهدون الهدايا ، ويرمون الجمار ، ويعظمون الأشهر الحرم ، فلا يكون فيها عدوان ولا قتال، إلا قبائل طيء وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب فإنهم ما كانوا يحرمون ولا يعتمرون ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام .

ويقال إن عمرو بن لحىّ هو أول من أدخل عبادة الأصنام إلى بلاد العرب وإنه أتى بها من البلقاء حين خروجه إلى الشام فى بعض شأنه[١]

أما اليهودية فشعائرها وتعاليمها تستمد من التوراة وأشعار العهد القديم والتلمود وبقية الإسرائيليات ، وقد دخلت تلك الديانة بلاد العرب لقربها من فلسطين مهد هذا الدين ، وأيضاً لأن اليهود طالما نزحوا إلى بلاد العرب مما يلى بلادهم ، إما فراراً من القتل ، وإما التماسا للرزق ، وقد سكن كثير منهم بلاد العرب ، فانتشر دينهم ، حتى بلغ بلاد اليمن فى أيام ذى نواس الحميرى ، وفى السيرة لابن هشام أن اليهودية دخلت بلاد اليمن على عهد تبع ، وأن بعض القبائل العربية فى غير هذا الإقليم قد عرفت هذا الدين قبل عهد تبع .

---

(١) عمرو بن لحى من ربيعة بن حارثة ، كان ملكا على مكة حقبة من الزمن ، وكان أول من نصب الأصنام حول الكعبة ، وجاء بهبل الأكبر من « هيت » بأرض الجزيرة فيما بين دجلة والفرات ، وجعله فى الكعبة وعنده سبعة قداح . وبذلك غض عن دين الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، وصرف العرب عنها إلى الوثنية وعبادة الأصنام والاستقسام عندها بالأزلام .

والنصرانية مرجعها الأناجيل ورسائل الحواريين ، والمهد الأول لهذا الدين بلاد فلسطين المتاخمة للجزيرة العربية ولذلك نرى أن المسيحية تدخل بلاد العرب ، وفوق ما تقدم — على ما يقولون — فإن القديس توما كان أول من بشر بها فى بلاد اليمن ، كما بشر بها بولس الرسول فى أطراف الشام وما تاخمها فاعتنقها كثيرون من عرب الحيرة وغسان وكندة وغيرهم ، وفى سيرة ابن هشام أن أول من بشر بهذا الدين فى نجران من بلاد العرب فيميون وحواريه عبـــد الله بن الثامر ، ولما اضطهد النصارى فى القرنين الثالث والرابع فى مختلف الأقطار التى ناوأت المسيحية هاجر فريق منهم إلى بلاد العرب ، وأقاموا فيها .

وقد قال أستاذنا الدكتور « العنانى » فى محاضراته عن تاريخ الفلسفة العربية « إنه ليس فى شعائر الإسرائليين والمسيحيين ولا فى كتبهم شىء من مجهود العقل العربى بخلاف الوثنية العربية فإن أساطيرها وليدة الفكر العربى وإن كان فى أصل نشأة الكثير منها عامل النقل والتقليد » .

والعقائد الوثنية العربية غير محكمة التأسيس ، وغير قائمة على نظريات عقلية واضحة أو معتقدات عامة شاملة ، فقد اختلفت وجهة نظرها فى المبدأ الأول أو الخالق ، فتارة ترتكز على أساس من التوحيد وتقول بإله واحد هو الأكبر وأن الآلهة الآخرين ليسوا سوى وسيلة يتوسل بها إليه ، وأن عبادتها لا يقصد بها سوى التقرب من ذلك الواحد الأحد والزلفى إليه ، وطوراً وهو الشائع تخص كل إله بنفوذه الخاص ، وتطلب عبادته لذاته ، وهى مع ذلك فى حالة اضطراب فى أمر المعـــاد ، فتراها أحياناً دهرية لا يهلكها إلا الدهر ، وليس النشر عندها بعد الموت سوى حديث خرافة ، كما نراها فى مواطن متعددة تؤمن بالبعث والنشور والثواب والعقاب .

وكما أن الوثنية كانت غير قائمة على نظريات عقلية واضحة كانت أيضاً غير مهذبة النواحى والتكوين العام ، لهـذا لم تصل إلى تكوين ديانة راقية

نوعا ما تهذب النفوس ، وتؤثر فى تحديد نظم الاجتماع شأن الوثنيات الأخرى لدى قدماء المصريين والجرمان واليونان والرومان ، وكان من جراء ذلك أن بقيت القبائل العربية بدوية فى حياتها الاجتماعية ، محافظة على أخلاقها وعاداتها المكتسبة من طبيعة البلاد ، معتزة بمجد القدماء وشرف القبيلة ، جانحة للغزو والسلب وسفك الدماء لأوهى الأسباب .

وقد كانت مقاليد الوثنية العربية وأزمة أساطيرها بيد الكهنة والعرافين فكان العرب يعتقدون فى الكاهن أنه قديسهم الدينى ، وقدوتهم الصالحة ، وعالمهم الحكيم الذى يرجع إليه فى أمر الخصومات وتحديد المعاملات ، وهو طبيبهم القادر على شفائهم ، فكانوا يتلقون عنه أصول الشريعة وقواعد الدين ، ويستفتونه فى كل ما يشكل عليهم ، ويستنبئونه عن مستقبلهم ، وهم فى ذلك يؤمنون إيماناً صادقاً بكل ما يقول ، لأن قوله عندهم غيب ووحى حق وصل إليه عن طريق الأرواح المشرقة على أسرار الطبيعة والتى تظهر أحياناً فى الأصنام . وكانت للكهانة عند العرب لغة خاصة تمتاز بنوع من السجع الغريب المؤثر ، وتعرف بالغموض والتعقيد لتكون صالحة لكل ما سيحدث وقادرة على صدق الدعوى بأن ما حدث إنما هو ما تنبأت به وأشارت إليه

وقد اشتهر فى العرب عدد كبير من الكهان ، كشق وسطيح وخنافر الحميرى وسواد بن قارب الدوسى . ومن الكهان من كان ينسب إلى قبيلته أو بلده ككاهن قريش وكاهن حضرموت ، وشاع ذلك على الخصوص فى العرافين كالأبلق السعدى عراف نجد ورباح بن عجلة عراف اليمامة ، فقد ذكرهما عروة بن حزام بدون اسم فى قصيدته التى مطلعها :

خليلى من عليا هلال بن عامر بصنعاء عوجا اليوم وانتظرانى

حيث يقول :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى

وأيضاً نبغ فى الكهانة والعرافة عند العرب عدد كثير من النساء ككاهنة اليمن التى أنذرت بخراب سد مأرب ومجىء سيل العرم ، وزبراء وسليمى الحميرية وفاطمة الخثعمية وزرقاء اليمامـــة وغيرهن من ذوات التجلة والاحترام

وعلى حاشية هذه الأديان الثلاثة ساق القدر إلى الجزيرة العربيـة ديناً طفيلياً لم يلق من العرب رواجا ، ولم يجد منهم نفوساً تصلح لنمائه وانتشاره، ذلك الدين هو دين الزندقة ومهـده الأول بلاد الفرس ، ويعرف بدين المزدكية نسبة إلى الزنديق مزدك ذلك الرجل الفارسى الذى وجد على عهد قباذ ، وانتحل هذا الدين ، وذهب فيه إلى إباحـة الأموال والنساء والمتاع وجعل الناس شركة فيها ، فهو دين إباحى اشتراكى : وقد قدمنا عند كلامنا على (أسرة امرىء القيس) أن كسرى قباذ تعصب لمزدك ، ودعا الناس إلى اعتناق مذهبه ، وحمل رجاله على التشيع له ، راجياً أن يستولى بذلك على ما فى أيدى رعيته من الأموال والمتاع ، وكان ممن شايعه من العرب الحارث الـكندى جد امرىء القيس وملك كندة ، فحمل هذا الدين إلى البلاد العربية لا مقتنعاً به ولا راضياً عنه ولـكن لأمور سياسية وشهوات خاصة ، بسبب ما كان بينه وبين المنذر ملك الحيرة الذى حاق به مكر قباذ وشرده فى البلاد حين أزور عن دين مزدك ونأى بجانبه ولم يتشيع لمبادئه .

على أن هذا الدين لم يكد يتجاوز عتـــبة الجزيرة العربية ويخطو فيها خطوة يسيرة حتى نـكص على عقبيه ، وارتد خائباً مدحوراً ، فقد فعلت فيه السياسة أفاعيلها ، فقضت عليه وهو فى مهده ، فإن قباذ أكبر أشياع المزدكية أدركته منيته ، وجلس بعده على عرش الـكسروية ابنه أنو شروان ، وكان ساخطاً على هذا الدين وصاحبه وأشياعه ، فكان نصيب قباذ القتل مع طائفة كبيرة من المزدكيين ، وكان نصيب الحارث الـكندى التشرد فى البلاد .

* * *

ولنسرع إلى القول فى عقيدة امرىء القيس الدينية بعد أن أخذنا بيدك وتخطينا بك القرون ، ثم طوفنا بك فى أنحاء الجزيرة العربية ، وأوقفناك على ما كان فيها من نحل ومذاهب ، وأهواء وعقائد . فما هو دين امرىء القيس بين ذلك يا ترى ؟ أكان على النصرانية أم دان بالمزدكية أم اعتنق الوثنية أم انتمى إلى اليهودية ؟

أما تهود ذلك الشاعر العظيم فلم يقل به أحد ، ولم يقم عليه دليل ، فلم يبق إلا أن يكون نصرانيا أو مزدكيا أو وثنيا ، آراء ثلاثة قال بها الباحثون ، ولكل حجة يدلى بها ودليل يستند إليه ويعتمد عليه .

فأما أصحاب وثنيته فإنهم يستندون إلى تسميته وإلى حادثة من حوادثه ، قالوا إن اسمه امرؤ القيس ، وقيس صنم من أصنام الجاهلية ، فيكون المعنى إنسان القيس أو عبد القيس كما يقال عبداللات وعبد العزى ،وفى هذا ـ على زعمهم ـ دلالة على وثنية هذا الشاعر . ومن أدلتهم أيضاً ما رواه صاحب الأغانى وغيره من أن امرأ القيس حين خروجه لغزو بنى أسد مر بتبالة وفيها صنم تعظمه العرب يقال له ذو الخلصة ، فاستقسم عنه بقداحه الثلاثة الآمر والناهى والمتربص ، قالوا : ولو لم يكن امرؤ القيس وثنيا لما استقسم بهذه القداح عند ذلك الصنم .

وذانك برهانان مردودان فإن « قيسا » وإن كان من أسماء أصنام عرب الجاهلية إلا أنه جاء فى القاموس واللسان والتاج وغيرها من معاجم اللغة أن (القيس الشدة ومنه امرؤ القيس أى رجل الشدة) وورد فى أشعار العرب أيضاً لفظة قيس بمعنى الشدة قال الشاعر :

وأنت على الأعداء قيس ونجدة　　　وللطارق العافى هشام ونوفل

وعلى ذلك يكون معنى امرىء القيس أو عبد القيس عبد الشدة كما يقال عبد الجبار وعبد القوى وعبد الحق وعبد المتين وغير ذلك من أسماء المعانى التى تصدق على الله سبحانه وتعالى ويضاف إليها كلمة عبد ، ولهذا جوز

الأصمعي أن يقول فى روايته المعلقة (يا امرأ الله فانزل) بدل (يا امرأ القيس فانزل) لأن المعنى فى نظره واحد ، ولولا ذلك لما اختار الأصمعى تلك الرواية التى تمنع اللبس . وتفرق بين قيس الصنم وقيس بمعنى الشدة . على أننا لو سلمنا أن المراد من القيس الصنم فإن ذلك لا ينهض حجة على وثنية هذا الشاعر ، لأن استنباط الديانات من الأسماء قد لا يكون له قيمة ولا يوصل إلى نتيجة ، فإننا نرى بين المسلمين الآن من يتسمى بعبد الرسول فهل معنى ذلك أنه يعبد الرسول ولا يعبد الله . وقد نجد أسماء مشتركة بين المسلمين والنصارى واليهود كإبراهيم وموسى فلم لا يكون الأمر كذلك فى الجاهلية ؟ ولقد تسمى جد النبي عليه الصلاة والسلام فى الجاهلية بعبد المطلب ومع ذلك فهو لم يكن يعبد عمه المطلب بن عبد مناف القرشي ولا سولت له نفسه ذلك ولا جال بخاطره شىء من هذا . وفضلا عن كل ذلك فإن لامرىء القيس عمّا اسمه عبد الله وفى ذلك كله ما يقرع توهمهم ويسقط دليلهم .

أما عن دليلهم الثانى فيكفى لإبطال زعمهم أن امرأ القيس لما أجال القداح ثلاث مرات وخرج له الناهى فى كل مرة جمعها وحطمها ثم قذف بها فى وجه الصنم ، وقال له « مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقتنى » فلو كان امرؤ القيس ممن يعبد الأصنام ويعظمها لما ألقى بالقداح فى وجه الصنم ولا سبه ذلك السباب المقذع .

أما استقسامه بالقداح فإنه فعل ذلك أخذا بعادات الجاهلية ، ومثل تلك العادة شائعة الآن بين كثير من الأمم الراقية ذات الأديان السماوية .

أما عن الرأى الثانى وهو مزدكية امرىء القيس فزعيمه « الأب أنستاس الكرملي » الذى ذهب فى مجلة المشرق إلى أن امرأ القيس كان على دين مزدك ، واستند فى ذلك إلى ما وقع لهذا الشاعر مع النساء من تطليق وزواج وما ارتكبه من الفواحش ، وإلى أن المزدكية كانت تستحل كل منكر سوى القتل وبعض أمور لا يؤبه لها ، وأورد قول ابن النديم فى الفهرس

بأن مزدك زعيمهم أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشراب والمؤانسة والاختلاط ، وترك الاعتداء بعضهم على بعض ، ولهم مشاركة فى الحرم والأهل ، لا يمنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه . وقال بعدذلك أنستاس إن المزدكيين مراءون فى دينهم فهم يوافقون كل من يصادفهم بدون أن يبينوا له ماهية دينهم ، ولكونهم كانوا مبغضين من الجميع لم يدع امرؤ القيس فى أشعاره ما يشتم منه رائحة مذهبه ، وجعل أنستاس أكبر دليل له على مزدكية امرىء القيس أن جده الحارث اعتنقها أيام كسرى قباذ ولم يذكر عن امرىء القيس ولا عن أبيه ما يشعر بأن واحداً منهما ترك دين الحارث وتمسك بأهداب دين آخر .

كلام وجيه ولكنه غير خالص فى الحق والرد عليه أوجه ومناقضته ألذ وأعذب ، فإن استناد أنستاس إلى سيرة امرىء القيس وأعماله تلك السيرة التى لا يستحلها دين مستقيم ليس كافياً للدلالة على مزدكية ذلك الشاعر ، وإلا صح أن نقول إن أبا نواس ومن على شاكلته من شعراء المجون فى الجاهلية والإسلام كانوا على دين مزدك ، ثم إن مزدك على مارواه الطبرى والشهرستانى وابن الأثير وغيرهم كان ينهى عن قتل الحيوان زعماً منه أن ذلك من الكبائر ، وأن الاقتيات لا يجوز إلا من النبات ، ولكن امرأ القيس كان على غير ذلك ، فلقد كان صائدا ماهراً نصف ديوانه فى وصف خروجه لصيد الأوابد وقنص الوحوش وتعاطى لحومها . أما عن إفراط امرىء القيس فى الزواج فإنه فعل ذلك جرياً على عادة العرب فى الزواج بأكثر من زوجة ؛ وكذلك تابع العرب فى استباحة الطلاق وليس فى ذلك حجة على من يقول بنصرانية امرىء القيس فإن بعض فرق النصارى تبيح الطلاق والزواج مراراً .

أما عن مزدكية جده الحارث فإنا نعلم أنه اعتنقها على عهد قباذ وبعد أن شب ونشأ على دينه القديم ، اعتنقها لأغراض سياسية حتى يستولى على

الحيرة وينزل عن سريرها منافسه المنذر ، وكان سبيله إلى ذلك أن يشايع قباذعلى ما يبتغيه ، والغاية تبرر الواسطة ، على أن بعض المؤرخين ذكر أن قباذ نفسه لم يعتنق هذا المذهب إلا لأغراض سياسية وأطماع قامت بنفسه ، وهى أن يصل إلى ما فى أيدى رعيته وأتباعه من الأموال والمتاع ، فقد كان أعيان الفرس وأشرافهم يحرزون أموالا كثيرة وعقارات كبيرة القيمة ، فأراد قباذ أن يستعين بهذا المذهب على مشاركتهم ، فانتحله وتعصب لصاحبه ، فقباذ اعتنق هذا المذهب لأغراضه وشهواته ، وتابعه عليه الحارث الكندى لأغراضه وشهواته أيضاً ، فإذا زال السبب زال المسبب فإن قباذ قد توفى وتولى بعده أنو شروان ، وعاد المنذر إلى عرشه على الحيرة وشرد الحارث فى البلاد فلم يعد فى حاجة أن يظهر بمظهر دينى يخالف عقيدته الأولى التى نشأ عليها آباؤه منذ الطفولة ، فلا بد أنه قد ارعوى عن ضلاله ، ورجع عن غواياته ، أما غضب أنوشروان عليه فما كان إلا انتصارا وتعصباً للمنذر الذى أحبه أنوشروان حباً جماً ، وأيضاً لما كان قد أضمره من بغض شديد للحارث منذ كان على عهد والده الذى كان أنو شروان ساخطاً على مسلكه ومسلك من كان من أعوانه وشيعته ، وما نسى أنوشروان حادثة مزدك مع أمه ويوم أن قبل الأرض بين يدى ذلك الزنديق الفاحش .

ومهما يكن من شىء فإن الحارث كان وقت اعتناقه للمزدكية ملكا على كندة والحيرة ، وابنه كان بمنآة عنه ، فقد كان ملكا على بنى أسد وملحقاتها ، وإنه ما كان لحجر ولا لامرىء القيس غرض يبتغيانه من وراء اعتناق هذا المذهب الذى شهد عليه أنستاس نفسه بأنه كان مبغضا من الجميع ، ولذلك فنفسهما لا تحدثهما يوماً من الأيام باعتناق مبادئه ، ولقد كان الحارث نفسه مرائياً فى عقيدته التى ظهر بها أمام قباذ لأنه حاكم مسلط ، والناس على دين ملوكهم والسياسى الحازم من لبس لكل حالة لبوسها .

ثم إننا نعلم تلك الحروب الطاحنة التى أثارها امرؤ القيس مطالباً بثأر

أبيه ، ونعلم أيضاً تلك المواقع الحربية التي كانت بين عميه سلمة وشرحبيل والتي قتل فيها كثير من الأنفس وانجلت عن قتل سلمة وشرحبيل ، مع أن المزدكية تحرم القتل والحرب فقد قال الشهرستاني فى الملل والنحل «كان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها ، ذلك مذهب مزدك الاجتماعى الذى يحرم القتل وسفك الدماء فأين أثر ذلك الدين فى نفس امرىء القيس وفى نفس عمومته وهم أصحاب تلك الحروب المبيرة . ومما يدل أيضاً على أن المزدكية لم تتغلغل فى قلب الحارث نفسه ، ولم يعتنقها اعتناق المؤمن الموقن ، وإنما كان مرائياً فى تظاهره بها وتشيعه لها تلك الحروب التي قام بها الحارث نفسه فى بلاد العرب ، يبغى بها إذلال منافسيه والقضاء عليهم ، على أن هذا المذهب المزدكى لم يلق بين العرب رواجاً ، ولا يكاد يعرفه منهم أحد لأن العربى لا يرضى لنفسه أن يباح عرضه وماله ، وهو صاحب الشمم والإباء والعزة والأنفة المضروب بها المثل .

فلا يمكن بعد هذا أن يكون امرؤ القيس مزدكيا ، ولا بد أنه كان نصرانياً . ولقد عده الأب لويس شيخو فى شعراء النصرانية . وليس أدل على نصرانية هذا الشاعر من أننا نجد فى شعره كثيرا من إقراره بالله وقدرته وحسابه وغير ذلك من عقائد النصارى والأديان السماوية التي لا يعرفها ولا يقرها الوثنى ولا المزدكى وإنما يقول بها من كان متألها فامرؤ القيس هو القائل .

أرى إبلى والحمد لله أصبحت ثقالا إذا ما استقبلتها صعودها

وقال أيضاً :

اليوم أسقى غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

وقال :

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرحل

وقد قال الثعالبي فى كتابه الإعجاز والإيجاز هذا بيت من جوامع الكلم ، فإن فيه الاستنجاح بالله ، ومدح البر والحث عليه .

وقال امرؤ القيس أيضاً :

تلك الموازين والرحمن أنزلها رب البرية بين الناس مقياسا

حين سأله عبيد بن الأبرص :

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يعجب الناسا

وقال أيضاً :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها روى بها فى محول الأرض أيباسا

عند ما سأله عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهن الناس تمساسا

وفى شعر امرىء القيس كثير من الإشارات النصرانية ، فمن ذلك قوله فى مصابيح الرهبان :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

وقوله :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل

وقوله :

يضىء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

ومن ذلك أيضاً قوله فى مصاحف الرهبان :

أتت حجج بعدى عليها فأصبحت كخط زبور فى مصاحف رهبان

وقال يصف كلاب صيد قد أدركت قنيصة ذاكراً أن حاج بيت المقدس يتبرك بثوبه ولدان النصارى ، ومثل تلك العادة لا يعرفها إلا من نشأ فى بيئة نصرانية .

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس

وقال ذاكراً الأران وهو تابوت النصارى :

وعنس كألواح الأران نسأتها على لاحب كالبرد ذى الحبرات

حتى فى ساعة فجوره وفحشه ما كان ينسى دينه وربه . انظر إليه حين يقص موقفاً بلغ فيه غاية الفحش والعهر وهو مع ذلك يظهر تألهه فى قوله .

سموت إليها بعــد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

فقالت سباك الله إنك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى

فقلت يمين الله أبرح قاعــداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

حلفت لهـا بالله حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صال

ولأجل أن يفهم القارىء مقدار فحش هذا الموقف نذكر له أن بعض شراح ديوان امرىء القيس فسروا البيت الأول بمـا يلتئم مع تغيير كلمة « إليها » بكلمة « عليها »

هذا استدلال على نصرانية امرىء القيس أخذاً من قوله وأشعاره . أما من جهة التاريخ فإن المؤرخين ذكروا أن النصرانية كانت منتشرة فى كندة ، ومن الدلالات التاريخية التى لا يمكن أن يتطرق الشك إليها ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان عن عمة امرىء القيس هند بنت الحارث المعروفة بهنـد الكبرى زوجة المنذر بن ماء السماء[1] وأم عمرو بن هند ، ذكر ياقوت عنها أنها ابتنت ديرا يعرف بدير هند الكبرى ، وكتبت فى صدره « بنت هـذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو ، وأمة المسيح ، وأم عبده ، وبنت عبيده ، وأنت تجد فى شهادة ياقوت نصرانية هند، ونصرانية ولدها عمرو، ونصرانية أبيها الحارث بن عمرو الكندى طريد أنوشروان والمنذر بن ماء السماء والذى شايع المزدكية مرائياً حيناً من الدهر ، وتلمح فيها ضمنا نصرانية امرىء القيس ، ونصرانية أجداده الذين لا بد أن يكون امرؤ القيس نشأ على

(١) قدمنا فى غير هذا الموضع أن المنذر هذا زوج هند بنت الحارث الكندى هو بعينه عدو الحارث ومنافسه أيضاً .

دينهم . ثم إن فاطمة بنت ربيعة أم امرىء القيس من تغلب ، وتغلب كلها على دين النصرانية .

ومن كل هذا نقف على حقيقة دين ذلك الشاعر وهو النصرانية . ولئن قلنا بنصرانية امرىء القيس فلا يمكننا أن نقول إنه كان متمسكا بدينه تمسك البررة الأطهار والقسس والرهبان ، بل إنها كانت نصرانية شخص مستهتر لا يبالى كثيراً بالدين وفرائضه والله أعلم .

امرؤ القيس بعد مقتل أبيه

قدمنا فيما سبق أن حجراً أباه كان ملكا على أسد وغطفان ، وأنه قد عتا عتواً كبيراً في بني أسد ، وبغى عليهم وأذاقهم العذاب ، وسامهم الخسف وأنواعا من الذل والهوان حتى قعدوا يتنابذون به ، ويبغون عليه غائلة الدهر ويبيتون له الشر ، حتى اغتاله أحدهم على حين غفلة . ولما احتضر أوصى بمتاعه وسلاحه لمن لا يجزع عليه من بنيه ، فكلهم جزع وبكى إلا امرأ القيس ، فقد جاءه النذير بدمون وهي تلك القرية التي ألقى فيها عصاه بعد أن شرده أبوه ونفاه ، أتاه الناعي وهو على شراب مع نديم له يلاعبه النرد ، فقال له قتل حجر فلم يلتفت إليه ، وأمسك نديمه عن اللعب ، فقال له امرؤ القيس اضرب ، فضرب حتى إذا فرغ قال له : ما كنت لأفسد عليك دستك ، ثم سأل الرسول عن أمر أبيه ، فقص عليه القصص ، ودفع إليه بالوصية . عندئذ قال امرؤ القيس : ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لاصحو اليوم ، ولا سكر غد . اليوم خمر وغداً أمر .

خليلي ما في اليوم مصحى لشارب ولا في غد إذ ذاك بالكأس نشرب

ثم شرب سبعاً ، حتى لعبت بلبه الخمر ، ولما أفاق من غشيته آلى على نفسه ألا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بطيب ، ولا يلهو بلهو ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه من الجنابة ، حتى يدرك ثأر أبيه . ولما جن عليه الليل رأى برقاً تلمع ضياؤه ، ويخطف الأبصار سناؤه ، وبات ليلته أرقاً متململا ، كأنما يحمل بين جنبيه أتوناً يتقد ، ويتقلب على نار تستعر ، ومما جاشت به شاعريته في تلك الليلة قوله .

أرقت لبرق بليل أهل يضيء سناه بأعلى الجبل
أتاني حديث فكذبته بأمر تزعزع منه القلل

بقتل بنى أسـد ربهم ألا كل شىء سواه جلل[1]
فأين ربيعـة عن ربهـا وأين تميم وأين الخول[2]
ألا يحضرون لدى بابه كما يحضرون إذا ما استهل[3]

وقال أيضاً :

تطاول الليل علينا دمون
دمون ! . إنا معشر يمانون
وإنا لأهلها محبون

وقال أيضاً :

أتانى وأصحابى على رأس صيلع حديث أطار النوم عنى فأنعما[4]
فقلت لعجلى بعيـد مآبه أبن لى وبين لى الحديث المجمجما[5]
فقال أبيت اللعن عمرو وكاهل أباحا حمى حجر فأصبح مسلما[6]

مضى طور الخلاعة واللهو على فتى كندة وعاجلته الحوادث بهمومها ، ولما يزل غض الشباب ، ناضر العود ، فألقت عليه عبئاً ثقيلا أصلد زنده ، وحملا فادحا ينوء به ، فشمر عن ساعده مطالباً بثأر أبيه واسترداد ملكه ، وأخذ يجمع الجموع ويعد العدة . فلما بلغ بنى أسد ذلك أوفدوا عليه وفداً من رجالاتهم كهول وشبان ، فيهم عبيد بن الأبرص والمهاجر بن خداش وقبيصة بن نعيم ، وكان قبيصة مشهوراً بالبصر فى الأمور والنظر فى العواقب فلما علم امرؤ القيس بمكانهم ، أمر بإنزالهم ، وتقدم فى إكرامهم والإفضال

---

(١) جلل حقير .
(٢) الخول الأتباع .
(٣) استهل يعنى بالعطايا والمنح .
(٤) أنعم أى أبعد .
(٥) المجمجم الذى لا تكاد تتبينه .
(٦) مسلم أى مباح .

عليهم ، واحتجب عنهم ثلاثاً ، فقالوا لمن ببابه من رجال كندة ما بال الرجل لا يخرج إلينا ، فقال : هو في شغل بإخراج ما في خزائن حجر من العدة والسلاح ، فقالوا : اللهم غفراً ! إنما قدمنا في أمر تتناسى به ذكر ما فات ، ونستدرك ما فرط ، فليبلغ ذلك عنا ، فخرج عليهم في قباء وخف وعمامة سوداء ، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا في الترات ، فلما رأوه نهضوا له وبدر قبيصة فقال :

إنك في المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب محتد يحتمل ما حمل عليه ، من إقالة العثرة ، والرجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأى ، وكرم الصفح ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها . وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عمت رزيته نزاراً واليمن ، ولم تخصص به كندة دوننا للشرف البارع الذى كان لحجر .

كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولفديناه منه ، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه . فأحمد الحالات أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث .

إما أن تختار من بنى أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً ، تقوده إليك بنسعه ، فيذهب مع شفرات حسامك ، فيقال رجل امتحن بهلك عزيز عليه فلم تستل سخيمته إلا بتمكينه من الانتقام .

أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهى ألوف تجاوز الحسبة ،

وكان ذلك فداء ترجع به القضب إلى أجفانها لم يردده تسليط الإحن على البرءاء

وإما أن توادعنا، حتى تضع الحوامل، فنسدل الأزر، ونعقد الخمر فوق الرايات

فبكى امرؤ القيس ساعة، ثم رفع طرفه إليهم فقال :

قد علمت العرب أن لا كفء لحجر فى دم . وإنى لن أعتاض به ناقة أو جملا، فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد . وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سبباً، وستعرفون طلائع كندة من بعد، تحمل فى القلوب حنقاً، وفوق الأسنة علقاً .

إذا جالت الخيل فى مأزق تدافع فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى الاجترار، لمكروه وأذية، وحرب وبلية . ثم نهضوا وقبيصة يقول متمثلا

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت كتائبنا فى مأزق الموت تمطر

فقال امرؤ القيس لا والله لا أستوخمه، فرويداً ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير . ولقد كان ذكر غير هذا أولى بى، إذ كنت نازلا بربعى، ومتحرماً بزمامى ؛ ولكنك قلت فأجبت .

فقال قبيصة إن ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب . قال امرؤ القيس فهو ذاك : وارتحلوا عنه .

أما امرؤ القيس فقد رحل بعد هذا إلى بكر وتغلب ؛ وسألهم النصر على بنى أسد . فسيروا معه جيشاً، فزحف به على بنى أسـد، وأرسل وراءهم العيون كى يعلم أمرهم ومكان نزولهم، وكانوا نازلين بكنانة، فقال واحد منهم وهو علباء بن الحارث : يا بنى أسد إن عيون امرىء القيس بيننا، ولا بد أن يخبروه بنا، فارحلوا بليل، ولا تعلموا بنى كنانة بذلك . ففعلوا ما أشار

به عليهم علباء ، ثم أقبل امرؤ القيس بمن معه على كنانة ، وهو يحسبهم بنى أسد ، فأوقع بهم ، ووضع فيهم السلاح ، وقال يا لثارات الملك يا لثارات الهمام ، فبرزت إليه عجوز من بنى كنانة ، وقالت له : أبيت اللعن لسنا لك بثأر ، نحن من كنانة ، فدونك ثأرك فاطلبهم فإن القوم قد ساروا بالأمس فتبع امرؤ القيس بنى أسد ابتغاء اللحاق بهم ، ففاتوه فى تلك الليلة ولم يستطع إدراكهم فحزن لذلك وقال .

ألا يا لهف هند إثر قوم هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وقاهم جدهم ببنى أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب
وأفلتهن علباء جريضاً ولو أدركته صفر الوطاب[1]

وقال أيضاً :

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا
القاتلين الملك الحلاحلا[2]
تالله لا يذهب شيخى باطلا[3]
حتى أبيد مالكا وكاهلا
خير معد حسبا ونائلا[4]
وخيرهم قد علموا شمائلا
نحن جلبنا القرح القوافلا[5]
يحملننا والأسل النواهلا
وحى صعب والوشيج الذابلا[6]

(١) الجريض الغاص بريقه .
(٢) الحلاحل السيد الشريف .
(٣) يعنى بشيخه أباه .
(٤) يقصد أن بنى أسد الذين هم خير معد حسبا ونسبا ونائلاهم كفاء دم أبيه حجر .
(٥) القرح الخيل والقوافل الضامرة .
(٦) حى صعب من أحياء بنى أسد ولكنهم كانوا فى جانب امرىء القيس والوشيج الرماح .

مستفرمات بالحصى جوافلا[1]
يستشرف الأواخر الأوائلا

ثم أدركهم ظهراً وقد تقطعت خيله وبلغ به الظمأ وبمن معه كل مبلغ، وبنو أسد حامون على ماء وراحة. فقاتلهم قتالا شديداً حتى كثر القتلى والجرحى، وأصيب من الفريقين عدد كبير، ثم حجز الليل بينهم، فكفوا عن المقاتلة، وفر بنو أسد من وجه امرىء القيس، فلما أسفر الصبح أراد أن يتبعهم، فأبت عليه ذلك بكر وتغلب، وقالوا له قد أصبت ثأرك، فقال والله ما فعلت ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم من بنى أسد أحداً، قالوا بلى قد أصبت ولكنك رجل مشئوم، وأسفوا أشد الأسف على ما كان منهم من مقاتلة كنانة وهم لا ذنب لهم ولا جريرة، ثم انفضوا من حول امرىء القيس. فسار من فوره إلى اليمن، فاستنصر ببنى أزد شنوءة، فأبوا أن ينصروه، وقالوا: بنو أسد إخواننا وجيراننا، فنزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذى جدن الحميرى، وكانت بينهما قرابة، فاستنصر به واستعداه على بنى أسد، فجهز له خمسمائة من حمير، ومات مرثد الخير قبل رحيل امرىء القيس بهم، وقام بالمملكة بعده رجل حميرى يقال له قرمل بن الحميم وكانت أمه أمة سوداء فماطل امرأ القيس وطول عليه حتى هم بالانصراف وقال:

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا   وإذ نحن لا ندعى عبيداً لقرمل

وأخيراً أنفذ له قرمل ذلك الجيش الذى كان على وشك أن يمده به مرثد الخير قبل موته، وتبعه أيضاً شذاذ من العرب، واستأجر من بعض القبائل رجالا، ثم سار بهم جميعاً إلى بنى أسد، ومر فى مسيره ببلدة تبالة

---

(١) مستفرمات بالحصى يريد أن الخيل تضرب الحصى بسنابكها فيتطاير من خلفها حتى يبلغ فروجها وهى مكان الاستفرام، والجوافل السراع.

وفيها صنم تعظمه العرب يقال له ذو الخلصة ، فاستقسم عنده بقداحة وهى ثلاثة الآمر والناهى والمتربص ، فأجالها ، فخرج له الناهى ، ثم أجالها فخرج الناهى ، ثم أجالها مرة ثالثة فخرج الناهى أيضاً ، فجمع امرؤ القيس القداح وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال : « مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقتنى » ثم مضى على سبيله حتى ظفر ببنى أسد فقال :

يا دار ماوية بالحائل ... فالسهب فالخبتين من عاقل
صم صداها وعفا رسمها ... واستعجمت عن منطق السائل
قولا لدودان عبيد العصا ... ما غركم بالأسد الباسل
قد قرت العينان من مالك ... ومن بنى عمرو ومن كاهل
ومن بنى غنم بن دودان إذ ... نقذف أعلاهم على السافل
نطعنهم سلكى ومخلوجة ... كرّكَ لأمين على نابل (١)
إذ هن أقساط كرجل الدبا ... أو كقطا كاظمة الناهل (٢)
حتى تركناهم لدى معرك ... أرجلهم كالخشب الشائل (٣)
حلت لى الخمر وكنت امرأ ... عن شربها فى شغل شاغل
فاليوم أسقى غير مستحقب ... إثماً من الله ولا واغل (٤)

فأنكر عليه ذلك عبيد بن الأبرص ، ورد عليه فى عدة قصائد منها القصيدة التى يقول فيها :

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه إذلالا وحينا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً ومينا
هلا على حجر بن أم قطام تبكى لا علينا

---

(١) سلكى مستقيمة ومخلوجة معوجة وكرك لأمين أى ردك سهمين .
(٢) أقساط جماعات ورجل الدبا فرق الجراد والناهل النازل على الماء .
(٣) الخشب الشائل الذى قد ألقى بعضه على بعض وارتفع إلى فوق .
(٤) مستحقب أى حامل والواغل الذى يدخل على القوم وقت شربهم بلا إذن .

إنا إذا عض الثقا ف برأس صعدتنا لوينا
نحمى حقيقتنا وبعـ ـض القوم يسقط بين بينا
هلا سألت جموع كنـ ـدة يوم ولوا أين أينا
أيام نضرب هامهم ببواتر حتى انحنينا
وجموع غسان الملو ك أتينهم وقد انطوينا
لحقا أياطلهن قد عالجن أسفاراً وأينا
نحن الأولى فاجمع جمو عك ثم وجههم إلينا
واعـلم بأن جيادنا آلين لا يقضين دينا
ولقد أبحنا ما حميت ولا مبيح لما حمينا
هذا ولو قدرت عليـ ـك رماح قومى ما انتهينا
حتى تنوشك نوشة عاداتهن إذا انتوينا
نغـلى السباء بكل عا تقة شمول ما صحونا
ونهـين من لذاتنا عظم التلاد إذا انتشينا
لا يبلغ البـانى ولو رفع الدعائم ما بنينا
كم من رئيس قد قتلـناه وضيم قد أبينا
ولرب سيـد معشر ضخم الدسيعة قد رمينا
عقبانه بظلال عقـبان تتمم ما نوينا
حتى تركـنا شلوه جزر السباع وقد مضينا
وأوانس مثـل الدمى حور العيون قد استبينا
إنا لعمرك ما يضا م حليفنا أبداً لدينا

وإذا وازنا بين عبيد بن الأبرص وامرىء القيس فى هذا الشعر نجد أن عبيداً أشد أسراً وأعظم روعة.

ولما أسرف امرؤ القيس فى قتال بنى أسد فزعوا إلى المنذر كى ينصرهم

عليه ويكفيهم شره ويوقفه عند حده ، فأهدر المنذر دم امرىء القيس ، وطلبه من القبائل ، وأعانه على ذلك كسرى أنو شروان ملك الفرس

فانفضت حمير وجموع امرىء القيس من حوله ، فلجأ فى عصبة من قومه إلى الحارث بن شهاب اليربوعى ومعه أدراعه الخمسة الفضفاضة والضافية والمحصنة والخربق وأم الذيول التى كن لبنى آكل المرار يتوارثونها ملكا عن ملك ؛ فما لبثوا غير قليل عند الحارث بن شهاب حتى أرسل إليه المنذر مائة من أصحابه يتهدده ويتوعده بالحرب إن لم يسلم إليه بنى آكل المرار . والحارث اليربوعى لا طاقة له ولا قبل بهذا الملك الجبار الواسع السلطان ، فأسلمهم إليه صاغراً ، ولكن امرأ القيس تمكن من النجاة إذ فر هارباً ومعه ابن عم له يسمى يزيد بن معاوية بن الحارث ، ومعه أيضاً ابنته هند وأدراعه وسلاحه وماله ، ونزل على ابن عمته عمرو بن هند بنت الحارث ابن عمرو الكندى وابن هند هذا هو أيضاً ابن المنذر مطارد امرىء القيس وكان نائباً عن أبيه ببقة ، فمكث امرؤ القيس عنده حيناً من الزمن مستخفياً ولا يعلم بذلك أبوه المنذر ، حتى أحس عمرو أن أباه قد علم باختباء ابن خاله عنده فأخبر امرأ القيس بذلك وأنذره بطش والده ، فتحول عنه إلى هانىء بن مسعود . (وكان هانىء هـذا أفوه شاخص الأسنان) فأبى أن يجيره ، فسار إلى إياد ونزل على سعد بن الضباب الإيادى سيد قبيلته وعظيم قومه وكانت بينه وبين امرىء القيس صلة ورابطة فإن أم سعد بن الضباب كانت تحت حجر والد امرىء القيس فطلقها وهى حامل وهو لا يعرف هـذا ، فتزوجها الضباب فولدت سعداً على فراشه فلحق نسبه به . لتلك الوشيجة التى تحدث بها الرواة والنسابون والتى يمت بها امرؤ القيس إلى سعد أجاره الأخير وأكرم مثواه ، فقال فى ذلك شعراً يمدح فيـه سعداً ويهجو هانىء ابن مسعود .

لعمرك ما سعـــد بخلة آثم ولا نأنأ يوم الحفاظ ولا حصر (١)

(١) الخلة الصداقة والمودة ، والنأنأ الضعيف المقصر فى الأمور ، ويوم الحفاظ يوم الجد والكريهة ، والحصر ضيق الصدر عن الاضطلاع بالعظائم .

لعمرى لقوم قد نرى فى ديارهم ... مرابط للأمهار والعكر الدثر[١]

أحب إلينا من أناس بقنة ... يروح على آثار شائهم النمر[٢]

يفاكهنا سعد ويغدو لجمعنا ... بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر[٣]

لعمرى لسعد بن الضباب إذا غدا ... أحب إلينا منك يا فرس حمر[٤]

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ... ومن خاله ومن يزيد ومن حجر

سماحة ذا وبرذا ووفاء ذا ... ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

وقال أيضا يمدح سعداً :

منعت الليث من أكل ابن حجر ... وكاد الليث يودى بابن حجر

منعت فأنت ذا منّ ونعمى ... علىّ ابن الضباب بحيث ندرى

سأشكرك الذى دافعت عنى ... وما يجزيك منى غير شكرى

فما جار بأوثق منك جارا ... ونصرك للفريد أعز نصر

ثم تحول امرؤ القيس عن سعد بن الضباب إلى المعلى بن تيم الطائى وأقام عنده حميد المثوى عزيزاً محترماً مكرماً فقال يمدحه :

كأنى إذ نزلت على المعلى ... نزلت على البوازخ من شمام[٥]

فما ملك العراق على المعلى ... بمقتدر ولا ملك الشآم[٦]

---

(١) العكر المال الكثير ولا يطلق إلا على الإبل وقال الخليل العكر ما زاد على خمسمائة من الإبل . والدثر الكثير .

(٢) القنة رأس الجبل . وشائهم غنمهم .

(٣) يفاكهنا يمازحنا ويضاحكنا . ويغدويبكر . مثنى الزقاق أى يأتينا بزقاق الخمر مثنى مثنى . والمترعات الممتلآت . والجزر ما ينحر من البهائم الأكل . قال الوزير أبو بكر من تمام القرى عندهم السمر وطلاقة الوجه والمحادثة معهم فاستوفى فى هذا البيت جميع مسرات القرى

(٤) يافرس حمر أى يا منتن الفم فإن الفرس إذا حمر نتن فوه والفرس الحمر هو الذى أكل شعيراً كثيراً حتى سنق واتخم .

(٥) البوازخ من شمام هى جبال شمام الشواهق .

(٦) المراد بملك العراق المنذر بن ماء السماء والمراد بملك الشام الحارث بن أبي شمر الغساني .

أصد نشاص ذى القرنين حتى   تولى عارض الملك الهمام [١]
أقر حشا امرىء القيس بن حجر   بنو تيم مصـــابيح الظلام [٢]

ثم نزل بعد ذلك ببنى نبهان ، فأغار على أبله قوم من بنى جـديلة ، فيهم رجل يقال له باعث بن حويص ، ولما عرف امرؤ القيس نبأ تلك الغارة فزع إلى جاره خالد بن سـدوس وشكى إليه أمره ، وكان لامرىء القيس رواحل مقيدة أمام البيوت خوفاً من أن يدهمه أمر فيسبق عليهن ، فقال له خالد أعطنى رواحلك ألحق بها القوم فأرد إبلك ، فأعطاه إياها ، فركبها خالد ونفر معه ، وساروا حتى لحقوا ببنى جديلة ، فقال لهم خالد يا بنى جديلة أغرتم على جارى . قالوا ما هو لك بجار ، قال بلى إنه جارى ووالله ما هذه الإبل التى معكم إلا كالرواحل التى تحتنا . قالوا أكذاك ؟ قال نعم فرجعوا إليه وأنزلوه ومن معـه عن تلك الرواحـل ، وذهبوا بها أيضاً ، فلما علم امرؤ القيس بهذا قال :

دع عنك نهباً صيح فى حجراته   ولـكن حديثاً ما حديث الرواحل [٣]
كأن دثارا حلقت بلبونه   عقاب تنوفى لا عقاب القواعل [٤]
تلعب باعث بجيران خالد   وأودى عصام فى الخطوب الأوائل [٥]

---

(١) أصد أى رد والنشاص السحاب المرتفع ذو القرنين قال الوزير أبو بكر هو المنذر الأكبر سمى ذا القرنين لضفيرتين كانتا له ، والعارض السحاب المعترض فى السماء والمراد بقوله تولى عارض الملك الهمام أى انهزم جيش المنذر .

(٢) أقر سكن وطامن وبنو تيم سموا مصابيح الظلام وغلب عليهم هذا اللقب الحسن منذ لقبهم به امرؤ القيس فى بيته هذا .

(٣) النهب الغنيمة . والحجرات النواحى . والرواحل النوق .

(٤) دثار راعى إبل امرىء القيس . واللبون النوق . وتنوفى ثنية مشرفة والمراد بقوله عقاب تنوفى أى عقاب ساقطة محلقة من ثنية مشرفة ذاهبة فى الهواء . القواعل جبـال صغار .

(٥) باعث هو ابن حويص الجديلى الذى أغار برجاله على إبل امرىء القيس . أودى هلك . وعصام راع آخر لإبل امرىء القيس قتل عند الغارة على إبله .

وأعجبنى مشى الحزقة خالد كمشى أتان حلئت بالمناهل[١]
أبت أجأ أن تسلم العام جارها فمن شاء فلينهض لها من مقاتل[٢]
تبيت لبونى بالقسرية أمنا وأسرحها غباً بأكناف حائل[٣]
بنو ثعل جيرانها وحماتها وتمنع من رجال سعد ونائل[٤]
تلاعب أولاد الوعول رباعها دوين السماء فى رءوس المجادل[٥]
مكللة حمراء ذات أسرة لها حبك كأنها من جبائل[٦]

ففرق عليه بنو نبهان فرقا من معزى يحلبها فقال :

إذا ما لم تجد إبلا فمعزى كأن قرون جلتها العصى[٧]
إذا ما قام حالبها أرنت كأن القوم صبحهم نعى[٨]
تروح كأنها مما أصابت معلقة بأحقيها الدلى[٩]
فتملأ بيتنا إقطا وسمناً وحسبك من غنى شبع ورى[١٠]

ثم ارتحل إلى عامر بن جوين الطائى واتخذ عنده إبلا ، وعامر يومئذ أحد الخلعاء الفتاك وقد تبرأ قومه من جرائره ؛ فمكث امرؤ القيس عنده زمناً

---

(١) الحزقة القصير الضخم البطن الضيق الباع . والأتان الأنثى من الحمر . وحلئت منعت أن ترد الماء مرة بعد مرة — والمناهل موارد الماء .

(٢) أجأ جبل فى بلاد طيء والمراد أهل أجأ .

(٣) القرية مكان بجبل أجأ .وأسرحها أرسلها ترعى نهاراً . وغبا أى ترسل يوماً وتترك يوماً . وحائل جبل وأكنافه جوانبه .

(٤) سعد ونائل من بنى نبهان .

(٥) الوعول التيوس الجبلية . والرباع الفصلان . والمجادل الجبال .

(٦) مكللة حمراء يعنى أن رءوس الجبال كللتها السحب . والأسرة الطرائق والخطوط . والحبك الطرائق أيضاً .والجبائل ضرب من البرود ملونة مخططة .

(٧) الجلة المسن الكبير . (٨) أرنت صاحت .

(٩) تروح تعود إلى حظائرها فى المساء . بأحقيها أى مابين فخذيها والدلى جمع دلو والمراد بها الحوالب الممتلئة باللبن .

(١٠) الأقط ضرب من الجبن يتخذ من اللبن المخيض .

حتى هم عامر أن يغلبه على ماله وأهله . وأحس بذلك امرؤ القيس من شعر كان عامر ينشده وهو :

فكم بالصحيح من هجان مؤبلة   تسير صحاحا ذات قيد ومرسله
أردت بها فتكا فلم أرتمض له   ونهنهت نفسى بعد ما كدت أفعله

وكان عامر ينشد الشعر أيضاً يعرض بهند ابنة امرىء القيس ، فلما أحس شاعرنا بكل هذا وبدا له الغدر من هذا الفاتك الخليع الذى لا يراعى إلا ولا ذمة رحل على حين غفلة منه إلى رجل من بنى ثعل يقال له حارثة ابن مر ، فأجاره وأكرم وفادته ، ثم وقعت الحرب بين عامر الطائى وحارثة الثعلى بسبب امرىء القيس ، فلما رأى أن ذلك من أجله تحول إلى عامر بن جابر الفزارى ، وطلب منه أن يجيره حتى يرى ذات غيبه ، فقال له الفزارى يابن حجر إنى أراك فى خلل من قومك ، وإنى أنفس بمثلك من أهل الشرف ، وقد كدت بالأمس تؤكل فى ديار طيىء ، وأهل البادية أهل وبر لا أهل حصون تمنعهم ، وبينك وبين اليمن ذؤبان من قيس ، أفلا أدلك على بلد تلجأ إليه ؟ فقد جئت قيصر وجئت النعمان فلم أر لضيف نازل ولا لمجتد مثله ولا مثل صاحبه . فقال امرؤ القيس من هو وأين منزله ؟ فأجابه إنه السموءل بتيماء . وسوف أضرب لك مثله ، هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات غيبك ، وهو فى حصن حصين وحسب كبير . فقال له امرؤ القيس وكيف لى به ؟! قال عامر أوصلك إلى من يوصلك إليه ، ثم صحبه إلى رجل من بنى فزارة أيضاً ، يقال له الربيع بن ضبع الفزارى ممن يأتى السموءل فيحمله ويعطيه. فلما صار امرؤ القيس عند الربيع قال له الأخير إن السموءل يعجبه الشعر ، فتعال نتناشد له أشعاراً فقال امرؤ القيس قل حتى أقول فقال الربيع :

قل للمنية أى حين نلتقى   بفناء بيتك فى الحضيض المزلق

وهى طويلة يقول فيها :

ولقد أتيت بنى المصاص مفاخراً   وإلى السموءل زرته بالأبلق

فأتيت أفضل من تحمل حاجة   إن جئته فى غارم أو مرهق
عرفت له الأقوام كل فضيلة   وحوى المكارم سابقاً لمن يسبق

فقال امرؤ القيس :

طرقتك هند بعد طول تجنب   وهنا ولم تك قبل ذلك تطرق

قال صاحب الأغانى « وهى قصيدة طويلة وأظنها منحولة لأنها لا تشاكل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دونها فى ديوانه أحد من الثقاة وأحسبها مما صنعه دارم لأنه من ولد السموءل »

ثم وفد الفزارى وركبه بامرىء القيس على السموءل ، وبينما هم سائرون فى الطريق إذ ببقرة وحشية صريعة بسهم تعالج الموت ، فلما رأوها هموا بها فذبحوها ، وإذا بقوم قناصين من بنى ثعل ، فقال لهم الفزارى وأصحابه من أنتم ؟ فانتسبوا له ، فإذا هم من جيران السموءل ، فانصرفوا جميعاً إليه ، وقال امرؤ القيس يصف أولئك الصيادين .

رب رام من بنى ثعل   متلج كفيه فى قترة[١]
عارض زوراء من نشم   غير باناة على وتره[٢]
قد أتته الوحش واردة   فتنحى النزع فى يسره[٣]
فرماها فى فرائصها   بإزاء الحوض أو عقره[٤]

---

(١) بنو ثعل قبيلة من طيء كانوا مشهورين بالحذق فى الرماية . ومتلج مدخل . والقتر جمع قترة وهو بيت الصائد الذى يكمن فيه للوحش لئلا تراه فتنفر منه قال الوزير أبو بكر ويروى مخرج كفيه من شتره والشتر جمع شتيرة يريد الكم ومعناه على هذه الرواية أنه يخرج كفيه من كميه ليتناول القوس ويرمى بها .

(٢) الزوراء يريد بها القوس المنحنية والنشم شجر تعمل منه القسى . غير باناة أى غير منحن على وتره قال أبو الخطاب يقال رجل باناة وهو الذى ينحنى صلبه إذا رمى فيذهب سهمه على وجه الأرض وذلك عيب .

(٣) فتنحى أى مال وقصد النزع وهو الرمى . ويسره قبالته .

(٤) فرائصها أى جنبها الذى به القلب وإزاء الحوض مصب الماء فيه . والعقر مكان الشاربة .

برهيش من كنانته ... كتلظى الجمر فى شرره[١]
راشه من ريش ناهضة ... ثم أمهاه على حجره[٢]
فهو لا تنمى رميته ... ماله لاعد من نفره[٣]
مطعم للصيد ليس له ... غيرها كسب على كبره[٤]
وخليل قد أفارقه ... ثم لا أبكى على أثره[٥]
وابن عم قد تركت له ... صفو ماء الحوض عن كدره[٦]
وابن عم قد فجعت به ... مثل ضوء البدر فى غرره
وحديث الركب يوم هنا ... وحديث ما على قصره[٧]

ولما قدم القوم على السموءل أكرم مثواهم وأحسن لقاءهم وعرف لهم مقدارهم، ثم إن امرأ القيس طلب منه أن يكتب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ليوصله إلى قيصر، ففعل السموءل ذلك. ومضى امرؤ القيس إلى الحارث بعد أن أودع عند السموءل أهله وسلاحه، ثم سار من عند

---

(١) الرهيش سهم ضامر والكنانة جعبة السهام والتلظى التوقد والتوهج .

(٢) راشه أى ركب فى السهم الريش والناهضة الصقرة أو الصقر والتاء للمبالغة كما يقول الوزير أبو بكر وأمهاه أى سقاه الماء وذلك عند أبى عبيدة وعند غيره أمهاه أرقه .

(٣) لا تنمى رميته أى لا تذهب عن مكانها يعنى أن رميته صائبة وقوله ماله لا عد من نفره دعاء عليه بالموت ولم يرد حقيقته إذا عد أهله لم يعد منهم بل هو على جهة التعجب كما تقول قاتلك الله .

(٤) المطعم المرزوق فى الصيد الذى لا يكاد يخطىء إذا رمى ويقال قوس مطعمة إذا كان سهمها لا يخطىء .

(٥) يعنى وصف نفسه بالجلادة والصبر وقلة الجزع عند ما يجزع الناس عنده من فرقة الخلان وإن كانت أعظم مصائب الزمان .

(٦) يقصد أنه كريم العشرة حتى لو أن ابن عمه أتى ما يستحق عليه العقوبة قابله بالصفح والإحسان وجعل له بدل الكدر الذى كان يستوجبه منه صفوا من الماء الذى كان لا يستحقه.

(٧) يوم هنا فيه أقوال قال الوزير أبو بكر يريد يوم الكلاب الأول وقيل هو يوم معروف وقيل هو يوم لهو ولعب وقيل هو اسم موضع وهو منون . وما فى قوله : وحديث ما زائدة وتدل على التعجب والتعظيم .

الحارث إلى قيصر ، وكان معه فى تلك الرحلة جابر بن حنىّ وعمرو بن قميئة وعمرو هذا هو الذى يقول فيه امرؤ القيس :

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا بكاء على عمرو وما كان أصبرا

وفيه يقول أيضاً :

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

أما جابر فهو الذى يقول فيه امرؤ القيس :

فإما تريني فى رحالة جابر على حرج كالقر تخفق أكفاني (١)
فيارب مكروب كررت وراءه وعان فككت الغل عنه ففداني (٢)

ولما وصل امرؤ القيس إلى قيصر أحسن لقائه وأكرم ضيافته ، ثم ضم إليه جيشاً كثيفاً فيه جماعة من أبناء الملوك : ولكن بنى أسد قوم لا تنام لهم عين ، ولا يغفلون عن الدس إلى عدوهم والكيد له ، فقد أرسلوا خلفه الطماح الذى وشى به لدى قيصر ، فقال له إن امرأ القيس غوى فاجر ، وإنه لما فصل بالجيش من عندك ذكر أنه يراسل ابنتك ، وهو قائل فى ذلك أشعاراً يشهرها بها فى العرب فيفضحها ويفضحك . فأثر ذلك القول فى نفس قيصر ؛ حتى فكر فى خذلان امرىء القيس والخلاص منه .

ويقول بعض المؤرخين والرواة إن قيصر بعث إلى امرىء القيس بحلة من وشى الذهب مسمومة وكتب يقول له ما ترجمته : « إنى أرسلت إليك

---

(١) الرحالة هنا خشبات صنعها له جابر بن حنى من تغلب . والحرج سرير يحمل عليه الموتى . والقر مركب من مراكب النساء . وأكفاني يريد ثيابي .

(٢) المكروب من أحاق به الكرب . والعاني الأسير . والغل الوثاق فى العنق . ففداني أى قال لى فداك نفسى وأبي وأمى وطارفى وتالدى .

حلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إلى بخبرك من منزل إلى منزل ، فلما وصلت الحلة إلى امرىء القيس لبسها واشتد سروره بها ، فأسرع فيه السم وسقط جلده، ولذلك سمى ذا القروح وقد قال فى ذلك :

لقد طمح الطماح من نحو أرضه ليلبسنى من دائه ما تلبسا
فبدلت قرحاً دامياً بعد صحة فيالك من نعمى تحولن أبؤسا
فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

هذا ما قال به بعض المؤرخين فى سبب وفاة امرىء القيس ، ونحن لا نعرف حلة مسمومة كهذه الحلة لها هذا التأثير العجيب ، ولذلك فهى فى نظرى أشبه بالخيال منها بالقول اليقين ؛ بل إنها من خرافات التاريخ ، وليس فى شعر امرىء القيس ما يدل على أن موته كان بسبب حلة مسمومة ، وكل ما دل عليه شعره أنه قد تقرح بدنه ، وأن الطماح وشى به إلى قيصر لا غير . والرأى عندى أن امرأ القيس مات بالجدرى — كما ذكر ذلك نونوز المؤرخ الرومانى — وكانت وفاة ذلك الشاعر فى سنة ٥٦٥ ميلادية بأنقرة . ويروى أنه قال عند احتضاره :

رب خطبة مسنفرة[١]
وطعنة مثعنجرة[٢]
وجفنة متحيرة[٣]
حلت بأرض أنقرة

ورأى قبر امرأة من بنات الملوك ماتت هناك فدفنت فى سفح جبل يقال له عسيب ، فسأل عنها فأخبر بقصتها ، فقال :

---

(١) مسنفرة أى لم يتوقف فيها صاحبها .
(٢) مثعنجرة أى سائل دمها .
(٣) جفنة متحيرة أى ممتلئة دسما وطعاما .

أجارتنـا إن المزار قريب وإنى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنـا إنا غريبان ههنـا وكل غـريب للغـريب نسيب
فإن تصلينـا فالقرابة بيننـا وإن تهجرينا فالغريب غريب

ثم مات ، فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك .

وقد جاء فى شعراء النصرانية أن قيصر لما بلغه وفاة امرىء القيس أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه ، ففعلوا . وكان تمثال امرىء القيس هناك إلى أيام المأمون ، وقد شاهده هذا الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة

هذا ما انتهت إليه حياة امرىء القيس التاريخية مع شىء مما اقتضته شئونها من شعره .

أثر الحوادث
فى
شعر امرىء القيس

إن حياة امرىء القيس على ما رأيت كانت طورين ، طور قبل مقتل أبيه، وطور بعد مقتله . وهو فى الطور الأول شاعر لهو ووصف ، لا يعنى بغير ما تمليه عليه الفتوة ويوحى به إليه الشباب من تشبيب ونسيب ، ووصف للخيل وللسحاب ، وذكر لمجالس الأنس والشراب ، وشعره فى هذا الطور نسيج العذوبة وحوك الفطرة السليمة ، فيه فصاحة البداوة الممزوجة بنعيم الملك وترف الغنى

وكأنى بك تسائلنى عما آل إليه أمر فتى كندة وخليعها بعد مقتل أبيه ، أبقيت شاعريته على ما كانت عليه من تهتك وتصابٍ ولهو وغرام ؟ أم استحالت شاعريته بعد أن تنكرت له الأيام والليالى وعصفت به رياحها الهوج فأصبح شريداً طريداً تتناوح بركابه أحياء العرب ؛ تنبو به الديار ، ويشط المزار ، وتلفظه الأرض هنا وهناك ، وتتناطح فيه أطماع الفتاك ، وهو بين هذا وذاك غرض الحتوف ومرمى الردى من المنذر ذلك الملك القوى الصولة الشديد البطش ، الذى لا يجير عليه من العرب مجير ، ولا يقوم لأحد منهم دونه نصير . وكل هذه مؤثرات جديدة فى شاعرية امرىء القيس وعوامل مستحدثة انتزعته من بين البواعث اللهوية وقذفت به بين دواعى الهموم والأحزان ، وهذا تحول فجائى يقتضى ركوداً فى الملكات ، وفتوراً فى القريحة، وإنه ليحتاج إلى زمن تختمر فيه المعانى الجديدة فى صدر ذلك الشاعر المحزون الذى تداعت أيام لهوه ، فقد انقلب طفرة من حال الزهو والمرح إلى مقام البؤس والشجن ، يشكو حاله ، ويندب مآله . أرأيت شاعر يوم

دارة جلجل ، وكم كان طروباً لاهياً ، فإذا به اليوم كاسف البال : عابس الوجه ، حليف همّ وحزن شتيت يقول :

ظللت ردائى فوق رأسى قاعداً أعد الحصى ما تنقضى عبراتى
أعنى على التهمام والذكرات يبتن على ذى الهم معتكرات (١)
بليل التمام أو وصلن بمثله مقايسة أيامها نكرات (٢)

نزلت به الحوادث عن الملك وعزته إلى ذل التشريد ومهانته ، فتنازعه عاملان : ذاك عامل اللهو والطرب ، وهذا عامل الهم والحزن ، والأول من سليقته ، والأخير عارض له جدته ، فلا شك أن شاعريته ترتطم بين هذين المؤثرين ؛ فيسقط شعره بتناقضهما . ومهما يكن من أمر ذلك الشاعر فإنه فى هذا الطور الأخير محزون يترقرق الحزن بين ثنايا كلماته ، وإذا عاوده ذكر اللهو جاء به ممزوجاً بدموع البكاء ، لأن حياته بعد مقتل أبيه كانت صارفة لمثله عن اللهو والعبث والمجون . ولقد كان طول تقلبه فى الأحياء ، وكثرة ما لاقاه من المحن مما زاد فى تجاريبه وجعله يقف على ما فى طبائع الناس من وفاء وغدر ، فشكا قسوة الزمان ، وتنكر الإخوان ، وخرج عن طبعه وفطرته إلى المدح والهجاء والتفجع والبكاء . وأول باعث نازعه فى هذا الطور الجديد هو الرثاء — والفتيان لا يجيدونه — فقد جاءه نعى أبيه بغتة وهو فى مسارح لهوه ، ومجالس أنسه ، لا يحس بما وراء ذلك اللهو وهذا الأنس ؛ فبهتت قريحته ؛ وعقل لسانه إلا عن ذلك النزر اليسير الذى قسر نفسه عليه قسراً ، فجاء فيه مقصراً

ولما قتل أبوه انحازت أخته هند بنت حجر وقطينها إلى عوير بن شجنة

---

(١) أعنى أى ساعدني . والتهمام الهم . والذكرات جمع ذكرة من التذكر . ومعتكرات أى نازلات متتابعات .

(٢) ليل التمام أطول ليالى العام . ومقايسة أى أن طول النهار فى قياس طول الليل . والنكرات الشديدات ويريد الشاعر أن ليله قد تطاول حتى صار الليل موصولا بمثله وكذلك أيامه مثل لياليه فى الطول والحزن .

من بنى زيد مناة ؛ فقال له قومه كلهم فإنهم مأكولون ؛ فأبى أن يخفر ذمته وخرج بها ليلا حتى أبلغها نجران ، ثم قال لها لست أغنى عنك شيئاً وراء هذا الوادى ، وهذه أرض قومك وقد برئت خفارتى ، ثم رجع فلما بلغ ذلك امرأ القيس قال يمدحه :

ألا إن قوماً كنت أمس دونهم ... هم منعوا جاراتكم آل غدران [1]
عوير ومن مثل العوير ورهطه ... وأسعد فى ليل البلابل صفوان [2]
ثياب بنى عوف طهارى نقية ... وأوجههم عند المشاهد غران [3]
هم أبلغوا حى المضلل أهلهم ... وساروا بهم بين العراق ونجران [4]
فقد أصبحوا والله أصفاهم به ... أبر بميثاق وأوفى بجيران [5]

وقال يمدحه أيضاً :

إن بنى عوف ابتنوا حسباً ... ضيعه الدخللون إذ غدروا [6]
أدوا إلى جارهم خفارته ... ولم يضع بالمغيب إذ نصروا [7]
لم يفعلوا فعل آل حنظلة ... إنهم جير بئس ما ائتمروا [8]
لا حميرى وفى ولا عدس ... ولا است عير يحكها الثفر [9]
لكن عوير وفى بذمته ... لا عور شانه ولا قصر [10]

---

(١) آل غدران أى يا آل الغدر يريد بهم بنى أسد الذين قتلوا أباه وخفروا ذمته .

(٢) عوير وصفوان سيدا بنى عوف . والبلابل الهموم .

(٣) المشاهد الحروب . وغران أى طلقة بيضاء متهللة .

(٤) حى المضلل يريد أهله ومن هنا سمى الملك الضليل .

(٥) أصفاهم به اختاره لهم .

(٦) الدخللون يريد الخاصة من ذوى قرابته إذ لم ينصروه على إدراك ثأره .

(٧) جارهم يريد نفسه وأخته . الخفارة الذمة والعهد . وقوله لم يضع بالمغيب أى من غاب عن أهله وأنصاره فهؤلاء ينصرونه .

(٨) بنو حنظلة هم الذين خذلوا شرحبيل عم امرىء القيس . وجير بمعنى حقا .

(٩) حميرى وعدس رجلان من بنى حنظلة تولوا الغدر بشرحبيل . والثفر السير فى مؤخر السرج وقوله ولا است عير يحكها الثفر احتقار واستهزاء واستخفاف بهؤلاء الغدرة .

(١٠) شانه أى عابه .

هذا أول عهده بالمديح،والمديح ليس من صناعة الملوك ، فهم لا يَمدحون ولكنهم يُمدحون ، لذلك جاء امرؤ القيس مقصراً فى مديحه كما جاء مقصراً فى رثائه ، لأن ذلك ليس من سليقته ولا طبعه . على أن الحوادث التى نزلت به قلبته فى بعض أقواله شاعراً حكيما ، يأتى بالحكمة البالغة والمثل الرائع ، إذا شكا حاله أشكى غيره ، وإن بكى أمره أبكى سواه معه . أنظر إليه وقد فكر فى عاقبة أمره فأظلم الغيب أمام عينيه ، وأشكلت عليه نهايته فشكى دهره ، وبكى على ما ألم بنفسه ، وتوقع ما غال آباءه من قبله فقال :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب[1]
عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلحة الذئاب[2]
فبعض اللوم عاذلتى فإنى ستكفينى التجارب وانتسابى[3]
إلى عرق الثرى وشجت عروقى وهذا الموت يسلبنى شبابى[4]
ونفسى سوف يسلبها وجرمى فيلحقنى وشيكا بالتراب[5]

ثم تذكر ما كان له أيام عزه فقال :

ألم أنض المطى بكل خرق أمق الطول لماع السراب[6]

---

(١) موضعين سائرين والإيضاع ضرب من السير، ولأمر غيب أى لأمر لا علم لنا به . ونسحر أى نغذى .

(٢) الذبان الذباب . والعصافير ضعاف الطير وصغارها . والمجلحة المصممة من التجليح وهو الإقدام والتصميم .

(٣) العاذلة اللائمة .

(٤) عرق الثرى مادة التراب فى الأرض وقال القتيبى عرق الثرى آدم عليه السلام . وشجت أى اتصلت واشتبكت .

(٥) الجرم الجسد وقوله وشيكا أى سريعاً؛ وانظر كيف أبدع فى تقسيمه السلب فابتدأ أولا بسلب الشباب ثم سلب النفس ثم سلب الجسد حسبما يكون .

(٦) أنض المطى أى أهزل المطايا من طول السير والعمل . والخرق الفلاة الواسعة . والأمق الطويل . والسراب ما يبدو وقت الظهيرة للمسافر فى الصحراء كأنه ماء .

وأركب في اللهام المجر حتى ... أنال مآكل القحم الرغاب (١)
وكل مكارم الأخلاق صارت ... إليه همتي وبه اكتسابي (٢)

وانتقل بعد ذلك إلى التفجع على آبائه والحكم على الدهر بالقسوة ، وإلى أنه عما قريب سيلقى منيته كما لقيها من سبقه ، فقال :

وقد طوفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب
أبعد الحارث الملك بن عمرو ... وبعد الخير حجر ذي القباب (٣)
أرجى من صروف الدهر لينا ... ولم تغفل عن الصم الهضاب (٤)
وأعلم أنني عما قليل ... سأنشب في شبا ظفر وناب (٥)
كما لاقى أبي حجر وجدي ... ولا أنسى قتيلا بالكلاب (٦)

ومما يستحسن له من شعره في هذا الطور قصيدته التي يمدح فيها سعداً ابن الضباب قال :

لعمرك ما قلبي إلى أهله بحر ... ولا مقصر يوما فيأتيني بقر (٧)
ألا إنما الدهر ليال وأعصر ... وليس على شيء قويم بمستمر (٨)
ليال بذات الطلح عند محجر ... أحب إلينا من ليال على أقر (٩)

---

(١) اللهام الجيش الكثير العدد . والمجر الثقيل المتئد في سيره . والقحم جمع قحمة وهي الدفعة الكثيرة من المال أو غيره . والرغاب الواسعة .

(٢) لما طال عليه تعداد الفضائل في الأبيات السابقة أجملها في هذا البيت بأن قال كل خلق كريم وفعل جميل أحبته همتي وأكسبتني إياه وهذا بيت فاضل من أحسن ما قيل في الشعر العربي .

(٣) لم تكن القباب معروفة في الجاهلية إلا للملوك .

(٤) الصم الصلبة المصمتة . والهضاب الصخور الضخمة الراسية .

(٥) سأنشب أي سأعلق على أمر لا انفكاك منه . والشبا الحد ، يعني ستنشب المنية في أظفارها وأنيابها .

(٦) قتيل الكلاب هو شرحبيل عم امرىء القيس .

(٧) بحر أي أن قلبه لم يصبر . ولا مقصر أي ولا نازع عما هو عليه من الحب . والقر القرار من الاستقرار .

(٨) قويم أي مستقيم .

(٩) ذات الطلح أرض فيها شجر الطلح . ومحجر موضع ببلاد طيء . وأقر واد واسع .

أغادى الصبوح عند هر وفرتنا   وليداً وهل أفنى شبابى غير هر [1]
إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة   معتقــة مما تجيء به التجر [2]
هما نعجتان من نعاج تبالة   لدى جؤذرين أو كبعض دمى هكر [3]
إذا قامتا تضوع المسك منهما   برائحة من اللطيمة والقطر [4]
كأن التجار أصعدوا بسبيئة   من الخص حتى أنزلوها على يسر [5]
فلما استطابوا صب فى الصحن نصفه   وشجت بماء غير طرق ولا كدر [6]
بماء سحاب زل عن متن صخرة   إلى بطن أخرى طيب ماؤها خصر [7]
لعمرك ما إن ضرنى وسط حمير   وأقوالها إلا المخيلة والسكر [8]
وغير الشقاء المستبين فليتنى   أجر لسانى يوم ذلكم مجر [9]

ثم انتقل إلى مدح سعد اقتضاباً فقال :

لعمرك ما سعد بخلة آثم   ولا نأنأ يوم الحفاظ ولا حصر
لعمرى لقوم قد نرى فى ديارهم   مرابط للأمهار والعكر الدثر
أحب إلينا من أناس بقنة   يروح على آثار شائهم النمر

---

(١) الصبوح شرب الغداة وقوله أغادى الصبوح أى أشرب الخمر فى الغداة أى أول النهار.
(٢) المدامة الخمر .والمعتقة القديمة . والتجر جمع التجار والتجار جمع تاجر .
(٣) تبالة مدينة خصبة باليمن . وهكر مدينة أيضاً باليمن . والجؤذر ولد البقر . والدمى جمع دمية وهى الصورة المجسدة .
(٤) تضوع فاح وانتشر . واللطيمة ضرب من المسك الأزفر . والقطر العود .
(٥) أصعدوا ساروا . والسبيئة الخمر التى اشتريت فحملت . والخص مدينة بالشام كانت مشهورة بالخمر الجيد . ويسر بلد كان يسكنه امرؤ القيس .
(٦) استطابوا أى أخذوا أطيب الماء وأعذبه . والصحن قدح كبير شبه العس العظيم . وشجت مزجت . والماء الطرق الذى بالت فيه الإبل .
(٧) الخصر البارد .
(٨) الأقوال الملوك الصغار كالأقيال . والمخيلة الخيلاء والتكبر .
(٩) المستبين الواضح . والجر شق لسان الفصيل لئلا يرضع والمراد بقوله ليتنى أجر لسانى أى فليتنى كان لسانى محبوساً أو مقطوعاً . المجر هو فاعل الجر .

يفاكهنا سعد ويغدو لجمعنا بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر
لعمري لسعد بن الضباب إذا غدا أحب إلينا منك يا فرس حمر
وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا وبر ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

عاد فى هذه القصيدة إلى لهوه ، ولكنه لم يستطع المضى فيه من غير أن تعاوده ذكريات الهموم التى أصابته إذ يقول :

لعمرك ما إن ضرنى وسط حمير وأقوالها إلا المخيلة والسكر
وغير الشقاء المستبين فليتنى أجر لسانى يوم ذلكم مجر

فهو فى هذين البيتين يبين علة فشله فى استنجاد حمير وأقيالها ، ويدعو على نفسه دعاء المحرور النادم ، ولقد مال فى هذه القصيدة إلى الهجاء ، ولكن عاطفة النبل غلبت عليه وكبحت جموحه ، فترفع عن الإقذاع على مقتضى أخلاق الملوك فلم يتجاوز حد الإشارة والتعريض فى قوله :

أحب إلينا من أناس بقنة يروح على آثار شائهم النمر

وقوله : أحب إلينا منك يا فرس حمر

يريد بذلك هانىء بن مسعود .

على أننا فى بعض الأحيان نجده شديد الوطأة على خصومه ، مقذعا فى سبابه ، فمن ذلك قوله يذم البراجم ويربوعا ودارما وآل مجاشع لخذلانهم إياه ولخذلان عمه شرحبيل من قبله :

ألا قبح الله البراجم كلها وجدع يربوعا وعفر دارما[1]
وآثر بالملحاة آل مجاشع رقاب إماء يقتنين المفارما[2]

(١) البراجم هم قوم من بنى حنظلة بن مالك وهم خمسة أخوة الظليم وكلفة وغالب وعمرو وقيس وهم من أم واحدة ولهم أخوة لأبيهم . جدع يربوعا أى قطع أنوفهم والمراد أذلها الله وكذلك عفر دارما أى أذلها وجعل وجوهها فى العفر والتراب .
(٢) آثر اختص والملحاة الملامة .

فما قاتلوا عن ربهم وربيبهم ولا آذنوا جاراً فيظعن سالما[1]
ولا فعلوا فعل العوير بجاره لدى باب هند إذ تجرد قائما[2]

فما أشد قوله :

رقاب إماء يقتنين المفارما

فإنه لم يقتصر فى سباب آل مجاشع على جعلهم رقاب نساء ، بل جعلهم رقاب إماء ، وذلك أبلغ فى الذل والدناءة ، ثم غلا فى هـذا السباب إلى أن أقذع وأفحش ، فأكد دناءة من شبههم بهن بأن جعلهن يتخذن المفارم وهى خرق تأخذها بعض النسوة الجاهليات الساقطات فى فروجهن لتضيق ، ولا يصنع هذا إلا الفواجر العواهر لكثرة ما يفعل بهن . . .

ومن محاسن شعره أيضاً فى هذا الطور قصيدته التى قال فيها :

رب رام من بنى ثعل متلج كفيه فى قتره
عارض زوراء من نشم غير باناة على وتره
قد أتته الوحش واردة فتنحى النزع فى يسره
. . . . . . إلخ

فقد مدح فيها الرامى ووصف الرماية وصفاً لا يجيده إلا من كان مثله ، وقد جرى بعض أبياتها مجرى الأمثال كقوله :

فهو لا تنمى رميته ماله لا عد من نفره

وقوله :

وخليـــل قد أفارقه ثم لا أبكى على أثره

وقوله :

وابن عم قد تركت له صفو ماء الحوض عن كدره

---

(١) ربهم سيدهم شرحبيل . والربيب الناشىء فى كنفهم وكان امرؤ القيس مسترضعا فيهم . آذنوا جارا أى أعلموه بأنهم غير ناصريه . ويظعن يرحل .
(٢) العوير هو ابن شجنة الذى أجار قطين امرىء القيس عند قتل أبيه حجر .

ولما سار امرؤ القيس إلى أرض الروم عاودته ذكرى الشباب واللهو ، فعبث فى شعره ، وقال قصيدته التى يقول فيها :

سمالك شوق بعـــد ما كان أقصرا ... وحلت سليمى بطن قو فعرعرا (١)
كنانية بانت وفى الصدر ودها ... مجاورة غسان والحى يعمرا (٢)
بعينى ظعن الحى لمـا تحملوا ... لدى جانب الأفلاج من جنب قيمرا (٣)

وجعل يصف الظاعنين بقوله :

فشبهتهم فى الآل لمـا تكمشوا ... حدائق دوم أو سفينا مقيرا (٤)
أو المكرعات من نخيل ابن يامن ... دوين الصفا اللائى يلين المشقرا (٥)
سوامق جبـار أثيث فروعـه ... وعالين قنوانا من البسر أحمرا (٦)
حمته بنو الربداء من آل يامن ... بأسيافهم حتى أقر وأوقرا (٧)
وأرضى بنى الربداء واعتم زهره ... وأكمامه حتى إذا ما تهصرا (٨)
أطافت به جيلان عنـد قطاعه ... فردت عليه الماء حتى تحيرا (٩)

وأخذ بعد ذلك فى وصف حبائبه بالطيب والنعمة ، وذكر ما كان له

---

(١) سما ارتفع . وأقصر ترك . وقو وعرعر موضعان .

(٢) بانت أى بعدت وافترقت . وكنانية أى منسوبة لكنانة . وهى قبيلة مضرية . ويعمر بطن من كنانة . وغسان اسم ماء وبه سميت قبيلة غسان .

(٣) بعينى أى بمرأى عينى وبروى بعينيك . والظعن الارتحال . والأفلاج الأنهار الصغيرة . وقيمر مدينة .

(٤) الآل السراب . وتكمشوا أخذوا فى سيرهم وجدوا به .

(٥) المكرعات من النخل التى على الماء . وابن يامن صاحب نخيل بهجر . المشقر قصر بناحية اليمامة .

(٦) سوامق مرتفعات . والجبار الفتى من النخل وهو الذى فات الأيدى فلم تنله . والأثيث الملتف بعضه على بعض . والقنوان العذوق . والبسر ما أحمر من التمر .

(٧) بنو الربداء قوم من شق البحرين ولهم بصر بالنخيل . وأقر استقر . وأوقر حمل ثمره .

(٨) اعتم زهره أى بدا صلاح بسره وتم . وأكمامه أقناعه . وتهصر تذلل .

(٩) جيلان قوم من الديلم كان كسرى يرسلهم عمالا على البحرين . والقطاع صرام النخل . حتى تحيرا أى تحير فيه الماء من كثرته وأفضل مايكون النخل إذا رسخ فى الوحل وفى رواية أخرى . تردد فيه العين والعين هنا هى عين الماء المعروفة بعين محلم بالبحرين .

مع سليمى فى سالف الدهر ؛ وجعل يعتب على أسماء ويقول لها إن الجزاء من جنس العمل : فقال :

كأن دمى سقف على ظهر مرمر ... كسا مزبد الساجوم وشيا مصورا
غرائر فى كن وصون ونعمة ... يحلين ياقوتاً وشذراً مفقرا

إلى أن يقول :

أأسماء أمسى ودها قد تغيرا ... سنبدل إن أبدلت بالود آخرا
ألا هل أتاها والحوادث جمة ... بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا (١)

وانتقل بعد ذلك إلى تذكره أهله وماهو عليه من سفر واغتراب فقال:

تذكرت أهلى الصالحين وقد أتت ... على خملى خوص الركاب وأوجرا (٢)
فلما بدا حوران والآل دونه ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا (٣)
تقطع أسباب اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا (٤)
بسير يضج العود منه يمنه ... أخو الجهد لا يلوى علىَّ تعذرا (٥)
ولا ينسنى ما قد لقيت ظعائنا ... وخملا لها كالقر يوماً مخدرا (٦)
كأثل من الأعراض من دون بيشة ... ودون الغميم عامدات بغضورا (٧)

وخرج من هذا إلى وصف ناقته ، والفخر بنفسه ، فقال :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجرا (٨)

---

(١) بيقر لهذه الكلمة معان كثيرة وأولاها بالسياق هنا أنه خرج هائماً على وجهه لا يدرى ما غبه لأن ذلك المعنى يتفق وحال امرىء القيس .

(٢) خملى وأوجر موضعان . والخوص الغائرات العيون واحدها أخوص أوخوصاء .

(٣) حوران جبل بالشام . والآل السراب .

(٤) حماة وشيزر مدينتان بالشام .

(٥) العود المسن من الإبل . ويمنه يضمنه . وأخو الجهد أى المجتهد الشديد . لا يلوى على لايلتفت إلى . والتعذر تقديم العذر .

(٦) الظعائن النساء فى الهودج . والخمل الظعينة . والقر الهودج . والمخدر المستور .

(٧) الأثل شجر . والأعراض الأودية . وبيشة موضع كثير الأسد وقيل ناحية الطائف . والغميم واد بديار حنظلة . وغضور موضع .

(٨) الجسرة الناقة القوية الطويلة . وذمول أى سريعة . وصام النهار أى قامت الظهيرة . وهجر من الهاجرة عند اشتداد الحر .

تقطع غيطانا كأن متونها ... إذا أظهرت تكسى ملاء منشرا (١)
بعيــدة بين المنكبين كأنما ... ترى عندى مجرى الضفر هرا مشجرا (٢)
تطاير ظران الحصى بمناسم ... صلاب العجى مثلومها غير أمعرا (٣)
كأن الحصى من خلفها وأمامها ... إذا نجلته رجلها حذف أعسرا (٤)
كأن صليـل المرو حين تشذه ... صليل زيوف ينتقدن بعبقرا (٥)
عليها فتى لم تحمل الأرض مثله ... أبر بميثاق وأوفى وأصبرا (٦)
هو المنزل الآلاف من جو ناعط ... بنى أسد حزنا من الأرض أوعرا (٧)
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ... ولكنه عمدا إلى الروم أنفرا (٨)

وذكر بعد ذلك جزع صاحبه عمرو بن قميئة ، وكان فى ركابه إلى قيصر ، وأردف ذلك بوصف الفرس ، فقال :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا
وإنى زعيم إن رجعت مملكا ... بسير ترى منه الفرانق أزورا (٩)

---

(١) الغيطان واحدها غائط وهو المطمئن من الأرض . أظهرت أى دخلت فى وقت الظهيرة والملاء المنشر الثوب المبسوط .

(٢) المنكب رأس العضد . والضفر حبل يفتل من شعر وهو من أطناب الهودج . والهر القط . والمشجر المربوط المعلق .

(٣) الظران قطع من الحجارة محدودة . والعجى جمع عجاية وهى عصبة فى باطن يد الناقة. ومثلومها يريد خفها الذى ثلمته الحجارة . وغير أمعر أى لم يذهب شعره .

(٤) نجلته أى رمته بمناسمها . والحذف الرمى . والأعسر الذى يعمل بيديه جميعاً .

(٥) صليل المرو صوت الحجارة . وتشذه تطيره والزيوف الدراهم الخالية من الفضة . وعبقر موضع باليمن كانت دراهمه زيوفا وزعموا أن عبقراً واد كثير الجن .

(٦) قوله فتى يعنى نفسه . والميثاق العهد .

(٧) ناعط جبل باليمن فى أرض همدان . والحزن الوعر من الأرض .

(٨) العمد القصد . وقوله أنفر أى أنفر أصحابه يريد أغزاهم يقول لو شاء أن يغزوهم من أرض حمير لفعل ولكنه أراد أن يستعمل من بالروم مبالغة فى طلب ثأره .

(٩) زعيم أى كفيل . والفرانق الأسد . والأزور المائل .

على لاحب لا يهتدى بمناره ... إذا سافه العود النباطى جرجرا (١)
على كل مقصوص الذنابى معاود ... بريد السرى بالليل من خيل بربرا (٢)
أقب كسرحان الغضى متمطر ... ترى الماء فى أعطافه قد تحدرا (٣)
إذا زعتــــه من جانبيه كليهما ... مشى الهيدبى فى دفه ثم فرفرا (٤)
إذا قلت روحنــا أرن فرانق ... على جلعد واهى الأباجل أبترا (٥)

وأخذ بعد ذلك فى شكاية حاله ، وذكر مآله ، وجعل يبكى على أيامه الخوالى ، فقال :

لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها ... ولا ابن جريج فى قرى حمص أنكرا (٦)
نشيم بروق المزن أين مصابه ... ولا شىء يشفى منك يا ابنة عفزرا (٧)
من القاصرات الطرف لو دب محول ... من الذر فوق الإتب منها لأثرا (٨)
له الويل إن أمسى ولا أم هاشم ... قريب ولا البسبـــاسة ابنة يشكرا
أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا ... بكاء على عمرو وما كان أصبرا

---

(١) اللاحب الطريق الواضح . والمنار العلامة توضع على الطريق للاهتداء بها وقوله لا يهتدى بمناره أى ليس له منار يهتدى به . والعود الجمل المسن . وسافه أى شمه . والنباطى الضخم . وجرجر أى رغا وضج .

(٢) مقصوص الذنابى أى محذوف الذنب وقد كانت العادة أن تحذف أذناب خيل البريد ليكون ذلك علامة لها . معاود أى معتاد السير . وبريد السرى رسول السير ليلا . وبربر قبيلة معروفة بالقيام على خيل البريد .

(٣) الأقب الضامر . والسرحان الذئب. والغضى شجر . ومتمطر أى سابق. وأعطافه نواحيه. ويريد بالماء العرق .

(٤) الزوع الجذب باللجام . والهيدبى ضرب من المشى السريع. ودفه جنبه . وفرفر نفض رأسه .

(٥) روحنا أرحنا من تعب السير . أرن فرانق أى صاح أسد . والجلعد القوى الغليظ. والأباجل جمع أبجل وهو عرق الأكحل . وابتر أى محذوف الذنب . وقوله واهى الأباجل أى ممدود عروق الأكحل .

(٦) بعلبك مدينة بالشام . وقوله لقد أنكرتنى أى لم يعرف فيها قدرى .

(٧) نشيم تنظر. بروق المزن لمعان السحاب. وأين مصابه أى أين يقع مطره .

(٨) من القاصرات أى من النساء اللاتى حبسن أعينهن على أزواجهن . والمحول الذى أتى عليه حول .

إذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة ... وراء الحساء من مدافع قيصرا[١]
إذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرت به العينان بدلت آخرا
كذلك جدى ما أصاحب صاحباً ... من الناس إلا خانني وتغيرا[٢]
وكنا أناساً قبـــل غزوة قرمل ... ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا
وما جبنت خيلي ولكن تذكرت ... مرابطها من بربعيص وميسرا[٣]
ألا رب يوم صالح قد شهدته ... بناذف ذات التل من فوق طرطرا[٤]
ولا مثل يوم فى قذاران ظلته ... كأني وأصحابي على قرن أعفرا[٥]
ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا ... نقاداً وحتى نحسب الجون أشقرا[٦]

وقد جمعت هذه القصيدة صفات شعره فى الطور الأول ، فإنه شبب فيها ، وذكر المعاهد والأماكن التى مر عليها فى طريقه .

وأنت تجد أن هذا الشعر صادر عن نفس نبيلة لا تلهيها قسوة الزمن عن الحديث عن الشرف والمجد والنبالة ، ألا ترى إلى قوله وهو يعالج هما ويتقلب على أشواك غربة ومحنة .

فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومن شعره فى هذا الطور أيضاً قصيدته التى مطلعها :

---

(١) الحساء مواضع سهلة يستنقع فيها الماء ومفردها حسى . والمدافع المواضع التى يحميها ويدفع عنها ومعنى البيت إذا توغلنا فى بلاد قيصر .
(٢) جدى أى حظى .
(٣) بربعيص وميسر موضعان .
(٤) ناذف وطرطر موضعان بالشام أوقع فيهما بعدوه . وقد وصف اليوم بالصلاح لأنه نال فيه ما تمنى .
(٥) قذاران موضع كان ظفره فيه أكثر من ظفره بناذف . وظلته أى ظللته . وقرن أعفر أى قرن ظبي، يشير إلى الحذر والأخذ بالحزم وإلى أنه وأصحابه كانوا فى هذا الموضع على غير استقرار وطمأنينة .
(٦) نشرب نسكر . والنقاد صغار الضأن . والجون الأبيض خالطة سواد أو الأسود مازجه بياض يعنى أنهم كانوا يشربون حتى يذهب تمييزهم بين الأشياء المتباينة .

ألما على الربع القديم بعسعسا ... كأني أنادى أو أكلم أخرسا(١)

وفيها يقول :

فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا ... وجدت مقيلا عندهم ومعرسا(٢)
فلا تنكرونى إننى أنا ذاكم ... ليالى حل الحى غولا فألعسا(٣)
تأوبنى دائى القـــديم فغلسا ... أحاذر أن يرتد دائى فأنكسا(٤)
فإما ترينى لا أغمض ساعـــة ... من الليل إلا أن أكب فأنعسا(٥)
فيارب مكروب كررت وراءه ... وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا(٦)
ويا رب يوم قد أروح مرجلا ... حبيباً إلى البيض الكواعب أملسا(٧)
يرعن إلى صوتى إذا ما سمعنه ... كما ترعوى عيط إلى صوت أعيسا(٨)
أراهن لا يحببن من قل ماله ... ولا من رأين الشيب فيه وقوسا(٩)
وما خلت تبريح الحياة كما أرى ... تضيق ذراعى أن أقوم فألبسا(١٠)
فلو أنها نفس تموت جميعـــة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا(١١)

---

(١) ألما أى انزلا وعسعس موضع وقيل المراد انزلا فى أدبار الليل وآخره .

(٢) كعهدنا أى كما عهدناهم نزولا فيها. والمقيل موضع النزول فى نصف النهار. والمعرس موضع النزول فى آخر الليل .

(٣) غول وألعس موضعان .

(٤) تأوب أى جاء مع الليل وقوله فغلس أى فى الغلس. وانكس أى يعاودني دائي القديم وفى هذا البيت يشير امرؤ القيس إلى أن التقرح الذى أصابه عند اقتراب منيته كان قد أصابه قبل ثم عاد إليه وهذا يرجح ما ذهبنا إليه من أن وفاته كانت بالجدرى وأن الحلة المسمومة من مزاعم التاريخ .

(٥) أكب أى انحنى .

(٦) المكروب الواقع فى كربة . وقوله حتى تنفس أى حتى دفعت عنه أعداءه وانفرج الموقف أمامه .

(٧) المرجل المسرح الشعر. والكواعب جمع كاعب وهى الجارية التى تكعب ثدياها. وأملس أى لم تنبت عارضتاه .

(٨) يرعن أى يرجعن ويلتفتن. والعيط جمع عيطاء وهى الناقة الفتية التى لم تحمل والأعيس الفحل الذى يضرب بياضه إلى الحمرة .

(٩) قوس أى انحنى ظهره لكبر سنه .

(١٠) التبريح شدة البلاء .

(١١) قوله تموت جمية أى أنى لو أموت بدفعة مرة واحدة ولكن نفسى لما بها من المرض تقلع قليلا قليلا وتخرج شيئاً فشيئاً وهذا من طول المرض وشدته .

وبدلت قرحا دامياً بعد صحة ... فيالك من نعمى تحولن أبؤسا[١]
لقد طمح الطماح من نحو أرضه ... ليلبسنى من دائه ما تلبسا[٢]
ألا إن بعد العدم للمرء قنوة ... وبعد المشيب طول عمر وملبسا[٣]

ويدل قول امرىء القيس :

وبدلت قرحا دامياً بعد صحة ... فيالك من نعمى تحولن أبؤسا
لقد طمح الطماح من نحو أرضه ... ليلبسنى من دائه ما تلبسا

على أنه قال تلك القصيدة بعد ارتحاله عن ديار قيصر ، وحين أصابه ما أصابه من تقرح بدنه عند اقتراب منيته .

ومن محاسن شعره فى هذا الطور أيضاً قصيدته العينيـــة التى بدأها بتوديعه الصبا وحنينه إلى أيامه وذكر ما كان له فى تلك الأيام من لهو ومرح قال :

أصبحت ودعت الصبا غير أننى ... أراقب خلات من العيش أربعا
فمنهن قولى للنـــدامى ترفقوا ... يداجون نشاجا من الخمر مترعا[٤]
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا ... يبادرن سرباً آمناً أن يفزعا
ومنهن نص العيس والليل شامل ... ييممن مجهولا من الأرض بلقعا[٥]
خوارج من برية نحو قرية ... يجددن وصلا أو يرجين مطمعا
ومنهن سوف الخود قد بلها الندى ... تراقب منظوم التمائم مرضعا[٦]
يعز عليها ريبتى ويسوءها ... بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعا

إلى أن يقول :

إذا أخذتها هزة الروع أمسكت ... بمنكب مقدام على الهول أروعا

---

(١) أبؤس جمع بؤس وهو البلاء والشدة .
(٢) طمح تطر عن بعد .
(٣) العدم الفقر والشدة . والقنوة الغنى والرخاء .
(٤) النشاج زق الخمر .
(٥) نص العيس أى سوق الإبل. وييممن يقصدن. وبلقع أى خال .
(٦) الخود الغادة الحسناء وقوله سوف الخود أى شمها .

وكان بين امرىء القيس وبين سبيع بن عوف بن مالك بن حنظلة قرابة ، فنزل سبيع على امرىء القيس ، وسأله فلم يعطه شيئاً فقال سبيع أبياتاً يعرض فيها بامرىء القيس ، فرد عليه أمير الشعر بقصيدة جرى فيها على عادة القدامى فبدأها بذكر الديار والأطلال فقال :

لمن الديار غشيتها بسحام   فعمايتين فهضب ذى أقدام(١)
فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر   تمشى النعاج بها مع الآرام(٢)
دار لهنـــد والرباب وفرتنا   ولميس قبل حوادث الأيام
عوجا على الطلل المحيل لأننا   نبكى الديار كما بكى ابن حزام(٣)

وتدرج من ذلك إلى التشبيب بصواحبه فى غزل رقيق فقال :

أو ما ترى أظعانهن بواكرا   كالنخل من شوكان حين صرام(٤)
حور تعلل بالعبير جلودها   بيض الوجوه نواعم الأجسام(٥)

ثم وصل ذلك بذكر معتق الخمر وما تفعله فى جسم شاربها فقال :

فظللت فى دمن الديار كأننى   نشوان باكره صبوح مدام(٦)
أنف كلون دم الغزال معتق   من خمر عانة أو كروم شبام(٧)
وكأن شاربها أصاب لسانه   موم يخالط جسمه بسقام(٨)

---

(١) سحام وما بعدها أسماء مواضع . والهضب جمع هضبة وهى القطعه من الجبل .
(٢) صفا الأطيط وصاحتان وعاصر أسماء مواضع . والنعاج بقر الوحش . والآرام من الغزلان .
(٣) عوجا عرجا واعطفا . والطلل المحيل الذى أتت عليه الأحوال فغيرته . وابن حزام رجل بكى الديار قبل امرىء القيس .
(٤) بواكر مبكرات . وشوكان موضع . وصرام النخل قطافه .
(٥) حور جمع حوراء والحور من علامات الجمال وهو شدة بياض العين وشدة سوادها . وقوله تعلل بالعبير جلودها أى تطيب جلودها بالطيب والزعفران مرة بعد مرة .
(٦) الدمن آثار السكان . والنشوان السكران . وباكره عجل إليه . والصبوح الشرب صباحاً .
(٧) يقال كأس أنف أى لم يشرب من دنها أحد قبله . ودم الغزال أشد الدماء حمرة ولذلك شبهها به . وعانة وشبام موضعان تطيب فيهما الخمر .
(٨) الموم مرض يهذى فيه .

وانتقل من هذا إلى وصف ناقته وسرعة سيرها فقال :

وبجـــدة نسأتها فتكمشت رتك النعامة فى طريق حام(١)
تخدى على العلات سام رأسها روعاء منسمها رثيم دام(٢)
فجزيت خير جزاء ناقة واحد ورجعت سالمة القرى بسلام(٣)

وخرج من ذلك كله إلى تهكمه بسبيع تهكما دونه حد المواسى ، فقال :

أبلغ سبيعاً إن عرضت رسالة أنى كظنك إن عشوت أحامى(٤)
فاقصر إليك من الوعيد فإننى مما ألاقى لا أشـــد حزامى(٥)

واستطرد بعد ذلك إلى فخره على سبيع وذكر شجاعته وبطشه وكرم محتده وعنصره فقال :

وأنا المنبه بعـــد ما قد نوموا وأنا المعالن صفحة النوام(٦)
وأنا الذى عرفت معد فضله ونشدت عن حجر بن أم قطام(٧)

إلى أن يقول :

وأنازل البطـــل الكريه نزاله وإذا أناضل لا تطيش سهامى(٨)

---

(١) وبجدة أى رب ناقة. ونسأتها أى دفعتها بالمنسأة وهى العصى . وتكمشت أسرعت. وقوله رتك النعامة أى تهتز فى سيرها اهتزاز النعامة. وحام حار متوهج والنعامة إذا مشت فى الرمضاء جرت جرياً شديداً

(٢) تخدى تسرع. والعلات جمع علة . وسام مرتفع . وروعاء قوية القلب . ومنسمها طرف خفها . والرثيم الملطخ بالدم .

(٣) القرى الظهر .

(٤) عشوت أى نظرت نظراً ضعيفاً . وأحامى أدافع .

(٥) اقصر إليك من الوعيد أى أمسك عليك وعيدك . وقوله لا أشد حزامى أى لست فى حاجة إلى أن استعد لمثلك .

(٦) قوله وأنا المنبه بعد ماقد نوموا أى أغير على أعدائى فأنبههم وأواجههم وهم مستيقظون بالقتال وذلك لاقتدارى عليهم والمعالن الذى يقابل القوم وجهاً لوجه .

(٧) نشدت أى رفعت ذكره فى الناس .

(٨) أنازل أقاتل وأناضل أى أرمى بالسهام. وقوله لا تطيش سهامى أى لا تتجاوز الغرض ولا تخطىء المرمى .

وقد كان امرؤ القيس يسخر بشيء من عادات الجاهلية ويظهر أثر هذه السخرية فى نصيحته لهند إذ يقول لها:

أيا هند لا تنكحى بوهة   عليه عقيقته أحسبا[١]
مرسغة بين أرساغه   به عسم يبتغى أرنبا[٢]
ليجعل فى كفه كعبها   حذار المنية أن يعطبا[٣]
ولست بخزرافة فى القعود   ولست بطياخة أخدبا[٤]
ولست بذى رثية إمر   إذا قيدمستكرهاً أصحبا[٥]

(١) البوهةالبومة العظيمة وقال الخليل الرجل الضعيف . والعقيقة الشعر الذى يولد به الطفل. والأحسب الذى ابيضت جلدته وفسدت شعرته .

(٢) المرسغة الرجل الذىفسدت عينه وتغيرت.والأرساغ جمع رساغ وهو سير يضفر ويشد فى الساق إلى وتد فيمنعه من المشى. والعسم يبس فى المرفق يعوج منه الكف .

(٣) أى أنه جاهل يظن أن كعب الأرنب إذا علقه على كفه دفع عنه الموت وهذه أشياء كانت العرب تعتقدها ومنها أن الرجل كان إذا قدم على بلد فيه وباء فصاح صيحة الحمير عشراً وقى وخمها وشرها ومنها أنهإذا أصابتالصبي عين فعلقعليه عقد من بلح ورقى له فى الماء وصب عليه زال ذلك .

(٤) الخزرافة الكثير الكلام الخفيف والطياخة الذى لايزال يقع فى بلية وسوء والأخدب الذى يركب رأسه ولا يتمالك عن الحمق والجهل .

(٥) الرثية مرض المفاصل وهو الروماتيزم.والأمر الضعيف من الرجال الطواعية.وقوله إذا قيد مستكرها أصحبا أى إذا دعى لأمر يكرهه انقاد إلى من دعاه وصحب من قاده .

حول مآخذ العلماء

على

امرىء القيس فى أشعاره

عاب الباقلانى ومن على شاكلته من أهل النظر الغابر على امرىءالقيس قوله فى معلقته .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

فقالوا : « إنه استوقف من يبكى لذكرى الحبيب ، وذكراه لا تقتضى بكاء الخلى ، وإنما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا على أن يبكى لبكائه ويرق لصديقه فى شدة برحائه ، فأما أن يبكى حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال ، فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضاً عاشقاً صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر ، لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه والتواجد معه فيه . ثم فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأماكن من الدخول وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللوى ، وقد كان يكفيه فى التعريف بعض هذا . وهذا التطويل إن لم يفد كان ضرباً من العى » .

وذلك منهم تحامل ما كان ينبغى ، فإن الشاعر وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر العهد والمنزل والحبيب وتوجع واستوجع . كل ذلك فى بيت واحد مما جعل الأدباء يعدونه بحق من أجود مطالع الشعر العربى وضربوا بحسنه المثل فقالوا (أحسن من قفا نبك) ولكى نخلص هذا الشعر من الشبه التى قامت برءوس النقاد وحامت حوله نقول إن الشاعر أراد بالحبيب

والمنزل الجنس فكأنه قال ليقف كل منا يبكى صفاء عيشه وتمتعه بحبيبته فى تلك المنازل الشاغـــلة لتلك النواحى التى سماها حيث الدخول فحومل فتوضع فالمقراة .

وقالوا أيضاً (كان ينبغى أن يقول لما نسجها ولكنه تعسف فجعل (ما) فى تأويل التأنيث ، لأنها فى معنى الريح والأولى التذكير دون التأنيث وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف)

ولكن التعسف منهم لا منه فإن اللغة تجيز له قوله فقد قال التبريزى « قوله لما نسجتها (ما) فى معنى تأنيث والتقدير للريح التى نسجت المواضع والهاء تعود على الدخول وحومل وتوضح والمقراة ونسجت صلة ما، وما فيه من الضمير يعود على ما »

وقال بعض أئمة اللغة يجوز أن يكون ما فى معنى المصدر يذهب إلى أن التقدير لنسجها الريح أى لنسجتها الريح ، ثم أتى بمن مفسرة فقال من جنوب وشمأل ، فى نسجت ذكر الريح ، لأنه لما ذكر المواضع والنسج والرسم دلت على الريح فكنى عنها لدلالة المعنى عليها .

وفوق هذا كله فإن فى البيت رواية أخرى تدفع توهمهم وهى :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجته من جنوب وشمأل

والهاء تعود على الرسم .

وقالوا أيضاً « كان ينبغى أن يقول لم يعف رسمه ، لأن الضمير يعود على المنزل وهو مذكر ، وإعادته على الأماكن والبقاع المساقة التى المنزل واقع بينها فذلك خلل ، لأنه إنما يريد صفة المنزل الذى رحل عنه حبيبه ، ولم يبق سوى أن أعاده على المنزل مؤولا له بالدار » وهم ينكرون ذلك التأويل تأويل المنزل بالدار ويزعمونه خللا ولكننا نقول لهم إن أبا عمرو قال سمعت أعرابياً يقول (فلان لغوب جاءته كتابى فاحتقرها) قال أبو عمرو . فقلت : أتقول جاءته كتابى ؟ فقال أليس بالصحيفة ؟! . وقال

بعض العلماء (الأظهر أن رسوم المنازل حيث كانت بهذه الأماكن صحت إضافتها إليها)

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

وقوفا بها صحبي على مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عـــبرة مهراقة   فهل عند رسم دارس من معول

فقال « ليس فى البيتين معنى بديع ولا لفظ حسن » ونحن نقول له : إن ألفاظ هذين البيتين حوك العذوبة ونسج الرقة ، وإنها لتتسابق فى الوصول إلى السمع والتغلغل فى القلب ، فأى لفظة فيها حوشية مستكرهة أو ساقطة متسفلة . فما أجمل الصحب والوقوف بهم على المطى ، وما أشهى التحمل وعدم التهلكة من الأسى ، وما أندى على الفؤاد تلك العبرة المهراقة ، وما أجدى إلى النفس معولا عند رسم دارس . أما عن بداعة المعنى الذى ينكره الباقلانى فإنا لا نوافقه على ذلك ونرى أن امرأ القيس أفاد وأجاد فقد أوقف أصحابه عليه بمطيهم يواسونه فى آلامه وبرحائه ، ويعينونه على الصبر والجلد ، يقولون له عنك والأسى لا تهلك ، ولكن امرأ القيس يرى أن وجده لا تنفع حياله كلمات السلوان ، وأن شفاءه من آلامه عبرة مهراقة لو استطاع إليها سبيلا ، فإن دمعه عصى ، ولا يجدى البكاء عند الرسم الدارس .

وعلى ذلك فانتقاد الباقلانى لمعنى البيتين ولفظهما ضرب من التحامل ، وتوهم عرى من الفائدة ، وليس أدل على ما ذهبنا إليه من حسن هذين البيتين من أن طرفه بن العبد أخذ بيت امرىء القيس الأول بجملته وأدخله فى معلقته بلفظه ونظمه وترتيبه .

وقال الباقلانى فى نقد هذين البيتين أيضاً « قوله بها متأخر فى المعنى وإن تقدم فى اللفظ ففى ذلك تكلف وخروج من اعتدال الكلام » والحق عندى أنه لا تكلف ولا خروج من اعتدال الكلام وإن كان قوله (بها) متأخراً

فى المعنى متقدما فى اللفظ فليس ذلك بضائر أمير الشعر ولا منزل من قدره ما دام كلامه جارياً على قوانين النحو وأساليب العرب ، وليس فيه تعسف ولا تعقيد .

وقال الباقلانى أيضاً « البيت الثانى مختل من جهة أنه قد جعل الدمع فى اعتقاده شافياً كافياً ، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى ، وتحمل ومعول عند الرسم الدارس ، ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ، ثم يسائل هل عند الربع من حيلة أخرى »

وكأنى بالباقلانى آجره الله لا يعلم أن المعهود عند الناس جميعاً أن فى البكاء راحة وترفيهاً عن المحزون ، فما يريده الشيخ خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها ، لأن من شأن الدمع أن يطفىء ويبرد حرارة الحزن ، ويزيل شدة الوجد ، ويعقب الراحة ، وهو فى أشعارهم كثير موجود ينحى به هذا النحو من المعنى ، فمن ذلك قول امرىء القيس الذى ينكره عليه الباقلانى :

وإن شفائى عبرة مهراقة　　　فهل عند رسم دارس من معول

وقول ذى الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة　　　من الوجد أو يشفى نجى البلابل

وقول الحسن بن وهب :

أبك فما أكثر نفع البكا　　　والحب إشفاق وتعليل
وهو إذا أنت تأملته　　　حزن على الخدين محلول

وقول الفرزدق :

فقلت لها إن البكاء لراحة　　　به يشتفى من ظن أن لا تلاقيا

وقول أبى تمام :

واقعاً بالخدود والبرد منه　　　واقع بالقلوب والأكباد

وقوله أيضاً :

فلعل عينك أن تجود بمائها   والدمع منـــه خاذل ومواسى

وقوله أيضاً :

فلعل عبرة ساعة أذريتها   تشفيك من أرباب وجد محول

وقوله أيضاً :

نثرت فريد مـــدامع لم تنتظم   والدمع يحمل بعض ثقل المغرم

وهذا كثير فى أشعار العرب ، ولو أن واحداً من الشعراء خرج عن ذلك المألوف — الذى ظنه الباقلانى عيباً وما هو بالعيب — لـكان معيباً، ولذلك نرى الآمدى يعيب على أبى تمام قوله :

ظعنوا فكان بكاى حولا بعدهم   ثم ارعويت وذاك حكم لبيد
أجدر بجمرة لوعة إطفاؤها   بالدمع أن تزداد طول وقود

فقال لو كان أبو تمام اقتصر على المعنى الذى جرت به العادة فى وصف الدمع لكان المذهب المستقيم ، ولـكنه أحب الإغراب ، فخرج إلى ما لا يعرف من كلام العرب ، ولا مذاهب سائر الأمم ، وقد تبعه على الخطأ البحترى فقال :

فعلام فيض مدامع تدق الجوى   وعذاب قلب فى اجتناب معذب

وعلى ذلك فما يريده الباقلانى خروج إلى ما لا يعرف من كلام العرب ولا مذاهب سائر الأمم ، ومن هذا نرى أنه لو جاء بيت امرىء القيس كما يريده الباقلانى لكان معيباً مخالفاً للمألوف ، ومشتملا على غلو ومبالغة مرذولة غير مقبولة ، على أن فى البيت رواية أخرى وهى :

وإن شفائى عبرة إن سفحتها

وفى هذه الرواية نرى امرأ القيس جعـل فى العبرة شفاءه ولـكن هذه العبرة متوقفة فى الوجود على الشرط الذى بعدها ، وهو قوله (إن سفحتها)

ولفظة (إن) فى هذا البيت محتملة معنى الشك وينبنى على هـذا الشك أن سفح العبرة غير حاصل ، وعلى ذلك فالشفاء غير متوقع ، فكأنه يقول إن شفائى عبرة إن سفحتها ، وأنىّ لى ذلك ، وقد غاض المعين وأجدب المرعى .

* * *

وعيب على امرىء القيس قوله :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

قالوا إنه أكذب نفسه بعد ذلك فقال :

وهل عند رسم دارس من معول

وذلك العيب مردود أيضاً ، فليس قوله (وهل عند رسم دارس من معول) مناقضاً لقوله (لم يعف رسمها) لأن معناه لم يعف رسم حبها من قلبى وإن نسجتها ريح الجنوب وريح الشمال وكانت فى نفسها وحقيقتها دارسة ، وقيل إن معنى (لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل) أنها لم يعف رسمها للريح وحدها وإنما عفا للمطر والريح ومر السنين وغير ذلك من أحداث الزمن . وقال الأصمعى أيضاً معنى (وهل عند رسم دارس من معول) أنه قد درس بعضه ولم يدرس كله كما تقول درس كتابك أى ذهب بعضه وبقى بعضه . ومن كل هذا نرى أن الشاعر ما أكذب نفسه ولا ناقضها .

* * *

وعاب عليه الباقلانى وأضرابه قوله :

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

فقالوا فى نقده « ولو أراد أن يجود هذا البيت لأفاد أن بها طيباً على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير . وقالوا أيضاً إنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبهه بريا القرنفل » وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص ، لأنه بدل أن يترقى من الأدنى إلى الأعلى انحدر من الأعلى إلى الأدنى ، وهذا معيب »

ويرد على العيب الأول بأنه جرى على المعروف من أن الرائحة الطيبة تفوح بقوة زائدة متى وقع الجسم الذى تقوم به فى حركة لتموج الهواء الذى تنتشر به الرائحة .

وردنا على العيب الثانى أن غرض امرىء القيس تشبيه انتشار رائحتها الطيبة عند قيامها بانتشار الرائحة الذكية التى يهب عليها النسيم أياً كان مبعثها وليس مراده تشبيه نفس الرائحة بالقرنفل بعد أن شبهها بالمسك . وعلى ذلك فليس هناك انحدار فى المعنى من الأعلى إلى الأدنى ، لأن المعنى مبنى على مطلق تشبيه رائحتها برائحة ذكية .

وجاء فى خزانة الأدب الكبرى أن هذا البيت (إذا قامتا ... إلخ) قد اتسع النقاد فى تأويله ، فمن قائل تضوع المسك منهما بنسيم الصبا ، ومن قائل تضوع نسيم الصبا منهما ، ومن قائل تضوع المسك منهما تضوع نسيم الصبا — وهذا هو الوجه — ومن قائل تضوع المسك منهما بفتح الميم — يعنى الجلد — بنسيم الصبا . وقال ابن المستوفى فى شرح أبيات المفصل : حدثنى الإمام أبو حامد سليمان قال : كنا فى خوارزم وقد جرى النظر فى بيت امرىء القيس :

إذا قامتا تضوع المسك منهما   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

فقالوا كيف شبه تضوع المسك بنسيم الصبا والمشبه ينبغى أن يكون مثل المشبه به والمسك أطيب رائحة ؟ وطال القول فى ذلك فلم يحققوه . وكان سألنى عنه فأجبت لوقتى ، إنه شبه حركة المسك منهما عند القيام بحركة نسيم الصبا ، لأنه يقال تضوع الفرخ أى تحرك ، ومنه تضوع المسك تحرك وانتشرت رائحته ، وذلك أن المرأة توصف بالبطء عند القيام ، فحركة المسك تكون إذاً ضعيفة مثل حركة النسيم وانتشاره كانتشاره فالتشبيه صحيح ، والنسيم الريح الطيبة ، ونسيم الريح أولها حين تقبل بلين ، ولقائل أن يقول إن نسيم الصبا وهو الريح الطيبة إذا جاء بريا القرنفل وهى أيضاً ريح طيبة

قاربت ريح المسك... وبعد أن جرى ذلك بمدة طويلة وقع إلى كتاب أبي بكر محمد بن القاسم الأنبارى فى شرح القصائد السبعيات، فوجدته ذكر عند هذا البيت قولا حسناً وهو قوله . ومعنى تضوع المسك أخذ كذا وكذا (وهو تفعل من ضاع يضوع) يقال للفرخ إذا سمع صوت أمه فتحرك قد ضاعته أمه تضوعه ضوعا . فلا حاجة مع قوله أخذ كذا وكذا إلى تمحل لذلك ويكون التقدير تضوع المسك منهما تضوع نسيم الصبا أى أخذ كذا وكذا كما أخذ النسيم كذا وكذا . اه

والزوزنى يقول إذا قامتا (أم الحويرث وأم الرباب) فاحت ريح المسك منهما كنسيم الصبا إذا جاءت بعرف القرنفل ونشره ، شبه طيب رياهما بطيب نسيم هب على قرنفل وأتى برياه . اه

وبعد هذا كله فإن فى البيت رواية أخرى تدفع كل عيب متوهم ، ذكرها ابن أيوب وهى

إذا التفت نحوى تضوع ريحها   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

* * *

وعابوا عليه أيضاً قوله :

ففاضت دموع العين منى صبابة   على النحر حتى بل دمعى محملى

فقد قالوا « استعانته بقوله (منى) استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة ، وهو حشو غير مليح ولا بديع ، وقوله (على النحر) حشو آخر لأن قوله (بل دمعى محملى) يغنى عنه ويدل عليه وليس بحشو حسن ، ثم قوله (حتى بل دمعى محملى) إعادة ذكره الدمع حشو آخر وكان يكفيه أن يقول حتى بلت محملى فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله ، وقالوا أيضاً « لو كان أبدع لكان يقول حتى بل دمعى مغانيهم وعرصاتهم »

ونقض العيب الأول أن قول الشاعر (منى) قامت مقام إضافة العين

إلى ضمير المتكلم . ولو قال الشاعر (دموع عينى) لـكان حقيقة لفظ (منى) حشواً مرذولا ولـكنه لم يقل (عينى) وإنما قال (العين) وعلى ذلك فليس فى قوله (منى) حشو كما زعموا . ونحن لا نـنكر أن الإضافة لو ساعد عليها الوزن تـكون ألطف وأخف على الذوق من زيادة (منى) .

أما عن العيب الثانى فنحن نقول لهؤلاء العائبين المتوهمين . إنما العيب هو إيراد الـكلام الذى يغنى فيـه الأول عن الآخر أما عكس ذلك من إغناء الآخر عن الأول وهو الذى نهج عليه امرؤ القيس فمقبول لا عيب فيه لأن اللفظ الأول قرر معنى فى نفس السامع ، ثم جاء اللفظ الثانى ودل على معنى جديد وفى ضمنه الدلالة على المعنى الذى دل عليه الأول .

أما عن عيبهم الثالث فإن قصارى ما فيه الإظهار فى مقام الإضمار وهو هنا غير معيب إذ لا ينبو عنه الذوق وقد أكسب التركيب مكانة ومتانة لأن المقام مقام تفجع وحزن .

وفيه قوة الإيماء إلى أن الدمع الذى هو معروف بالقلة ، ومعهود بعدم الانحدار إلى ما وراء الخدود قد استرسل وانتشر إلى أن سال على النحر وبل المحمل ، ولم يغال امرؤ القيس فيدعى أن دمعه بل مغانيهم ورسومهم لأن البعد عن الحقيقة إلى هذا الحد والتطوح فى المبالغة إلى هذا المقدار إنما يميل إليه المولدون .

وبعد ما سبق فهناك اعتراض على البيت ذكره التبريزى وتولى بنفسه الرد عليه فقال (ومما يسأل عنه فى هذا البيت أن يقال كيف يبل الدمع محمله وإنما المحمل على عاتقه ، فيقال قد يكون منه على صدره ، فإذا بكى وجرى الدمع عليه ابتل » .

* * *

ومما عابه عليه الباقلانى أيضاً قوله :

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

فقال « إنهم يعدون هذا البيت حسناً ، ويعدون التشبيه مليحاً واقعاً ، وفيه شيء وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم ، فلا يعلم أنه وصف شحمها، وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرت مرسلة وهذا نقص فى الصنعة ، وعجز عن إعطاء الكلام حقه » .

وردنا على هـــذا القول أنه لا عيب فى التعريف والتنكير فى قوله (بلحمها وشحم) لأن المعنى المقصود بلحمها وشحمها . وإنما يعتبر التعريف والتنكير عيباً فيما لو قال امرؤ القيس (باللحم منها وشحم) لا فى الوزن فحسب بل فى الفن البيانى . وكذلك لو قال أيضاً (بلحمها وشحمها كهداب الدمقس المفتل) لكان ذلك عيباً لرجحان أحـــد القسيمين على الآخر بالتشبيه . وكذلك لو قال (بلحمها والشحم كهداب الدمقس المفتل) لكان ذلك عندنا معيباً أيضاً لأنه خارج على الذوق الفنى ، وهـذا الذوق يدرك ولا يحس . ثم إن التشبيه الذى خص به امرؤ القيس الشحم أكسب قوله (وشحم) قوة التعريف ، ومن ذلك نقع على السر الفنى وحسن الذوق البيانى فى أن امرأ القيس شبه الشحم وترك القسمة الأولى وهى اللحم مرسلة دون تشبيه لتكون القسمتان متعادلتين فى القوة ، وليحصل التوازن بينهما فلا ترجح إحداهما على الأخرى .

وعلى هذا فامرؤ القيس ما قصر فى الصنعة ، ولا نقص فيها ، ولا عجز عن إعطاء الكلام حقه كما وهم الباقلانى ، بل إنه كان بارعا فى فنه البيانى وفلسفته الكلامية .

وقال الباقلانى أيضاً فى نقد البيت السابق « وفيه شيء آخر من جهة المعنى وهو أنه وصف طعامه الذى أطعم من أضاف بالجودة ، وهذا قد يعاب ، وقد يقال إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيباً ، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً » وحسبنا أن يتولى الباقلانى الرد بنفسه على ما أخذه على امرىء القيس بقوله (وقد يقال إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه

عيباً ... إلخ) وفوق ذلك فإن العرب لا تتحاشى أن تذكر مثل ذلك فى مقام الفخر بالكرم ولا يرونه عيباً ، وأمامنا أشعارهم ومنثورهم وأخبارهم كلها مليئة بالفخر بإطعام الضيفان ووصف ذلك الطعام بالجودة ، ولئن قال بعضهم (إن اغتفر للرجل التبجح بإطعام الضيوف فإن التبجح بإطعام الأحباب مذموم على أى حال) فإننا نعتذر عن امرىء القيس بأنه قصد إلى وصف حالتهن فى اللعب والترامى بلحم الناقة التى بذلها فى سبيل مرضاتهن .

وقال الباقلانى أيضاً « أما تشبيه الشحم بالدمقس فشىء يقع للعامة ، ويجرى على ألسنتهم ، فليس بشىء قد سبق إليه »

ونحن لا ندرى ماذا يقصد « الباقلانى » بقوله : إن هـذا التشبيه يقع للعامة ، أ كان ذلك فى عصر امرىء القيس ، أم فى عصر الباقلانى ؟ ولكن الذى يلوح لنا أن الباقلانى يريد بالعامة أهل زمانه هو ، وإذا كان الأمر كذلك فليس هذا بضائر امرىء القيس ، لأن العبرة بعصر الشاعر وزمانه هو لا بالأجيال الآتية بعده ، على أن استعمال العامة لهذا التشبيه واشتهاره فى عصر الباقلانى إلى تلك الدرجة مما يدل على براعة امرىء القيس فى تشبيهه حتى أخذ كل إنسان يجريه على لسانه لجودته وحسن تنسيقه وعظمة قائله .

ونحن نستبعد أن يكون الباقلانى قصد بالعامة أهل عصر امرىء القيس فإن تعبيره بالمضارع فى قوله يقع ويجرى يرجح أن المراد أهل زمانه هو . ولئن أراد الباقلانى عامة الجاهلية فمن أين له هذا ؟ هل عاش الباقلانى فى عصر امرىء القيس حتى سمع أن هذا التشبيه يجرى على ألسنة العامة الجاهلية ؟ وهل كان هناك عامة وخاصة ؟ لا : ولكنهم جميعاً كانوا ذوى لسان عربى مبين غير ذى عوج . وتقسيم الناطقين بالعربية إلى عامة وخاصة واقع بعد أن فسدت اللغة بمخالطة الأعاجم فى العصور المتأخرة . وعلى ذلك فمراد الباقلانى

عامة أهل زمانه هو ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يؤخذ على امرىء القيس عيب فى تشبيهه كما أسلفنا .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً   عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

فقال « قوله دخلت الخدر خدر عنيزة ذكر تكريراً لإقامة الوزن لا فائدة فيه ولا ملاحة له ولا رونق ، وقوله فى المصراع الأخير من هذا البيت فقالت لك الويلات إنك مرجلى ،كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته إلى شعره وليس فيه غير هذا ، وتكريره بعد ذلك تقول وقد مال الغبيط يعنى قتب الهودج بعد قوله فقالت لك الويلات إنك مرجلى لا فائدة فيه غير تقدير الوزن وإلا لحكاية قولها الأول كاف وهو فى النظم قبيح لأنه ذكر مرة فقالت ومرة تقول فى معنى واحد وفصل خفيف ، وفى المصراع الثانى أيضاً تأنيث من كلامهن ، وذكر أبو عبيدة أنه قال عقرت بعيرى ولم يقل ناقتى لأنهم يحملون النساء على ذكور الأبل لأنها أقوى وفيه نظر لأن الأظهر أن البعير اسم للذكر والأنثى واحتاج إلى ذكر البعير لإقامه الوزن »

ونحن لا ننكر أن تكرير كلمة خدر ساعدت على إقامة الوزن ، كما أننا لا نرى فيما أورد الباقلانى عيباً ، بل نحن نشهد أن تكرير كلمة خدر من إبداع امرىء القيس والحال يقتضى ذلك لأن المقام مقام غزل وذكرى يستلزم الإطناب وترديد ما يندى على قلب المحب وعلى ذلك فالتكرير جيد مستملح

وكذلك ما عابه عليه من أن فى البيتين كلاما مؤنثاً فإن الحق فى جانب امرىء القيس لأنه يحكى قول معشوقته فيلزم أن يجرى القول على لسانها

ليكون مطابقاً لمقتضى الحال وليأتلف اللفظ مع المعنى والمقـام ، ولو أن امرأ القيس استعمل ألفاظاً غير التى استعملها لكان ذلك عندنا معيباً ولـكنه أجاد وفاد ولا عيب عليه من هذه الناحية .

وأما عن قول امرىء القيس تقول وقد مال الغبيط بنا ... إلخ بعد قوله فقالت لك الويلات فإنه لا غبار عليه لأن المقام كما قدمنا مقام غزل ونسيب يقتضى الإطناب والفصل ليس خفيفاً كما يدعى الباقلانى .

وإنا لنجد فيما أورده الباقلانى من قول أبى عبيدة ثم محاولته الغض من قيمة امرىء القيس فى استعماله كلمة (بعير) نجـد فى ذلك تحاملا مستبيناً ينم عن نفسه ويكاد يلمس باليـــد فيا سبحان الله ويا ترى هل لو استعمل امرؤ القيس كلمـة (ناقة) بدل كلمة (بعير) أما كان الباقلانى يعيبها عليه ويتخذ من قول أبى عبيدة حجة لنفسه ؟ ولذلك فنحن نقرر أن الباقلانى لم ينصف امرأ القيس فى نقده بل جعل يعد الحسنات سيئات .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ولا تبعدينى عن جناك المعلل

فقال « البيت قريب النسج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف كأنه من عبارات المنحطين فى الصنعة »

ونحن نسأل الباقلانى رحمه الله ونشهد عليـه الأدباء فى أى شىء قصر امرؤ القيس حتى يعاب عليه معناه أو لفظه . ألم يطمئن معشوقته على بعيرها وعلى نفسها حين كانت خائفة وجلة تقول له إنك مرجلى وعقرت بعيرى فأمرها بأن لا تبالى ولا تجعل لهذه الأوهام محلا فى مخيلتها ، فقال لها سيرى وأرخى زمامه . ولم ينس إذ ذاك ما تصبو إليه نفسه بل عطفه على ما قبله ، فطلب إليها ألا تبعده عن جناها المعلل . وكأنى بالباقلانى لم يقرع سمعه ولم

يتذوق حلاوة قول امرىء القيس (ولا تبعدينى عن جناك المعلل) فذلك من الألفاظ الشريفة البالغة غاية الروعة فى جملتها وتفصيلها مع حسن السبك وبراعة النسج فقد جعل عشيقته بمنزلة الشجرة وجعل ما نال من عناقها وتقبيلها وشمها بمنزلة الثمرة التى عللت بالطيب أى طيبت مرة بعد مرة .

* * *

ومما عابه عليه منتقدوه قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذى تمائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له   بشق وتحتى شقها لم يحول

فقالوا « هذا معنى فاحش » وقالوا أيضاً « كيف قصد للحبلى والمرضع دون البكر وهو ملك وابن ملك ؟! ما فعل هذا إلا لنقص همته » وقال الباقلانى فى نقد ذلك الشعر أيضاً « تقدير قوله فمثلك حبلى ... البيت .أنه زير نساء ، وأنه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن ، لأن الحبلى والمرضع أبعد من الغزل وطلب الرجال ، وهذا البيت فى الاعتذار والاستهتار والتهيام وهو غير منتظم مع المعنى الذى قدمه فى قوله (ولا تبعدينى عن جناك المعلل) لأن تقديره لا تبعدينى عن نفسك فإنى أغلب النساء وأخدعهن عن رأيهن وأفسدهن بالتغازل ، وكونه مفسدة لهن لا يوجب له وصلهن وترك إبعادهن إياه بل يوجب هجره والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش ، وركوبه كل مركب فاسد ، وفيه من الفحش والتفحش مايستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره . » وقال الباقلانى أيضاً عن قول امرىء القيس (إذا ما بكى من خلفها ... البيت . « إنه غاية فى الفحش ونهاية فى السخف وأى فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ، ويذهب هذه المذاهب ، ويرد هذه الموارد ، إن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه ويوجب له المقت ، وهو لو صدق لكان قبيحاً فكيف إذا كان كاذباً ؟! ويجوز أن يكون كاذباً . ثم ليس فى البيت لفظ بديع ولا معنى حسن »

ودفاعنا فى ذلك أن هؤلاء العائبين فاتهم أن كل المعانى الشعرية معرضة للشاعر وله أن يتكلم فيما أحب منها لا فيما يحبه سواه ، وفيما شاء هو لا فيما يشاؤه غيره — كما يقول قدامة فى كتابه نقـــد الشعر — والذى يلزم الشاعر فقط أنه إذا شعر فى أى معنى كان من الرفعة أو الضعة ، والرفث أو النزاهة ، والبذخ أو القناعة ، والمدح أو الذم، وغير ذلك من المعانى الحميدة أو الذميمة التى يمليها على الشاعر وجدانه ويوحيها إليـه شيطانه : أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك إلى الغـاية المطلوبة . وعلى ذلك فليست لحاشة المعنى فى شعر امرىء القيس مما يزيل جودته ويذهب ببلاغته ، أما عن قولهم كيف قصد للحبلى والمرضع دون البـكر فذلك مردود أيضاً لأن امرأ القيس فى هذين البيتين يوجه الخطاب إلى عنيزة وقد كانت بكراً كما قال الزوزنى ، وإذاً فهو كان مغرماً بالعذارى أيضاً . وسيبويه يروى البيت هكذا :

ومثلك بكراً قد طرقت وثيباً   فألهيتها عن ذى تمائم محول

وامرؤ القيس فى هذا الموقف الذى يقفه أمام عنيزة من الحب والتصابى يريد أن يظهر لها فيه مقدار شغف النساء به وتفانيهن فى حبه حتى إنه ليصبى نساء غيره ولا يصبى غيره نساءه لجماله ورجولته ، وحسنه ووسامته ، ولمـا له من منزلة فى قلوب النساء ، ولذلك نجده يقول فى قصيدته الثانية يخاطب البسباسة عندما عيرته بالـكبر :

كذبت لقد أصبى على المرء عرسه   وأمنع عرسى أن يزن بها الخالى

وإذا تبينا هذا أدركنا مقدار خطأ الباقلانى فى قوله إن هذا المعنى غير ملتئم مع قوله ولا تبعدينى عن جناك المعلل فإن معشوقته إذا أدركت ما له من منزلة فى قلوب النساء علمت أن صاحبها خفيف الروح والظل جدير بأن يعشق فتهبه قلبها ولا تضن عليه بحبها . وإنما خص الحبـلى والمرضع لأنهما أزهد النساء فى الرجال وأقلهن شغفاً بهم وحرصاً عليهم ، ومع ذلك فهمـا يرغبان فيه لرجولته وشخصيته ، ولجماله ومنزلتـه من نفوسهن . وليس أعز

على المرأة المتزوجة من طفلها الرضيع فهو منها سويداء القلب وسواد العين، ولكن امرأ القيس لكلف النساء به يشغف قلوبهن كما يشغف المهنوءة الرجل الطالي، فيلهى الأم الحنون عن وليدها، ويجعلها من فرط غرامها به تلقى بنفسها بين أحضانه، وتدع طفلها وراءها ظهرياً، حتى إذا مابكى تنصرف له بشق دون جملتها قصد إسكاته ومنعاً لصياحه الذى يعكر عليها الصفاء فى ساعة هى من ألذ الساعات لديهما معاً. وقد بلغ امرؤ القيس غاية الدقة فى وصف هذا الموقف الفاحش فإنه ذكر فيه مقدار ميلها إليه وكلفها به حيث لم يشغلها عن غرامه ما يشغل الأمهات عن كل شىء، وإنما فعلت ما فعلت مع وليدها لأن هواها مع امرىء القيس وقلبها يخفق بحبه ويسبح بعشقه، ومما يؤدنا فيما ذهبنا إليه ما أورده الطبيب النطاسى (سعيد أبو جمرة) فى كتابه حياتنا التناسلية فإنه قال « ويجب أن نذكر هنا أن قلة الميل الشهوانى فى المرأة أثناء الحبل والرضاعة أمر طبيعى، وقد عرفه العرب وغيرهم من الأقدمين. قال امرؤ القيس فى قصيدته (قفا نبك) الشهيرة:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذى تمائم محول

لأن الحبلى والمرضع أكثر زهداً فى الرجال من غيرهما: ومع ذلك فلفرط محبة النساء له كن يسمحن له بأن يأتيهن. قال ذلك محركا غيرة عنيزة وحدها منهن » اهـ.

وبعد ما تقدم نرى أن امرأ القيس إذا كان يلهى الأم عن فلذة كبدها وحبة قلبها فهو أشد إلهاء للحبالى والمتزوجات عن شئونهن وبعولتهن، وهو أشد وأشد إلهاء للعذارى عن كل شىء، وإذاً فامرؤ القيس أجاد فى هذا المعنى الذى أخذ فيه وحسب الشاعر ذلك

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن أبا جعفر النحاس فسر قول امرىء القيس (فمثلك حبلى ... البيت) بقوله « إنه لما قبلها أقبلت تنظر إليه وإلى ولدها وإنما يريد بقوله انصرفت له بشق يعنى أنها أمالت طرفها إليه، وليس يريد

أن هذا من الفاحشة لأنها لا تقدر أن تميل بشقها إلى ولدها فى وقت يكون عنه إليها ما يكون ، وإنما يريد أن يقبلها وخدها تحته »

ومن ذلك جميعه نخرج على أن نقد العائبين لبيتى امرىء القيس ضرب عن اللغو .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

أفاطم مهلا بعض هـذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

فقال « والبيت فيه ركاكة جداً وتأنيث ورقة ولـكن فيها تخنيث ، ولعل قائلا يقول إن كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل ، وليس كذلك لأنك تجد الشعراء فى الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم »

ونحن نقول إن قول الباقلانى هو المعيب ، لأنه لـكل مقام مقال ، وعلماء البلاغة اتفقوا جميعاً على وجوب التئام اللفظ مع المعنى وائتلافهما، وعلى هذا فينبغى أن يكون اللفظ رقيقاً ليناً فى موقف الغزل ، وهـذا هو الذى فعله امرؤ القيس ، فلو جاء بألفاظ جزلة فى هذا الموقف لـكان ذلك معيباً عندى وعند جميع علماء البلاغة ، وإنى أصر على أنه يجب أن يكون كلام النساء بما يلائمهن من الطبع ، لأن ذلك أوقع وأجدى فى الغزل ، أما نظرية الباقلانى فنحن لا نرى فيها رأيه ولم يقره عليها أحد .

وقال الباقلانى أيضاً « والمصراع الثانى منقطع عن الأول لا يلائمـه ولا يوافقه» وهذا ضرب من العنت والتحامل فإن المصراعين على أتم ما يكون من الاتصال معنى ورقة وشكوى وغرام ورجاء فى الحفاظ على الود .

وقال الباقلانى أيضاً « كيف ينـكر عليها تدللها والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله » وهذه مغالاة من الباقلانى فإن امرأ القيس لم ينـكر عليهـا

تدللها ، وإنما أنكر عليها بعض التدلل الذى يشبه أن يكون صريمة وقطيعة ، وعلى ذلك فامرؤ القيس يطرب على دلالها وتدللها .

* * *

وعابوا عليه قوله :

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

فقالوا « وإذا لم يغرها ذلك فأى شىء يغرها بعد »

وقال الباقلانى « هذا البيت قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها ألا تغتر بما يريها من أن حبها يقتله وأنها تملك قلبه ، فما أمرته فعله ، والمحب إذا أخبر عن مثل هذا صدق ، وإن كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه وإنما ذهب مذهباً آخر وهو أنه أراد أن يظهر التجلد فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات من الحب والبكاء على الأحبة ، فقد دخل على وجه آخر من المناقضة والإحالة فى الكلام . ثم قوله تأمرى القلب يفعل معناه تأمرينى والقلب لا يؤمر ، والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة »

وذلك منهم خطأ مبين وزعم بارد غث أوقعهم فيه تأويل البيت على أن الاستفهام فيه حقيقى على وجهه للاستخبار ، والأمر ليس كذلك وإنما الاستفهام هنا تقريرى إثباتى فكأنه قال لها (لقد غرك منى أن حبك قاتلى) وهذا نوع من الشكوى ، وهو من أبلغ ما يصل إليه الصب المتهالك فى صبابته وعشقه

أما عن قول الباقلانى إن الاستعارة فى قوله تأمرى القلب غير واقعة ولا حسنة فهذا وهم من الباقلانى دفعه إلى القول به تحامله الشديد على امرىء القيس ، وإلا فإن الاستعارة بالغة غاية الروعة ومنتهى الكمال ، ولاسيما فى هذا الموقف موقف الهوى والصبابة الذى كل شىء فيه راجع إلى

القلب ووجيبه وناره المستعرة وجوانبه المهدمة ، حتى لكأن الحب درس من المحب كل ما تجسم منه ولم يبق إلا ملبه الذى لا يزال ينبض بالحياة مع أنه يقاسى من برحاء الهوى ماتندك له الجبال الرواسى .

* * *

ومما عابه عليه الباقلانى قوله :

فإن كنت قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى عن ثيابك تنسل

فقال « هو بيت قليل المعنى ركيكه وضيعه ، وكل ما أضاف إلى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف يوجب قطعه ، فلم يحكم على نفسه بذلك ؟ ! ولو أورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتقصى من وصله وأنه مهذب الأخلاق شريف الشمائل فذلك يوجب أن لا ينفك من وصاله » .

ولو أدرك الباقلانى أن الشرط متحمل معنى الشك لما عاب هذا البيت ولعلم أن الإساءة غير واقعة فسلها ثيابها عن ثيابه غير واقع أيضاً ، فامرؤ القيس ساق هذا البيت ليبين لها مقدار حبه ، وأنه لا يصدر عنه إلا ما تشتهيه حبيبته ، ولو بدا منه أدنى ما يجعله يشك فى حبه لكان خليقاً بأن تصرم حبال مودته ، والتنكير فى خليقة للتحقير والتقليل وذلك مع الشرط المفيد للشك يستلزم أنه لا يصدر عنه أدنى تلبس فى حبه ، وأنه لا يفعل إلا ما يستحق رضاها وأنه مسخر لهواها .

* * *

وقال الباقلانى فى قول امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

« إنه معدود من محاسن القصيدة وبدائعها ومعناه ما بكيت إلا لتجرحى قلباً معشراً أى مكسراً من قولهم برمة أعشار إذا كانت قطعاً . هذا تأويل

ذكره الأصمعى رضى الله عنه وهو أشبه عنـد أكثرهم . وقال غيره وهذا مثل للأعشار التى تقسم الجزور عليهـا ، ويعنى بسهميك المعلى وله سبعة أنصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء ، فأراد إنك ذهبت بقلبى أجمع ، ويعنى بقوله مقتل مذلل » وبعد ذلك ! يقول الباقلانى « وأنت تعلم أنه على ما يعنى غير موافق للأبيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذى بينا ، ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثـانى فزع إليه لأنه رأى اللفظ مستـكرهاً على المعنى الأول ، لأن القائل إذا قال ضرب فلان بسهمه فى الهدف بمعنى أصابه كان كلامه ساقطاً مرذولا ، وهو يرى أن معنى الـكلمة أن عينها كالسهمين النافذين فى إصابة قلبه المجروح ، فلما بكتا وذرفتا كانتا ضاربتين فى قلبه »

ونحن نقول للباقلانى إن هذا البيت ملتئم مع الأبيات المتقدمة ولا تناقض بينها وبينه ألا ترى إلى قوله قبل هـــذا البيت أغرك منى أن حبك قاتلى وقوله مهلا بعض هذا التدلل . ونقول له أيضاً إن استعمال كلمة تضربى بمعنى تصيبى لا غبار عليه بل هو استعمال حسن وجيه فإن الضرب فيـه معنى الإصابة مع زيادة فى المعنى من حيث الشدة والسرعـة والألم . فاستعمال تضربى بدل تصيبى مناسب للغزل الذى هو موقف شكوى وإظهـار ألم وتوجع ، ونقول للباقلانى أيضاً أى رذالة فى قول القائل ضرب فلان بسهمه فى الهدف بمعنى أصابه ؟ وكأنى بالباقلانى رضى الله عنه تصور من الـكلمة معنى الضراب فإن كان هذا فليعلم أنه من الهين اليسير علينا أن نحمل أيضاً كلمة أصاب هذا المعنى الساقط المرذول .

وقال الباقلانى بعد مامضى « ولـكن من حمل البيت التأويل الثانى سلم من الخلل الواقع فى اللفظ ، ولـكنه إذا حمـل على الثانى فسد المعنى واختل لأنه إن كان على ما وصف به نفسه من الصبابة فقلبه كله لها فـكيف يكون بكاؤها هو الذى يخلص قلبه لها ؟! »

وردنا عن ذلك أن الباقلانى تأول فى شعر امرىء القيس على هواه ،

وهذا هو الذى أوقعه فى تلك المناقضات الغريبة ، ولو أدرك أن قول امرىء القيس وما ذرفت عيناك ... إلخ نوع من تصابى المحبين وما يلاقونه من تدلل حبائبهم ودلالهن لعلم أن قلب امرىء القيس كله لصاحبته بادىء بدء ، وإنما بكاؤها يزيد قلبه سعيراً وعذاباً أليما .

وقال الباقلانى أيضاً فى هذا البيت « واعلم بعد هـــذا أن البيت غير ملائم للبيت الذى قبله ولا متصل به فى المعنى وهو منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ولا سبب يوجب ذلك ، فترتيبه هذا الكلام على ماقبله فيه اختلال » .

أما عن دعوى الباقلانى فى أنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ، فإن ذلك ليس بلازم ، على أن هذا البيت مرتبط تمام الارتباط بالأبيات السابقة فإن بكاء الحبيبة نوع من الدلال الذى قال فيـــه امرؤ القيس لصاحبته : مهلا بعض هذا التدلل ، وهو متصل أيضاً بالاستفهام التقريرى الإثباتى فى قوله أغرك منى أن حبك قاتلى . ولو كان الباقلانى أدرك أن الاستفهام تقريرى ليس على وجه الاستخبار لما تطاول على امرىء القيس إلى هذا الحد ـــ وهو متصل أيضاً بقوله : فإن كنت قد ساءتك منى خليـقة ، فإن الإساءة غير حاصلة كما بينا فيما سبق ، وإذا كانت الإساءة غير حاصلة فلا داعى لبكائها ولا سبب له إلا لتزيده وجداً على هيامه وألما فوق آلامه . وعلى ذلك فقوله . فإن كنت قد ساءتك ... إلخ فى موضع التمهيد لتاليه بل فى موضع تقريره وإيضاحه

وسبق أن قدمنا أن ابن قتيبة قال إن أشرافا من الناس والشعراء اجتمعوا عند عبد الملك فسألهم عن أرق بيت قالته العرب فاجتمعوا على قول امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

* * *

وحاول الباقلانى أن يعيب قول امرىء القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهوبها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا   على حراصا لو يسرون مقتلى

ولكنه لم يستطع ذلك وأقصى ما قاله « ليس فى البيت الأول كبير فائدة لأنه الذى حكى فى سائر أبياته فلا تتضمن مطاولته فى المغازلة واشتغاله بها فتكريره فى هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى إلا الزيادة التى ذكر من منعتها وهو مع ذلك سليم اللفظ فى المصراع الأول دون الثانى . والبيت الثانى ضعيف وقوله لو يسرون مقتلى أراد أن يقول لو أسروا ، فإذا نقله إلى هذا ضعف ووقع فى مضمار الضرورة » .

أما عن قول الباقلانى إن البيت الأول ليس فيه كبير فائدة لما احتج به بعد ذلك فنحن ننكر عليه هذا ونقول له إن بيت امرىء القيس لا عيب فيه من هذه الناحية ما دام يحمل معنى جلياً لعدة أبيات سابقة ولو كان يحمل معنى بيت واحد من الأبيات التى سبقته لكان ذلك تكراراً معيباً ، على أنه (الواو) فى قوله وبيضة خدر واو رب ويصح أن يكون الكلام جديداً فى وصف أحواله مع معشوقة أخرى ، وما كان أكثر عشق امرىء القيس وتحدثه عن ذلك فى شعره .

وأما عن قوله إن المصراع الثانى من البيت الأول والبيت الثانى كله فيهما ضعف ؛ فهذا ما لا نقره عليه بل إننا نشهد ونشهد الأدباء على أن فيهما قوة يحسها المنصف لا المتحامل ويدركها العادل المجرد عن الأهواء .

وأما عن عيبه على امرىء القيس استعمال المضارع بمعنى الماضى فذلك مردود عليه ، لأن المعنى أنهم أسروا ولا يزالون يسرون ، وهذا الاستعمال ضرب من الذوق البلاغى الوارد فى كلام العرب كثيراً . والقرآن الكريم الذى هو مقياس البيان والذى نهجه ونظمه وتأليفه ورصفه تتيه العقول فى جهته وتحار فى بحره وتضل دون وصفه قد استعمل الماضى بمعنى المضارع

واستعمل المضارع بمعنى الماضى ، وذلك الاستعمال فن بديع جليل يكسب المعنى قوة ومتانة . قال تعالى « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات والأرض » أى فيفزع .

* * *

ومما عابوه عليه قوله :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل

فقالوا « إن الثريا لا تتعرض فى السماء » وبعضهم قال إنه أراد الجوزاء لأنها تتلوها والعرب تقول ذلك كما قال زهير كأحمر عاد ، وإنما هو أحمر ثمود ، ومنهم من يقول إن الثريا تتعرض عند سقوطها فإنها إذا بلغت كبد السماء أخذت فى العرض ذاهبة ساعة ، كما أن الوشاح يقع مائلا الى أحد شقى المتوشحة به — وهذا واقع موقع القبول — ولقد فسر الزوزنى هذا البيت تفسيراً فيه وجاهة فقال . إنه أتى محبوبته عند رؤية نواحى كواكب الثريا فى الأفق الشرقى ثم شبه نواحيها بنواحى جواهر الوشاح المفصل . وقال القتيبى . إنه شبه الثريا بجواهر الوشاح لأن الثريا تأخذ وسط السماء عند سقوطها كما أن الوشاح يأخذ وسط المرأة المتوشحة به . وقال أبو عمرو تأخذ الثريا وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة . وقال ابن مكرم صاحب اللسان بعد ذكره بيت امرىء القيس . إن التعرض الاعوجاج والزوغان وعدم الاستقامة كما يتعرض الرجل فى عروض الجبل يميناً وشمالا ، وعلى ذلك فسر تعرض الثريا بأنها لم تستقم فى سيرها ومالت كالوشاح المعوج أثناؤه على جارية توشحت به . وقال التبريزى : معنى البيت أن الثريا تستقبلك بأنفها أول ما تطلع فإذا أرادت أن تسقط تعرضت كما أن الوشاح إذا طرح تلقاك بناحية .

وقد أوردنا كل هذه الأقوال لنعلم أن البيت لا عيب فيه ، وحسبنا أن نقول لك إن الباقلانى مع تلمسه كل سبيل للعيب على امرىء القيس لم

يستطع أن يعد ما أخذوه عليه عيباً ، بل إنه قال « والأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه به وأنه من محاسن هذه القصيدة » . وكم كنا نحب أن يقف الباقلانى عند هذا الحد من الإنصاف ، ولكن وا أسفاه فقد أخذته عزة التحامل بالوهم فجاء ينقص من قيمة هذا البيت فأورد قول ذى الرمة :

وردت اعتسافا والثريا كأنها   على قمة الرأس ابن ماء محلق

وقول ابن المعتز :

وترى الثريا فى السماء كأنها   بيضات أدحى يلحن بفدفد

وقوله :

كأن الثريا فى أواخر ليلها   تفتح نور أو لجام مفضض

وقوله أيضاً :

فناولنيها والثريا كأنها   جنى نرجس حيا الندامى به الساقى

وقول الأشهب بن رميلة :

ولاحت لساريها الثريا كأنها   لدى الأفق الغربى قرط مسلسل

وقول ابن المعتز :

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه   كذات قرط أرادته وقد سقطا

المأخوذ من قول ابن الرومى :

طيب ريقه إذا ذقت فاه   والثريا بجانب الغرب قرط

وقول ابن المعتز :

قد سقانى المدام والصبح بالليل مؤتزر
والثريا كنور غصن على الأرض قد نثر

وقوله :

تروم الثريا فى السماء مراما   كانكباب طمر كاد يلقى لجاما

وقول ابن الطثرية :

إذا ما الثريا فى السماء كأنها جمان وهى من سلكه فتبددا

وبعد أن أورد الباقلانى هذه الأبيات السابقة زعم أن فى جملة ما نقله ما يزيد على تشبيه امرىء القيس فى الحسن أو يساويه أو يقاربه وأن الإبداع فى معنى امرىء القيس أمر قريب وليس فيه شىء غريب ، وأنه لم يأت فيه بما يفوت الشأو ويستولى على الأمد . وليت الباقلانى لم يغفل أو يتغافل عن أن امرأ القيس هو سابقهم وقدوتهم وأنهم لاحقوه ومقلدوه ، والسابقون السابقون هم المبدعون المبتدعون ، وحسبنا أن يشهد القارىء معنا على أن المعانى الواردة فى الأبيات التى ساقها الباقلانى مسروقة من بيت امرىء القيس ، بل إننا نجد أن من هؤلاء الشعراء من بلغت به الجرأة أن يسطو على ألفاظ امرىء القيس فيوردها فى شعره بنصها وفصها ، أو مع تحوير يسير فيها ، ولا شك أن هذا من إعجابهم ببيت امرىء القيس .

ومن توهم الباقلانى أيضاً فى نقد هذا البيت قوله :

« تعرضت من الكلام الذى يستغنى عنه لأنه يشبه أثناء الوشاح سواء كان فى وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب ، فالتهويل بالتعرض والتطويل بهذه الألفاظ لا معنى له »

ونحن نقول للباقلانى : وإذا لم يكن هذا موضع تهويل فأين يكون التهويل مستملحاً ؟ ألم يقل امرؤ القيس إنه تجاوز الأحراس الحراص على قتله وكان هذا التجاوز ليلا عند تعرض الثريا . ألا يرى الباقلانى بعد هذا أن المقام يقتضى التهويل ويستلزم التطويل .

وقال الباقلانى أيضاً « وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل فلا معنى لقوله تعرض أثناء الوشاح ، وإنما أراد أن يقول تعرض قطعة من أثناء الوشاح فلم يستقم له اللفظ حتى شبه ما هو كالشىء الواحد بالجمع »

وحسبنا فى الرد على هذا أن نقول إن الإيجاز والمجاز من عيون البلاغة العربية ، ألا ترى إلى قوله تعالى « واسأل القرية » أى واسأل أهل القرية ، وإلى قوله تعالى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » أى أناملهم . وفوق كل هذا فإن تشبيه ما هو كالشيء الواحد بالجمع تشبيه لا غبار عليه ولا عيب فيه ؛ بل إنه واقع موقع الرضا والقبول .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها   لدى الستر إلا لبسة المتفضل

فقال « قوله لدى الستر حشو وليس بحسن ولا بديع وليس فى البيت حسن ولا شيء يفضل لأجله »

ونحن لا نحتج على الباقلانى بأكثر من قول الزوزنى فى تفسير هذا البيت (يقول امرؤ القيس أتيتها وقد خلعت ثيابها عند النوم غير ثوب واحد تنام فيه ، وقد وقفت عند الستر مترقبة منتظرة إلى ، وإنما خلعت الثوب لترى أهلها أنها تريد النوم) ومن قول الزوزنى هذا نستطيع أن نفهم ويستطيع الباقلانى أن يدرك أنه لا حشو فى البيت وأنه حسن جميل خصوصاً وأن كلمة الستر فى هذا الموقف من الغزل متحملة لمعنى الطيب والنعمة والجمال وإنها لتندى على قلوب العاشقين .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

فقالت يمين الله مالك حيلة   وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

فذكر أن فيه اختلالا وضرباً من التفاوت . ونحن لا نحتج عليه بأكثر مما حكاه الزوزنى عن الرواة أنهم قالوا (هذا أغنج بيت فى الشعر)

وهذا البيت مناسب لموقف خليلة امرىء القيس منه ساعة طروقه لدارها وتدللها عليه بمثل هذه الكلمات العذاب التى تهبط على قلب المحب برداً وسلاما .

. . .

وعاب عليه أيضاً قوله :

فقمت بها أمشى تجر وراءنا ‏ ‏ على إثرنا أذيال مرط مرحل

فقال « فيه تكلف لأنه قال وراءنا على إثرنا ولو قال على إثرنا فقط لكان كافياً والذيل إنما يجر وراء الماشى فلا فائدة لذكره وراءنا »

ونحن نرى أن امرأ القيس لو استعمل كلمة إثرنا قبل وراءنا لكان معيباً وكان مأخذ الباقلانى عليه واقعاً . أما وأنه استعمل كلمة وراءنا التى تفيد الظرفية غير المحدودة « فالوراء لا حدود له » ثم أردف تلك الكلمة المطلقة بكلمة إثرنا التى تفيد الظرفية المحدودة « فالإثر وراء ملاصق قريب » فإن استعمال امرىء القيس لهاتين الكلمتين على هذا الترتيب الوارد فى بيته من قبيل التقييد بعد الإطلاق وهذا غير معيب .

وقال الباقلانى أيضاً « قوله أذيال مرط كان من سبيله أن يقول ذيل مرط » ونحن نحيل القارىء على رواية أخرى فى هذا البيت عبر فيها امرؤ القيس بالمفرد وهى :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا ‏ ‏ على أثرينا ذيل مرط مرحل

نحيل القارىء على هذه الرواية ليرى أن البيت سلم لامرىء القيس وأنه لا عيب فيه وليدرك مقدار تحامل الباقلانى

* * *

ومما عابه عليه الباقلانى قوله

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى ‏ ‏ بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل

قال « وهذا قد أغرب فيه وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة وليس فى ذكرها والتفضيل بإلحاقها بكلامها فائدة ، والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة فى وصف ما يلائمها كقوله عز وجل فى وصف يوم القيامة يوما عبوساً قمطريراً ، فأما إذا وقعت فى غير هذا الموقع فهى مكروهة مذمومة بحسب ما تحمد فى موضعها » ونحن ننكر على الباقلانى ما أخذه على بيت امرىء القيس من أن كلمة عقنقل لا فائدة لذكرها ننكر عليه ذلك قائلين له إن الألفاظ ظروف المعانى وقوالبها — كما قرر ذلك علماء فقه اللغـة . وقد قال الباقلانى وغيره من رجالات العربية أن العقنقل هو المنعقد من الرمل الداخل بعضه فى بعض ، وكذلك قالوا الحقف رمل منعرج ، وامرؤ القيس أراد أن يصف هذا الموضع بالوعورة التى من أحسن قوالب معناها لفظة عقنقل ، وعلى ذلك فهى واقعة موقع الحاجة فى وصف ما يلائمها ، والحسن فيها كالحسن فى كلمة قمطرير من قوله تعالى (يوما عبوساً قمطريراً) . ومن هذا يبين لنا أن هذه اللفظة أفادت ، وأنها محمودة واقعة فى موقعها ، وأن الباقلانى غير موفق فيما عابه على البيت .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

هصرت بغصنى دوحة فتمايلت هلى هضيم الكشح ريا المخلخل

فقال « قوله بغصنى دوحة تعسف ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين » ولكننا نقرر أن امرأ القيس يريد بالغصنين فى هذه الرواية التى اختارها الباقلانى لحاجة فى نفسه يريد امرؤ القيس الفودين وإذاً فلا عيب عليه . على أن فى البيت رواية أخرى تصدع توهم الباقلانى وهى :

هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل

* * *

ومما عابه عليه الباقلانى قوله :

مهفهفة بيضاء غـــير مفـاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

فذكر أن فى البيت نزوعا إلى الألفاظ المستكرهة ، وفيه خلل من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض

وهذه مغالاة من الباقلانى فإن ألفاظ البيت ليست حوشية ولا مستكرهة بل إنها تطرق بعذوبتها أذن الأصم بله السميع .

وأما عن تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض فذلك أمر جائز لا خلل فيه ، بل إنه يزيد الكلام حسناً ، وهو من قبيل التخصيص بعد التعميم

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل

فقال « قوله تصد وتبدى عن أسيل متفاوت ، لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد » ولكن مراد امرىء القيس — كما ذكر التبريزى — أنها تعرض عنا استحياء ، وتبسم فيبدو لنا ثغرها ، وتتقى أى تتلقانا بعد الإعراض عنا بملاحظتها كما تلاحظ الظبية طفلها ، وذلك من غنج النساء .

وقال الباقلانى « وقوله تتقى بناظرة لفظة مليحة ولكن أضافها إلى ما نظم به كلامه وهو مختل وهو قوله من وحش وجرة ، وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا كان من سبيله أن يضيف إلى عيون الظباء أو المها دون إطلاق الوحش ففيهن ما تستنكر عيونها »

والرأى عندى أن الباقلانى محق فيما ذهب إليه ، ومثل ذلك العيب أيضاً تشبيهه بنان حبيبته بأساريع الموضع المعروف بظبي فى قوله :

وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبي أو مساويك إسحل

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ... إذا هي نصته ولا بمعطل

فقال « قوله ليس بفاحش فى مدح الأعناق كلام فاحش موضوع منه ، وإذا نظرت فى أشعار العرب رأيت فى وصف الأعناق ما يشبه السحر ، فكيف وقع على هذه الكلمة ودفع إلى هذه اللفظة ، وهلا قال كقول أبي نواس :

مثل الظباء سمت إلى رو ... ض صوادر عن غدير

ولست أطول عليك فتستثقل ولا أكثر فى ذمه فتستوحش »

وعندى أيضاً أن البيت معيب على امرىء القيس وفيه تقصير من جهة أخرى فإنه بعد أن شبه جيدها بجيد الرئم رجع فنفى عنه فحاشة الطول كما نفى عنه العطل وهذا مدح بالسالب وهو إن كان فيه تقييد للتشبيه ليصير الجيد حسناً خالصاً فى الحسن إلا أن هناك ما هو أحسن — وتمعن فى قولى حسن وأحسن — فالحسن نفى الفحاشة وهو المدح بالسالب ، والأحسن هو المدح بالموجب ، فمثلا لو قلت هذا شىء غير ردىء كان المعنى أن فيه نوعا من الحسن ولكنه هابط إلى الحد الأدنى ، بخلاف ما إذا قلت هذا شىء جميل فيكون المعنى أنه بالغ فى الحسن إلى حد أعلى .

وعلى ذلك فلو أن امرأ القيس بعد التشبيه مدح الجيد وأضاف إليه من صفات المديح الموجبة فوق مدحه سلبياً ، أو لو أنه بعد التشبيه مدحه ابتداء مدحاً إيجابياً دون تعرض للمدح بالسالب لكان البيت حسناً ولم يكن فيه تقصير ولا قصور . وأنت لاشك تدرك صواب ما أقول وتقع على الذوق

الفنى فيه حين أذكر لك بيتاً جاء فيه قائله على ما أبتغى فكان مجيداً أكثر من امرىء القيس وهذا البيت لقيس بن الخطيم ، وهو قوله :

وجيد كجيد الرئم صاف يزينه توقد ياقوت وفصل زبرجد

* * *

ومما عيب على امرىء القيس قوله :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

قالوا قد انسلخ البيت الأول بوصف الليل من غير أن يذكر ما قال ، وجعله متعلقاً بما بعده وذلك معيب عندهم كما يقولون

ومثل ذلك العيب عيب عليه قوله فى قصيدة أخرى :

أبعد الحارث الملك ابن عمرو وبعد الخير حجر ذى القباب
أرجى من صروف الدهر لينا ولم تغفل عن الصم الهضاب

فإن الاستفهام فى البيت الأول وجوابه فى البيت الثانى

وهناك قوم ممن لا يتذوقون حلاوة المجاز والاستعارة عابوا ذلك على امرىء القيس فى قوله

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ولكن الآمدى دفع عيبهم ورد مأخذهم فقال : « وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى (أى المجاز والاستعارة) من لم يعرف موضوعات المعانى ولا المجازات ، وهو غاية فى الحسن والجودة والصحة ، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً ، وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه . فلما جعل له وسطا يمتد وأعجازاً رادفة الوسط وصدراً متثاقلا فى نهوضه حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب وجعله متمطياً من أجل امتداده ، لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة . وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل

من أجل نهوضه وهذه أقرب الاستعارات فى الحقيقة ، وأشد ملاءمة بمعناها لما استعيرت له »

* * *

ومما أخذه ابن رشيق على امرىء القيس تكرير المعانى فى قوله :

فيالك من ليـــل كأن نجومه　　　بكل مغار الفتـل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامهـا　　　بأمراس كتان إلى صم جندل

فقال « البيت الأول يغنى عن الثانى والثانى يغنى عن الأول ، ومعناهما واحد لأن النجوم تشتمل على الثريا ، كما أن يذبل يشتمل على صم الجندل ، وقوله شدت بكل مغار الفتل مثل قوله علقت بأمراس كتان »

ويرد على ذلك بأن فى البيتين إطناب ، وأن ذكر البيت الثانى بعد الأول هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، ومع ذلك فقد جاء فى هذا الشعر رواية أخرى تنقض عيب ابن رشيق وهى بحذف العجز من البيت الأول وحذف الصدر من البيت الثانى فيكون قول امرىء القيس هكذا :

فيالك من ليـل كأن نجومه　　　بأمراس كتان إلى صم جندل

وهذه الرواية هى التى اختارها الزوزنى .

* * *

ومما عابوه عليه فى قصيدته الثانية (ألا عم صباحا) تكرير كلمة سلمى فى الأبيات الأربعة :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال　　　ألح عليهـا كل أسحم هطال
وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا　　　من الوحش أو بيضا بميثاء محلال
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا　　　بوادى الخزامى أو على رأس أوعال
ليـالى سلمى إذ تريك منصبـا　　　وجيداً كجيد الرئم ليس بمعطال

وقد رد هذا العيب ابن أيوب فقال « إن للتكرير مواضع يحسن فيهـا

ومواضع يقبح فيها ، فما يحسن تكراره مثل تكرار هذه الأسماء ، وتكرارها على جهة التشوق والاستعذاب ، لأن الموضع موضع غزل وتشبيب ولم يتخلص أحد تخلصه (يعني امرأ القيس) ولا سلم سلامته » . وقال ابن رشيق في عمدته مثل ذلك القول .

وعابوا عليه قوله :

كأني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلي كرى كرة بعد إجفال

ويقولون كان عليه أن يضع عجز كل بيت منهما في موضع الآخر ، فيكون ترتيب البيتين هكذا

كأني لم أركب جواداً ولم أقل لخيلي كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

وهذا خطأ منهم لما ينبني عليه من أن يكون قوله « للذة » حشواً لا غناء فيه ، لأن الزق لا يسبأ إلا للذة بخلاف الخيل فإنها تركب في السلم والصيد وذلك وقت اللذة ، وتركب في الحروب أيضاً وهذا وقت شدة

وشيء آخر فإن امرأ القيس لما ذكر ركوب الخيل وهو لذة من لذات الشباب ناسب أن يذكر معه لذة النساء والاستمتاع بهن ، وبذلك يكون قد أرخى لنفسه العنان ترتع وتمرح بين لذتين ، ثم ذكر بعد ذلك الخمر التي فيها للنفس لذة ، فكانت تلك اللذة متصلة بسابقتها ، ولما كانت الخمر تذهب الخوف والفزع وتجعل شاربها غير هياب ولا وجل ناسب أن يذكر بعدها الكر والفر والقتال وذلك يتصل بالشجاعة والكرم ، ومن ذلك نرى أن المعاني فيما ماأورده امرؤ القيس متسلسلة متصلة آخذ بعضها بحجز بعض ، وقد

احتج لصحة ما قلناه أبو الطيب المتنبي فإنه لما أنشد سيف الدولة قصيدته التي مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

ووصل إلى قوله فيها :

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمـــة   ووجهك وضاح وثغرك باسم

اعترض عليه سيف الدولة عند إنشاده هذين البيتين ، وقال له : إني أنتقدهما عليك ، كما انتقد العلماء على امرىء القيس قوله :

كأني لم أركب جواداً للذة   ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل   لخيلي كرى كرة بعد إجفـال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كبيتي امرىء القيس ، ووجه الكلام في البيتين على ما قاله أهل العلم بالشعر أن يكون عجز البيت الثاني على صدر الأول ، وعجز الأول على صدر الثاني ، ليكون ركوب الخيل مع الأمر لها بالكر وسبء الخمر مع تبطن الكواعب ، فقال أبو الطيب ، أدام الله عز مولانا إن صح أن الذي استدرك هذا الأمر على امرىء القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز كما يعرفه الحائك لأن البزاز يعرف جملتـــه والحائك يعرف جملته وتفصيله ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت وجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنى .

والعرب تضع الشيء أحياناً مع غير نسيبه ليكون ذلك أطرف له وأدعى

لانتباه النفس ، وشبيه بهذا قوله تعالى « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » إذ كان المناسب أن يجمع بين الجوع والظمأ وبين العرى والضحو . ولكن الأمر جاء على خلاف ذلك وهذا سر بديع من أسرار البلاغة وهو ما يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تعدد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة كما يقول الزمخشري . وكذلك الحال فى بيتى امرىء القيس وبيتى المتنبي .

* * *

وعابوا عليه أيضاً قوله فى موضع :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة — كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل — وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

ثم قوله فى موضع آخر :

فتملأ بيتنا إقطا وسمنا — وحسبك من غنى شبع ورى

فقالوا « إن المعنى الأول أفخر ما قيل ، والثانى أنذل ما قيل والشاعر قد ناقض نفسه حيث وصفها فى موضع بسمو الهمة وقلة الرضى بدنىء المعيشة وأطرى فى الموضع الآخر القناعة والاكتفاء من الغنى بالشبع والرى » .

وذلك منهم زعم غث فإنه لو تصفح قول امرىء القيس حق التصفح لم يوجد معنى ناقض معنى ، فالمعنيان فى الشعرين متفقان لا تناقض فيهما فقد قال فى الأول

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة — كفانى ولم أطلب قليل من المال .

وهذا موافق لقوله فى الثانى :

وحسبك من غنى شبع ورى

ولكن فى المعنى الأول زيادة ليست مناقضة لشىء وهى قوله لكننى لست أسعى لما يكفينى بل أسعى لمجد مؤثل ، فالمعنيان اللذان ينبئان عن اكتفاء الإنسان باليسير متوافقان فى الشعرين ، والزيادة التى ذكرها فى الشعر الأول والتى دل بها على بعد همته ليست تنقض واحداً منهما ولا تنسخه. وأرى أن هذا العائب ظن أن امرأ القيس قال فى أحد الشعرين إن القليل يكفيه وفى الآخر إنه لا يكفيه ، وقد ظهر مما قدمناه أن هذا الشاعر لم يقل شيئاً من ذلك ولا ذهب إليـــه ولم يخطر له على بال ، ومع ذلك فلو قاله وذهب إليه لم يكن مخطئاً فإن قدامة يقول « إن مناقضة الشاعر نفسه فى قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك ذماً حسناً بيناً غير منكر عليه ولا معيب من فعله إذا أحسن المدح والذم ، بل ذلك عندى يدل على قوة الشاعر فى صناعته واقتداره عليها » وقال أيضاً : « الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً بل يراد منه إذا أخذ فى معنى من المعانى كائناً ما كان أن يجيده فى وقته الحاضر لا أن ينسخ ما قاله فى وقت آخر »

وفوق ما تقدم فإن الشاعر كان متؤثراً فى شعره الأول بروح غير التى تأثر بها فى شعره الثانى ، فإن قصيدته (ألا عم صباحا) التى منها الشعر الأول قالها أيام زهوه بخفض العيش وخلو قلبه من هموم الحياة ، ولكن الشعر الثانى الذى فيه وحسبك من غنى شبع ورى . قاله بعد مقتل أبيه حين صار شريداً طريداً عاجزا بائساً

* * *

ومما عيب عليه فى قصيدته (أحار بن عمرو كأنى خمر) قوله :

فلما دنوت تسديتها   فثوباً لبست وثوباً أجر

فقد حمل بعضهم قوله (فثوباً لبست وثوباً أجر) على أنه تكرار وهذا منهم خطأ بين فإن البيت لا تكرار فيه ، وإنما هو كما قال ابن رشيق ترديد

بالغ غاية الحسن فقد أتى الشاعر بلفظة ثوب وعلقها بمعنى ثم رددها بعينها متعلقة بمعنى آخر ، والثانى أفاد غير ما أفاده الأول

وفى عجز البيت رواية أخرى وهى :

فثوباً نسيت و ثوباً أجر

وفى هذه الرواية المعنيان الأول والثانى متباعدان جدا

* * *

وقد يكون للأصمعى حق فيما عابه على امرىء القيس فى قوله :

وأركب فى الروع خيفانة كسى وجهها سعف منتشر

يقول الشاعر وأركب فى المخافات فرساً طويلة خفيفة سريعة ينتشر شعر ناصيتها كالسعف على وجهها ، والخيفانة فى الأصل الجرادة ثم تشبه بها الفرس فى الخفة

ووجه العيب فى هذا البيت أنه شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريماً وذلك هو الغمم ، والذى يحمد فى الناصية الجثلة وهى التى لم تفرط فى الكثرة فتكون الفرس غماء والغمم مكروه ولم تفرط فى الخفة فتكون الفرس سفواء والسفا أيضاً مكروه فى الخيل ، والجيد ما قال عبيد :

مضبر خلقها تضبيرا ينشق عن وجهها السبيب

* * *

وعابوا عليه أيضاً قوله :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجها من دبر

قالوا ، فمن أين تسد بذنبها فرجها من قبل ؟ وليس هذا من قول الحذاق ففى البيت حشو ، وقالوا أيضاً ، إن ذيل العروس يجر على الأرض ولا

يصح أن يكون ذنب الفرس طويلا مجرورا ولا قصيرا ، والصواب قوله في موضع آخر :

ضليع إذا استدبرته سد فرجه　　　بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

وجوابنا عن ذلك أن العيب الأول واقع ، أما عن العيب الثاني فنكتفي بما أورده الآمدي في الرد عليه فقد قال وما أرى العيب لحق امرأ القيس في هذا لأن العروس إذا كانت تسحب ذيلها وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض فهو عيب . فليس ينكر أن يشبه الذنب به وإن لم يبلغ أن يمس الأرض لأن الشيء إنما يشبه بالشيء إذا قرب منه أو دنا من معناه فإذا أشبهه في أكثر أحواله فقد صح التشبيه ولاق به . ولأن امرأ القيس لم يقصد طول الذنب أن يشبهه بطول ذيل العروس فقط ، وإنما أراد السبوغ والكثرة والكثافة ، ألا تراه قال تسد به فرجها من دبر ، وقد يكون الذنب طويلا يكاد يمس الأرض ولا يكون كثيفاً ، بل قد يكون رقيقاً نزر الشعر خفيفاً ، فلا يسد فرج الفرس ، فلما قال تسد به فرجها علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ مع الطول ، فإنما أشبه الذنب الطويل ذيل العروس من هذه الجهة وكان في الطول قريباً منه ، فالتشبيه صحيح وليس ذلك بموجب للعيب ولا أن يكون ذنب الفرس من أجل تشبيهه بالذيل مما يحكم على الشاعر أيضاً أنه قصد إلى أن الفرس يسحبه على الأرض ، وإنما العيب في قول البحتري :

ذنب كما سحب الرداء يذب عن　　　عرف وعرف كالقناع المسبل

فأفصح بأن الفرس يسحب ذنبه ،

* * *

وعاب عليه الأصمعي قوله :

لها متنتان خظاتا كما　　　أكب على ساعديه النمر

فقال « إنه أساء فى وصف المتن بكثرة اللحم لأنه يستحب تعريق المتن وتعريق الوجه كما قال طفيل :

معرقة الألحى تلوح متونها

يقول هى معرقة الوجه ويكاد يستبين العصب من قلة اللحم وكذلك المتون »

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى كلمة (خظاتا) فإن فيها رأيين الأول أنها اسم مثنى حذفت منه النون التى هى عوض عن التنوين فى الاسم المفرد والمفرد خظاة أى مكتنزة لحماً ، وحذف مثل هذه النون وارد فى كلام العرب ومن ذلك ما قالوه حكاية عن الحجلة التى قالت للقطا (قطا قطا ، قفاك أمعطا بيضك ثنتان وبيضى مائتا) أى مائتان . والرأى الثانى أن تكون خظتا فعلا مثل قضتا ثم أظهر الألف لحركة التاء فقال خظاتا ، ولم تظهر الألف وإنما ألقيت وطرحت فى مثل قضت لسكون التاء منعاً لاجتماع الساكنين وقد قال أهل النظر من أهل البصرة إن امرأ القيس لما جاوز فى طيء علق من لغتهم وهم يقلبون الياء ألفاً يقولون فى رضيت رضاتا وكذلك خظاتا كان أصلها خظيتا فقلبت الياء ألفا .

* * *

وعيب عليه قوله :

وعين لها حدرة بدرة   فشقت مآقيهما من أخر

قيل « فى البيت عيب وهو أنه وحد العين ثم رد إليه ضمير الاثنين » ولكن أبا عمرو يجوز هذا فى الاثنين إذا كانا لا يفترقان ، وعلى ذلك فلا عيب فى البيت .

* * *

وعاب أبو سعيد محمد بن هبيرة على امرىء القيس قوله :

وللسوط فيها مجال كما   تنزل ذو برد منهمر

فقال « هذا ردىء ما لها وللسوط » ولكن ابن أيوب أراد أن يخلص البيت من العيب فقال « أى لها عن السوط مجال ، ولو أراد الضرب لكانت كسرعة حمار الكساح » .

* * *

ولما تنازع امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة الفحل الشعر واحتكما إلى أم جندب زوجة امرىء القيس فضلت علقمة وعابت على زوجها قوله :

فللسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع أخرج مهذب

وقالت له أجهدت فرسك بسوطك فى زجرك ومريته فأتعبته بساقك ، فهو فرس بطىء لأنه يحوج إلى السوط وإلى أن يركض بالرجل ويزجر أما ابن عبدة فإنه قال :

فأدركهن ثانياً من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك فرسه الصيد ثانياً من عنانه ، ولم يضربه بسوط ولم يتعبه ، وقد ذكر العلماء هذه المفاضلة من غير تعليق ولا تعقيب ، كأنهم يوافقون أم جندب فى نقدها . ولكننا عند التأمل وإنعام النظر نرى أن فرس امرىء القيس لا يقل عن فرس صاحبه فى طلب الصيد وإدراكه وسرعة لحاقه ، وإن كان فى ذكر امرىء القيس للسوط والساق والزجر شىء من الهجنة والنقص فنحن نرى أنه قد ذكر هذه الأشياء ليدل على مبلغ عنايته برياضة فرسه وتأديبه ، وأن عنده أفانين من الجرى فيعطى راكبه ما يشاء منها ، وقد ألم بهذا المعنى فى غير هذا الموضع إذ يقول :

على لاحق يعطيك قبل سؤاله   أفانين جرى غير كز ولاوان

على أن امرأ القيس بعد ذلك البيت الذى عابته عليه أم جندب قال :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخذروف الوليد المثقب

وهذا البيت يدل على ما يدل عليه بيت علقمة ، بل إنه يزيد عليه حسناً ومتانة ، ولكن أم جندب كانت ظالمة لامرىء القيس فجارت فى حكومتها وذلك لحاجة فى نفسها ، لأنها كانت تكرهه لفركه وكان هواها مع علقمة ، ولذلك فإنه خلف امرأ القيس عليها ، وفى ذلك ما يدل على تحيزها لعلقمة .

وفوق ما تقدم فإن ابن المعتز ينكر أن قصيدة (خليلى مرابى) من شعر امرىء القيس كما أن المفضل يرويها لعلقمة . وابن الجصاص وحماد يرويان القصيدتين لامرىء القيس .

* * *

وبعد ما سبق فإن أسرف المنتقدون على امرىء القيس فى الذم وبالغوا عليه بالطعن وتجاوزوا الحد الذى يقف عنده المحتج المناظر إلى مذهب المسقط المغالط ، والمتعصب المتحامل ، فلسنا نمنع أن يكون امرؤ القيس قد وهم فى بعض شعره ، وعدا عن الوجه الأوضح فى شىء من معانيه . وغير منكر لفكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى بعض الأوقات ، والزلل فى بعض الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه ، وابتدع ابتداعه أن يسامح من سهوه ، ويتجاوز له عن زلله ، فلكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة ولكل شاعر سقطة .

تأثر امرىء القيس بغيره

كانت الحياة الجاهلية على ما تعلم حياة بدوية أولية لا تعقيد فيها ولا تكلف وهى على فطرتها حياة خشنة جاسية كل ما فيها شاة وبعير ، وخيام وقباب ، وغيث وكلأ . تمتزج فى أكثر أحيانها بشظف العيش وكلالة البال مما أدى بهم إلى التدافع على النجعة والتكالب على المرعى ، وكان داعية لقيام العداوة بينهم ومحاربة بعضهم بعضا .

واللغة ككل أعراض الحياة خاضعة لمزاج أهلها ، فهم الذين يخلعون عليها الخشونة ، أو يزينونها بألوان من الرقة . ولذلك كانت اللغة العربية فى جاهليتها متمشية مع الروح التى سرت إليها من أهلها ، تستعمل فى أغراض معيشتهم وكل ما يلائم بيئتهم ويناسب طباعهم ، دون إغراق فى الاستعمال ، ولا غلو فى ترتيب المعانى والأفكار ، بل يرسلون القول لطيته على حسب ما تتخيله نفوسهم ، وتستدعيه بديهتهم ، فيدخلون معنى فى معنى ، وينتقلون اقتضاباً من غرض إلى غرض ، دون تحيل ولا تلطف ، وقد يمهدون لذلك بقولهم دع ذا وعد عن ذا ، أما ألفاظهم وأساليبهم فكانت كما كانت حياتهم وليدة الفطرة والبداوة فيها جزالة ، وعلى مخايلها شئ من الوعورة ، ومن مذاهبهم فى قصائدهم أن يفتتحوها بالنسيب وذكر الرحيل والانتقال وتوقع البين والإشفاق منه وصفة الطلول والحمول تعطيفاً للقلوب واستدعاء للقبول لما فى الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء . وإن ذلك استدراج إلى ما بعده .

وقد تأثر امرؤ القيس فى كلياته بتلك الروح الغالبة على عصره ، فقد كان يبدأ قصائده بالنسيب ووصف النساء وذكر محاسنهن وديارهن ولهوه معهن ، وينتقل بعد ذلك إلى ما يأخذ فيه من الأغراض التى تستوحيها حياة البادية ، من وصف للفرس ، وخروج للصيد ، ووصف للغيث والكلأ ،

وذكر نبله وفتوته ، والافتخار بنجاره إلى غير ذلك . وقد يكون هذا الانتقال طفرة كما انتقل فى معلقته من النسيب إلى وصف الليل فقال :

ألا رب خصم فيك ألوى رددته ... نصيح على تعذاله غير مؤتل
وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى

وقد يكون بقوله دع ذا كما انتقل فى قصيدته (سما لك شوق بعد ما كان أقصرا) إلى وصف الناقة بقوله :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجرا

وقد ظهر أثر البداوة فى شعر امرىء القيس أيضاً فى جفاء عبارته ، ووعورة ألفاظه ، وتجهم معانيه ، وخشونة تشبيهه . وأنت تدرك ذلك فى قوله

برهرهة رودة رخصة ... كخرعوبة البانة المنفطر (١)

وقوله :

وأركب فى اللهام المجر حتى ... أنال مآكل القحم الرغاب (٢)

وقوله :

وظل لصيران الصريم غماغم ... يداعسها بالسمهرى المعلب (٣)
فكاب على حر الجبين ومتق ... بمدرية كأنها ذلق مشعب (٤)

---

(١) البرهرهة الرقيقة الجلد الملساء المترجرجة . والرودة الشابة . والرخصة الناعمة . والخرعوبة الغضة . والبانة قضيب البان . والمنفطر المنشق .

(٢) اللهام الجيش العرمرم والمجر الثقيل المتئد فى سيره . والقحم البضع الكثيرة من الأموال وغيرها والرغاب الواسعة .

(٣) الصيران جمع صوار وهو الثور الوحشى . والصريم منقطع الرمل . والغماغم الأصوات والخوار . ويداعسها يطاعنها . السمهرى الرمح والمعلب الملوى بالعلباء وهى عصبة تشد على العصى إذا خافوا أن تتكسر .

(٤) الكابي الساقط على وجهه . وحر الجبين ما ظهر من الوجه . والمدرية القرن . والذلق الحد والمشعب المخرز .

ففئنا إلى بيت بعلياء مردح سماوته من أتحمى معصب[١]

وتقف أيضاً على خشونة تشبيهه فى قوله يصف بنان معشوقته الناعمة :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل

فقد شبه تلك البنان الرخصة بدود ظبي أو مساويك إسحل ، وكذلك فى قوله يصف شعر معشوقته أيضاً :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل

فإنه يشبه شعرها بقنو النخلة .

على أن امرأ القيس كان فى كثير من الأحيان يجنح فى شعره إلى حسن الديباجة ، وبديع المعنى ، ودقيق الوصف ، ورقيق التشبيه ، وسهولة المأخذ وعذوبة النسيب ، وذلك لأنه وإن تأثر بعصره وشاكل من حوله إلا أنه اختط لنفسه طريقا مستقلا ومنزعا خاصا ، حتى ليخيل إلينا أنه أمة وحده لا يستمد من أحد من أهل زمانه ، على حين أنهم ينبوع عقله ومدد بحره ، وذلك سر عظمته مما جعل الشعراء بعده يحتذون حذوه ، ويحاكونه فى تهذيب أشعارهم ، وترقيق معانيهم

* * *

أما عن تأثر امرىء القيس فى جزئياته فقد ذهب أستاذى المغفور له (شاعر البادية)[٢] إلى أن الأثر الأول فى ذلك لعبيد بن الأبرص ، وقد يكون هذا صحيحا ، والحجة فى ذلك أن عبيداً أكبر من امرىء القيس سنا وأقدم زمانا ، فقد قال أبو حاتم السجستانى فى كتاب المعمرين إن عبيداً عاش زهاء المائتى سنة أخذاً من قوله :

مائتى زمان كامل ونضية عشرين عشت معمراً محمودا
وشهدت أول ملك نصر ناشئا وبناء شداد وكان أبيدا

(١) فئنا رجعنا . ومردح واسع . وسماوته أعلاه . والاتحمى البرود المحوكة . والمعصب أى المحوكة بعصب اليمن .

(٢) هو الشيخ محمد عبد المطلب المتوفى سنة ١٩٣١ م .

وأول ملك بنى نصر كان فى أواخر القرن الثالث ، لأن أول ملوكهم عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة الأبرش وهو الذى أخذ بثأره من الزباء وتولى الملك بعده . ومهما قيل فى ذلك من التأويل فإنه لابد أن يكون عبيد أكبر من امرىء القيس بزمن طويل قال فيه الشعر وتفنن فيه وامرؤ القيس إما فى عالم الغيب وإما فى عداد الأطفال ، ولا يسع المؤرخ أن ينسب ما يتوافقان فيه من المعانى والأساليب إلا إلى السابق ولا مرية فى أنه عبيد[1] ويظهر هذا الأثر فى قول عبيد :

عيناك دمعهما سروب كأن شأنيهما شعيب

فقد أخذه امرؤ القيس فقال :

عيناك دمعهما سلسال كأن شأنيهما أوشال

وقال عبيد :

أو جدول فى ظلال نخل للماء من تحته قسيب

فتبعه امرؤ القيس وقال :

أو جدول فى ظلال نخل للماء من تحته مجال .

وقال عبيد :

قطعته غدوة متيمنا وصاحبي بادن جنوب

فقال امرؤ القيس :

قد أقطع الأرض وهى قفر وصاحبي بازل شملال

(١) عبيد فحل من فحول شعراء الجاهلية وهو من أهل السبق والافتنان فى الشعر وإنما أخره عن الطبقة الأولى عندهم أنهم لم يجدوا له كثيراً مثل ما وجدوا لغيره كما أشار إلى ذلك ابن سلام . وقيل إن منيته كانت على يد المنذر بن ماء السماء فى يوم من أيام بؤسه . وله ديوان مطبوع فى أوربا .

وقال عبيد :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن سلكن غميراً دونهن غموض

فتبعه امرؤ القيس فقال :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن سلكن ضحيا بين حزمى شعبعب

وتبعه الشعراء بعده كزهير إذ يقول :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم

وقال عبيد :

كأن ريقتها بعد الكرى أغبقت صهباء صافية بالمسك مختومة

فقال امرؤ القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر

وتابعهما فى ذلك شاعر آخر فقال :

لو ذقت فاها بعد نوم المدلج والصبح لما هم بالتبلج
قلت جنا النحل بماء الحشرج يخال مثلوجا وإن لم يثلج

وقال عبيد :

حبست فيها صحابى كى أسائلها والدمع قد بل منى جيب سربالى

ويقول امرؤ القيس :

ففاضت دموع العين منى صبابة على النحر حتى بل دمعى محملى

واقتفى أثرهما فى ذلك النابغة حيث يقول :

فكفكفت منى عبرة فرددتها على النحر منها مستهل ودامع

ويقول عبيد :

زعمت أننى كبرت وأنى قل مالى وضن عنى الموالى

وصحا باطــلى وأصبحت كهلا   لا يؤاتى أمثـالها أمثـالى

فيقول امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى   كبرت وألا يحسن السر أمثالى

وقال عبيد :

كأن أظعانهم نخــل مسوقة   سود ذوائبها بالحمـل مكمومـة

فقال امرؤ القيس :

أو ما ترى أظعـانهن بواكرا   كالنخل من شوكان حين صرام

وقال عبيد :

وبيت عـذارى يرتمين بخـدره   دخلت وفيه عانس ومريض

فقال امرؤ القيس :

وبيت عذارى يوم دجن ولجته   يطفن بجبـاء المرافق مكسال

وغير ذلك كثير مما يظهر عند قراءة ديوانيهما

ومما يدل أيضاً على تأثير عبيد فى امرىء القيس تلك المحاجاة التى كانت بينهما ، فإنها عندنا مثال من أمثلة التمرين الذى يعمله غالباً الأكبر للأصغر ليختبره . إذ يقول له عبيد ما معرفتك بالأوابد فيقول امرؤ القيس قل ما شئت تجدنى كما أحببت ، فيقول عبيد :

ما حيـــة ميتـة قامت بميتتها   درداء ما أنبتت سناً وأضراسا

فيقول امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تسقى فى سنابلها   فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

وهكذا ظل عبيد سائلا وامرؤ القيس مسئولا مجيباً حتى انتهيا . ولقد كان عبيد يقول الشعر مفتخراً على امرىء القيس ، ومن ذلك قصيدته التى يقول فيها :

ياذا المخوفنا بقتــل أبيه إذلالا وحينـا

وقد تقدمت

ومن ذلك أيضاً قصيدته التى يقول فيها :

أمن رسوم نأيها راحــل ومن ديار دمعك الهامل
أجالت الريح بها ذيلهـا عاما وجون مسبــل هاطل

وفيها يقول أيضاً :

يا أيها السائل عن مجدنا إنك عن مسعاتنـا جاهــل
إن كنت لم تسمع بآبائنا فسل تنبـأ أيهـا السائل
سائل بنـا حجراً غداة الوغى يوم تولى جمعــه الحافل
يوم لقوا سعــداً على ماقط وحاولت من دونه كاهــل
فأوردوا سرباً له ذيلا كأنهن اللهب الشاعــل
وعامراً أن كيف يعــلوهم إذا التقينـا المرهف الناهل
قومى بنو دودان أهل الحجى يوما إذا ألقحت الحائل
كم فيهم من سيــد أيد ذى نفحات قائل فاعــل
من قوله قول ومن فعــله فعــل ومن نائله نائل
القائل القول الذى مثــله يمرع منـه البــلد الماحل
لا يحرم السـائل إن جاءه ولا يعفى سيبــه العاذل
الطاعن الطعنــة يوم الوغى يذهل منــه البطل الباسل

وهذه القصيدة تشا كل قصيدة امرىء القيس التى مطلعها :

يا دار ماوية بالحــائل فالسهب فالخبتين من عاقل

وقد تقدمت :

وإذا وازنا بين القصيدتين نجد أن عبيداً أشعر الرجلين حتى لكأنه قلب بامرىء القيس الأرض أو طبق عليه السماء .

وامرؤ القيس وإن تأثر بعبيد فمن المعقول أيضاً أن يكون عبيد متأثراً بامرىء القيس كذلك .

ولئن صح ما قاله ابن رشيق من أن امرأ القيس كان يتوكأ على أبى دواد الإيادي ويروى شعره ليكونن متأثراً به ولا سيما أن أبا دواد — كما ذكر صاحب الأغانى — كان وصافاً للخيل ، وأكثر أشعاره فى وصفها . وقد قال ابن الأعرابى أيضاً لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبى دواد . وقد فتشت كثيراً فيما وقع لى من كتب الأدب علنى أعثر على شعر لأبى دواد أستطيع معه أن أبين أثره فى امرىء القيس فلم أوفق ولم أعثر له إلا على بعض مقطعات فى كتاب الأغانى ومهذبه لا تسد حاجتنا ولا تفى بغرضنا ، ولكن فيها بعض ما نود وهى

من قوله فى وصف الفرس :

ولقد اغتدى يدافع ركنى أحوذى ذو ميعة إضريج
مخلط مزيل مكر مفر منفح مطرح سبوح خروج
سلهب سرحب كأن رماحا حملته وفى السراة دموج

ويظهر أثر هذا الشعر فى قول امرىء القيس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وماشا كل ذلك

وفى قوله :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وما شاكله أيضاً :

ومن شعر أبى دواد أيضاً ما قاله لزوجته أم حبتر ، وقد عاتبته على سماحته بماله ، فلم يعتبها ، فصرمته ، قال :

حاولتِ حين صرمتنى والمرء يعجز لا محالة
والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعالة

والمرء يكسب ماله والشح يورثه الكلالة
والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة
والسكت خير للفتى فالحين من بعض المقالة

وندرك شيئا من تأثر امرىء القيس بهذا الشعر حين يقول أبو دواد :

والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعالة

فيقول امرؤ القيس :

ألم أخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا

وحين يقول أبو دواد :

والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة

فيقول امرؤ القيس :

قولا لدودان عبيد العصا ما غركم بالأسد الباسل

ومن شعر أبى دواد قوله يصف ثورا خارجا من أجمة :

وبدت له أذن توجس حرة وأحم وارد
وقوائم عوج لها من خلفها زمع زوائد
كمقاعد الرقباء للضرباء أيديهم نواهد

وقوله يمدح الحارث بن همام بن مرة ويذكر ناقته الزباء ، وكان الحارث قد جاوره فأحمد جواره

فإلى ابن همام بن مرة أصعدت ظعن الخليط بهم فقال زيالها
أنعمت نعمة ماجد ذى منة نصبت عليك من العلا أظلالها
وجعلتنا دون الولى فأصبحت زباء منقطعاً إليك عقالها

ومما قاله لزوجته أم حبتر أيضاً :

فى ثلاثين زعزعتها حقوق أصبحت أم حبتر تشكونى
زعمت لى بأننى أفسد المال وأزويه عن قضاء ديونى

أملت أن أكون عبداً لمالى ويهنا بها مـع المال دونى

وهو القائل أيضاً :

لا أعد الإقتار عدما ولكن فقد من قد رزئته الإعدام
من رجال من الأقارب بادوا من حذاق هم الرءوس العظام
فهم للملاينين أناة وعرام إذا يراد العرام
وسماح لدى السنين إذا ما قحط القطر واستقل الرهام
ورجال أبوهم وأبى عمرو وكعب بيض الوجوه جسام
وشباب كأنهم أسد غيل خالطت فرد حدهم أحلام
وكهول بنى لهم أولوهم مأثرات يهابها الأقوام
سلط الدهر والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام
وكذا كم مصير كل أناس سوف حقا تبليهم الأيام
فعلى إثرهم تساقط نفسى حسرات وذكرهم لى سقام

ومن قوله :

يا عدياً لقلبك المهتاج إن عفا رسم منزل بالنباج
غيرته الصبا وكل ملث دائم الودق ذى أهاضيب داج
وحملنا غلامنا ثم قلنا هاجر العيس ليس منك بناج
فانتحى مثل ما انتحى باز دجن جوعته القناص للدراج

أما غير عبيد وأبى دواد ممن تأثر بهم امرؤ القيس فقد قيل إن خاله المهلهل هو الذى علمه القريض ، وقد قدمنا أن امرأ القيس تأثر به من جهة الوراثة . والمعهود إلى عصرنا هذا أيضاً أن كل شاعر يستقى الشعر من الطبقة التى تحيط به، ويتأثر بشعراء زمنه أو المتقدمين عليه ، ونحن نعلم أن امرأ القيس لقى التوأم اليشكرى وكانت بينهما مماتنة شعرية ، ولقى علقمة الفحل أيضا والسموءل وصحب عمرو بن قميئة وجابر بن حنى وكانا يكبرانه سنا ، ومن شعراء عصره ممن لم نعرف لقاءهم به الحارث بن عباد والمرقش الأكبر

والمرقش الأصغر وذو الأصبع العدوانى وهم أكبر منه سنا وأبعد زمنا ، ومنهم أيضا سعد بن مالك جد طرفة وزهير بن جناب الكلبي ، ومن أقرانه طرفة والمتلمس . وغير هؤلاء من فحول شعراء الجاهلية ممن ذكرنا وممن لم نذكر ممن هو أكبر من امرىء القيس سنا ومات قبله أو غبر بعده أو أصغر منه ومات فى عهده أو بقى بعده ، وكلهم شاعر مفطور تبدو شاعريته ولو فى القليل من كلامه . على أن امرأ القيس وإن تأثر بمعاصريه فى أنحاء القول فإن هذا الأثر عندنا لا يعدو ارتفاع العقل ونضج الملكة وهو إن تأثر بهم فإنه والحق يقال له أثر كبير فيهم ، فكلاهما على الحقيقة متأثر بصاحبه ومؤثر فيه .

أثر امرىء القيس فى غيره

لا نرى العرب القدامى أعجبوا بشاعر إعجابهم بامرىء القيس فى جودة معانيه ، وابتداع الكثير منها، وسلوكه فى زمانه مذهب المجددين المخترعين فى الأساليب . ولذلك فقد تأثر به الشعراء فى الكليات والجزئيات . أما أثره فى الكليات فقد قال العلماء إنه سبق الشعراء جميعاً إلى أشياء ابتدعها واستحسنها غيره من الشعراء واتبعوه فيها ، فهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى وشبه النساء بالبيض والظباء والمها ، والخيل بالعقبان والعصى . وهو أول من قيد الأوابد ، وأول من رقق النسيب ، وفرق بين الغزل وغيره من فنون الشعر ، وهو أول من اخترع هذا الضرب من التشبيه المعروف عند علماء البلاغة بالتشبيه الملفوف فى مثل قوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العناب والحشف البالى

وهو أول من اخترع الاستعارة — كما قال ابن وكيع — فى قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل

فاستعار لليل سدولا يرخيها ، وصلباً يتمطى به ، وأعجازا يردفها ، وكلكلا ينوء به .

وهو أول من ابتكر هذا النوع من الاستعارة المعروف بالمماثلة أو التمثيل فى مثل قوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فقد مثل عينيها بسهمى الميسر ، يعنى المعلى وله سبعة أنصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل .

وهو أول من اخترع التشبيه الوهمى فى قوله :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهو أول من اخترع التشبيه المؤكد المحذوف الأداة ، وكان التشبيه قبله مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها .

وهو كما قال ابن رشيق أول من فتح باب تشبيه أربعه بأربعة والتشبيه بالإضافة فى قوله :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وهو أول من استعمل هذا النوع المعروف بالتتبع فى مثل قوله :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وقوله :

أمرخ خيامهم أم عشر أم القلب فى إثرهم منحدر

وهو أيضاً أول من ابتكر هذا النوع المعروف بالإيغال فى مثل قوله:

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول هزيز الريح مرت بآثاب

* * *

أما أثر امرىء القيس فى الجزئيات فهذا باب واسع نأتى منه بما يتسع له المقام :

قال امرؤ القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

فقال طرفة :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وقال امرؤ القيس يصف فرسه :

ويخطو على صم صلاب كأنها حجارة غيل وارسات بطحلب

فقال النابغة :

كأن حواميه مدبرا خضبن وإن كان لم يخضب

حجارة غيل برضراضة كسين طلاء من الطحلب

وقال امرؤ القيس يصف الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

وتابعه فى ذلك الوصف النابغة فقال :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وقد اختلف الوليد بن عبد الملك مع أخيه مسلمة فى أى الشعرين أحسن فى وصف الليل أشعر امرىء القيس أم شعر النابغة ؟ واحتكما إلى الشعبى فقضى لامرىء القيس .

ويظهر معنى بيت امرىء القيس :

كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

فى قول الأرجانى :

يخيل لى أن سمر الشهب فى الدجا وشدت بأهدابى إليهن أجفانى

ومن مخترعات امرىء القيس المتنازعة فى الحسن قوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

وقد قلده فيه شاعر متأخر فقال :

أدب إليها دبيب الكرى وأسمو إليها سمو النفس

وتابعه فيه أيضاً وضاح اليمن فولد منه معنى مليحاً قال :

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر

وقلده فيه أبو تمام بعد أن عدل به إلى وجه المديح فقال : ـ

سما للعلا من جانبيه كليهما سمو حباب الماء جاشت غواربه

وما قيل فى إخفاء الحركة والدبيب أبلغ ولا أبرع من بيت امرىء القيس وهو أول من طرق هذا المعنى فيه وابتكره .

ومن البديع قول امرىء القيس فى أذنى الفرس : ـ

وسامعتان يعرف العتق فيهما كسامعتى مذعورة وسط ديرب

اتبعه طرفة فقال فيه : ـ

وسامعتان يعرف العتق فيهما كسامعتى شاة بحومل مفرد

ومثله قول امرىء القيس فى وصف الفرس : ـ

وعينان كالماويتين ومحجر إلى سند مثل الصفيح المنصب

فقال طرفة فى وصف عينى ناقته : ـ

وعينان كالماويتين استكنتا بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد

وقال امرؤ القيس : ـ

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فاتبعه ابن الطثرية وقال :

إذا ما الثريا فى السماء كأنها جمان وهى من سلكه فتبددا

وقال امرؤ القيس : ـ

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

فأخذه ابن الرومى وقال : ـ

فيالك من نفس تساقط أنفسا تساقط در من نظام بلا عقد

وقال امرؤ القيس : ـ

كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

فتبعه فيه غيلان ذو الرمة فقال : ـ

نجلاء فى برج صفراء فى نعج كأنها فضة قد مسها ذهب

واتبعه فيه أمير الشعر فى العصر الحديث (شوقى بك) فقال

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

وقال امرؤ القيس :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

فأخذه عبد يغوث وقال :

كأنى لم أركب جواداً ولم أقل لخيلى كرى نفسى عن رجاليا
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لأيسار صدق عظموا ضوء ناريا

وقال امرؤ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظرعال[1]

فأخذه الحارث بن حلزة وقال :

فتنورت نارها من بعيــد بخزاز هيهات منك الصلاء

ومثله أيضاً قول الآخر :

أليس بصيراً من رأى وهو قاعد بمكة أهل الشام يختبزون

وقال امرؤ القيس فى وصف الناقة :

وعنس كألواح الأران نسأتها على حب كالبرد ذى الحبرات

فقلده طرفة وقال :

وعنس كألواح الأران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

وقال امرؤ القيس فى طباع النساء :

أراهن لايحببن من قل ماله ولامن رأين الشيب فيه وقوسا

---

(١) قال الوزير أبو بكر قد فوضل بين غلو امرىء القيس فى هذا البيت وغلو مهلهل فى قوله :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

وبين حجر وهى قصبة اليمامة وبين مكان الواقعة عشرة أيام فقيل هو أشد غلوا من امرىء القيس لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد إدراكا .

فاتبعه علقمة وقال :

فإن تسألونى بالنساء فإننى خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

وقال امرؤ القيس :

يضىء الفراش وجهها لضجيعها كمصباح زيت فى قناديل ذبال

فتعاورت الشعراء هذا البيت وزادت فيه ، قال أبو الطيب المتنبى :

أمن ازديارك فى الدجا الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياء

ومثل قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

قول البحترى :

لها منزل بين الدخول فتوضح متى تره عين المتيم تسفح

وقال امرؤ القيس :

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هونة غير مجبال

وقال أيضاً :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

فتابعه الجعدى فى بعض ألفاظ الأول ، وفى معنى البيت الثانى ، فقال :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت عليه فكانت لباسا

وقال امرؤ القيس :

كأن الحصى من خلفها وأمامها إذا نجلته رجلها حذف أعسرا

فأخذه الشماخ وقال :

لها منسم مثل المحارة خفه كأن الحصا من خلفه حذف أعسرا

وقال امرؤ القيس :

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

فقال له أوس بن حجر :ـ

يزل قتود الرحل عن دأياتها كما زل عن عظم الشجيج المحارف

وقال امرؤ القيس يصف الفرس :ـ

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا له حجبات مشرفات على الفال

فتابعه كعب بن زهير وقال :ـ

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا كأن مكان الردف من ظهره قصر

وقال امرؤ القيس فى الخمر :ـ

فلما استطابوا صب فى الصحن نصفه وشجت بماء غير طرق ولا كدر

بماء سحاب زل عن متن صخرة إلى بطن أخرى طيب ماؤها خصر

فأخذها كعب وقال :ـ

شجت بذى شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

تنفى الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب سارية بيض يعاليل

ويشاكل معنى البيت الأول من بيتى امرىء القيس قول أبى نواس :ـ

قرارتها كسرى وفى جنباتها مهى تدريها بالقسى الفوارس

فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

وقال امرؤ القيس :ـ

وما المرء مادامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آلى

فقلده فيه شاعر آخر فقال :ـ

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضى

وقال غيره :ـ

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى

وإن من يقرأ قصيدة امرىء القيس وقصيدة علقمة اللتين احتكما فيهما إلى أم جندب يرى فيهما أبياتا كثيرة مشتركة فى ألفاظها ومعانيها مثل قول امرىء القيس :ـ

وعين كمرآة الصناع يديرها   بمحجرها من النصيف المثقب

وقول علقمة :

بعين كمرآة الصناع يديرها   بمحجرها من النصيف المثقب

ومثل قول امرىء القيس :

بمنجرد قيد الأوابد لاحه   طراد الهوى كل شأو مغرب

قاله علقمة بهذا اللفظ عينه أيضاً

ومثل قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا   وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

وقوله أيضاً :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها   وماء الندى يجرى على كل مذنب

قالها علقمة بلفظهما أيضاً :

وكقول امرىء القيس :

فعادى عداء بين ثور ونعجة   وبين شبوب كالقضيمة قرهب

قاله علقمة :

وعادى عداء بين ثور ونعجة   وتيس شبوب كالهشيمة قرهب

وغير ذلك من المعانى والألفاظ المشتركة التى يجلوها على القارىء تصفح القصيدتين وهما فى ديوان كل منهما فى كتاب العقد الثمين وفى مهذب الأغانى أيضاً :

وقال امرؤ القيس :

فأدركهن ثانيا من عنانه   كغيث العشى الأقهب المتودق

ومثله قول علقمة .

فأدركهن ثانياً من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب

وقال امرؤ القيس .

لها ذنب مثل ذيل العروس   تسد به فرجها من دبر

فقلده خداش بن زهير وقال :

لها ذنب مثل ذيل الهدى   إلى جؤجؤ أيد الزافر

وقال امرؤ القيس :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وقد أخذ هذين البيتين وبسط معناهما خفاف بن غضين البرجمى فقال

ولو أن ما أسعى لنفسى وحدها   لزاد يسير أو ثياب على جلدى
لهان على نفسى وبلغ حاجتى   من المال مال دون بعض الذى عندى
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وكان أبى نال المكارم عن جدى

وقال امرؤ القيس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فاقتدى به الناس واتبعه الشعراء وولدوا من قوله قيد الأوابد معانى أخرى ، فقيل قيد النواظر ، وقيد الألحاظ ، وقيد الكلام ، وقيد الحديث ، وقيد الرهان . قال الأسود بن يعفر :

بمقلص عتد جهير شده   قيد الأوابد والرهان جواد

وقال أبو تمام :

لها منظر قيد النواظر لم يزل   يروح ويغدو فى خفارته الحب

وقال آخر :

ألحاظه قيد عيون الورى   فليس طرف يتعداه

وقال آخر :

قيد الحسن عليه الحدقان

وكذلك قول أبى الطيب :

أجـــل الظلم وربقـــة السرحان

وقال امرؤ القيس .

وإن شفـائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

فتابعه ذو الرمة وقال :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفى نجى البلابل

وتابعه أيضاً الحسن بن وهب وقال :

إبك فما أكثر نفع البكا والحب إشفـاق وتعليل

وهو إذا أنت تأملتـــه حزن على الخدين محلول

وتابعه الفرزدق فقال :

فقلت لها إن البكاء لراحـــة به يشتفى من ظن أن لا تلاقيا

وقلده أبو تمام أيضاً فقال :

واقعاً بالخـــدود والبرد منه واقع بالقـلوب والأكبـاد

وقال امرؤ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فأخذه الطرماح بن حكيم الطائى ، وقاله بلفظه ومعناه فى مطلع قصيدة له

ألا أيها الليل الطويل ألا اصبح بثم وما الإصباح فيك بأروح

وأخذه ابن عيينة أيضاً ، وجعله فى الشوق إلى الوطن فقال :

طال من ذكره بجرجان ليلى ونهـارى علىّ كالليـل داجى

وقال امرؤ القيس :

إذا ركبوا الخيـل واستلأموا تحرقت الأرض واليوم قر

فأخذه نهشل وقال :

ويوم كأن المصطلين بحره وإن لم يكن حر قيـام على جمر

ومثله قول الطائى :

ويوم يظل العز يحفظ وسطه لسمر العوالى والنفوس مضيع

مصيف من الهيجا ومن جمرة الوغا ولكنه من وابل الدمع مرتع

وقال امرؤ القيس :

وسالفـــة كسحوق اللبا ن أضرم فيها الغوى السعر

ومثله لطفيل :

كأن على أعرافه ولجامـــه سنا ضرم من عرفج متلهب

ومثله للعجاج .

سفواء سرخاء تبارى معلجا كأنمـــا يستضرمان العلفجا

وقال امرؤ القيس .

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

فقلده فيه أبو الطيب المتنبي وأجاد فيه فقال :

أتت زائراً ماخامر الطيب ثوبها وكالمسك فى أردانها يتضوع

وقال امرؤ القيس :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

أخذه أبو تمام فقال :

وضعيفة إذ أمكنت عن قدرة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

وقال امرؤ القيس :

تراهن من تحت الغبار نواصلا ويخرجن من تحت الثرى متنصب

فتابعه طفيل وقال :

إذا هبطت سهلا حسست غباره بجانبه الأقصى دواخن تنصب

وقال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لودب محول من الذر فوق الإتب منها لأثرا

فقال أبو الطيب مقلداً هذا المعنى :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

وقلده حميد بن ثور أيضاً فقال :

منعمة بيضاء لو دب محول على جلدها بضت مدارجه دما

وقال امرؤ القيس :

فبعض اللوم عاذلتى فإنى ستكفينى التجارب وانتسابى

ومثله قول لبيد :

فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد فلتدعك العواذل

وقال امرؤ القيس :

وبات إلى أرطاة حقف كأنها إذا ألثقتها غبية بيت معرس

ومثلة قول ذى الرمة :

إذا استهلت عليه غبية أرجت مرابض العير حتى مازج الخشب
كأنه بيت عطار يضمنه لطائم المسك يحويها وتنتهب

وقال امرؤ القيس :

وشمائلى ما قد علمت وما نبحت كلابك طارقاً مثلى

فقلده عنترة وقال :

وكما علمت شمائلى وتكرمى

ويظهر أثر امرىء القيس فى قصيدة لبيد التى مطلعها « ألم تلمم على الدمن الخوالى التى يقول فيها :

أصاح ترى بريقا هب وهنا كمصباح الشعيلة فى الذبال
أرقت له وأنجد بعد هدء وأصحابى على شعب الرحال

يضيء ربابه بالمزن حبشاً   قياما بالحراب وبالألال
وأصبح راسياً برضام دهر   وسال به الخمائل فى الرمال
وحط وحوش صاحة من ذراها   كأن وعولها رمك الجمال
على الأعراض أيمن جانبيه   وأيسره على كورى أثال
أقول وصوبه منى بعيد   يحط الشث من قلل الجبال
سقى قومى بنى مجد وأسقى   نميراً والقبائل من هلال

وقد تبع امرأ القيس فى غزله ودبيبه وتعرضه عمر بن أبى ربيعة . ويظهر أثر ذلك فى قصيدته التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر

وأيضاً فى قصيدته التى مطلعها :

ألم تسأل الأطلال فالمتربعا   ببطن خليات دوارس بلقعا

ومن أحسن معانى امرىء القيس عند اليأس من الحب والهوى ذلك المعنى الذى اتبعه الشعراء فيه ولا يزالون يتبعونه إلى عصرنا هذا وهو قوله

أماوى هل لى عندكم من معرس   أم الصرم تختارين بالوصل نيأس
أبينى لنا إن الصريمة راحة   من الشك ذى المخلوجة المتلبس

قلده فيه ابن ميادة فقال :

فلا صرمه يبدو وفى اليأس راحة   ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

وقال شاعر ناشىء :

لو أن هذا الصدود هجر   لكنت أرتاح من شجونى

ومن مخترعات امرىء القيس أيضاً قوله فى عرفان الأطلال الدارسة بما فى نفسه من الشغف إليها :

لمن طلل دارس آيه   أضر به سالف الأحرس
تنكره العين من جانب   ويعرفه شغف الأنفس

وقد قلده فيه أبو نواس فقال :

ألا لا أرى مثلى امترى اليوم فى رسم ... تغص به عينى ويلفظه وهمى
أتت صور الأشياء بينى وبينه ... فظنى كلا ظن وعلمى كلا علم

وقد قلده فيه أيضاً شاعر قرشى فقال :

لو بدلت أعــلى منـازلها ... سفلا وأصبح سفلها يعلو
لعرفت مغناها بمـا احتملت ... منى الضـلوع لأهلها قبل

وقد سمع بعض النقاد منشداً ينشد بيتى القرشى فقال ما بقى على هذا إلا أن يدعو على ديار صاحبته بحجارة من سجيل تجعل عاليها سافلها

وأخذ هذا المعنى من امرىء القيس أيضاً شاعر آخر فأحسن وأجاد وجعل الحديث عن هداية راحلته فقال :

لا تقفها على السبيل ودعهـا ... يهدها شوق من عليهـا السبيلا

هذا ما وسعه المقام من التنبيه على بعض معانى امرىء القيس التى سلكها فى شعره والتى قلده فيها شعراء عصره ومن أتى بعده .

ما جرى على لسان امرىء القيس
من
استعمالات القرآن الكريم وألفاظه

لما كان القرآن الكريم قرآنا عربياً غير ذى عوج ، نزل بلسان مبين ، فيه مثل ما فى كلام العرب من اللفظ المختلف ، ومجاز المعانى ، فنحن نذكر هنا بعضاً من أشعار امرىء القيس التى توافق فيها مع القرآن الكريم من حيث الألفاظ ومعانيها ، ومن حيث الاستعمال اللغوى ، فمن ذلك قول امرىء القيس :

قفا نسأل الأطلال عن أم مالك   وهل تخبر الأطلال غير التهالك

فقد علم أن الأطلال لا تجيب إذا سئلت ، وإنما معناه قفا نسأل أهل الأطلال . وقال تعالى (واسأل القرية التى كنا فيها) يعنى أهل القرية .

ومثل ذلك قول امرىء القيس أيضاً : ـ

أبت أجأ أن تسلم العام جارها   فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

أى أبت القبيلة التى تحل أجأ

وقال امرؤ القيس : ـ

وتبرجت لتروعنا   فوجدت نفسى لم ترع

وقال تعالى (غير متبرجات بزينة) والتبرج هو أن تبدى المرأة زينتها

وقال امرؤ القيس : ـ

وماء آسن بركت عليه   كأن مناخها ملقى لحام

والآسن المتغير قال تعالى (فيها أنهار من ماء غير آسن) أى غير متغير

وقال امرؤ القيس : ـ

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى   كبرت وألا يحسن السر أمثالى

والسر النكاح . قال تعالى (ولـكن لا تواعدهن سرا)

وقال امرؤ القيس :ـ

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

وقال تعالى (ولأوضعوا خلالـكم يبغونـكم الفتنة) والإيضاع ضرب من السير .

وقال امرؤ القيس :ـ

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشى مجلب

خفاهن يعنى أظهرهن . قال تعالى (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) أى أظهرها

وقال امرؤ القيس :ـ

أيا هند لا تنكحى بوهة عليه عقيقته أحسبا

والنكاح الزواج قال تعالى (فانكحوا ما طاب لـكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أى تزوجوا .

وقال امرؤ القيس :ـ

وأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الأذقان دوح الـكنهبل

وقال تعالى (يخرون للأذقان سجدا) والأذقان جمع ذقن وهى مجتمع اللحيين ، وقال الوزير أبو بكر الأذقان الوجوه .

وقال امرؤ القيس : —

ألم أنض المطى بـكل خرق أمق الطول لماع السراب

وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) والسراب مايبدو للمسافر وقت الظهيرة فى الصحراء كأنه ماء وذلك بتأثير انعكاسات الضوء فى الطبقات الجوية .

وقال امرؤ القيس : —

فما دافعوا عن ربهم وربيبهم ولا آذنوا جاراً فيظعن سالما

والرب السيد قال تعالى (ارجع إلى ربك) أى سيدك

وقال امرؤ القيس : —

تظل الطير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيونا

والعاكف المقيم قال تعالى (سواء العاكف فيه والباد)

وقال امرؤ القيس : —

وللسوط فيها مجال كما تنزل ذو برد منهمر

والمنهمر السائل المنصب قال تعالى (بماء منهمر)

وقال امرؤ القيس : —

فيارب مكروب كررت وراه وعان فككت الغل عنه ففدانى

والعانى الذليل الخاضع المهطع المقنع ، قال تعالى (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى خضعت وذلت . والغل وثاق يوضع فى العنق أو اليد قال تعالى (إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا)

وقال امرؤ القيس : —

ولم يرنا كالىء كاشح ولم يفش منا لدى البيت سر

والكالىء الحافظ والمراقب قال تعالى (قل من يكلؤكم)

وقال الجرجانى فى قول امرىء القيس (ما حديث الرواحل) من قوله :

دع عنك نهبا صيح فى حجراته ولكن حديثا ماحديث الرواحل

تفخيم وتهويل مثل قوله تعالى (الحاقة ما الحاقة)

وغير ذلك كثير وكثير ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ، وخير الزاد ما بلغك المحل

حكم امرىء القيس وأمثاله

من ذلك قوله :

ألا إن بعد العدم للمرء قنوة   وبعد المشيب طول عمر وملبسا
كذلك جدى ما أصاحب صاحبا   من الناس إلا خانني وتغيرا
فاقصر إليك من الوعيد فإنني   مما ألاقى لا أشـد حزامى
لا حميرى وفى ولا عـدس   ولا است عـير يحكها الثفر
أرى المرء ذا الأذواد يصبح محرضا   كإحراض بكر فى الديار مريض
كأن الفتى لم يغن فى الناس ساعة   إذا اختلف اللحيان عند الجريض
ومن الطريقة جائر وهـدى   قصد السبيل ومنه ذو دخل
الخير ما طلعت شمس ولا غربت   مطلب بنواصى الخيل معصوب
فلو أنها نفس تموت جميعة   ولكنها نفس تساقط أنفسا
وكل مكارم الأخلاق صارت   إليه همتى وبه اكتسابى
دع عنك نهبا صيح فى حجراته   ولكن حديثا ما حديث الرواحل
أراهن لا يحببن من قل ماله   ولا من رأين الشيب فيه وقوسا
فإنك لم يفخر عليك كفاخر   ضعيف ولم يغلبك غير مغلب
ألا إنما الدهر ليال وأعصر   وليس على شىء قويم بمستمر
وقد طوفت فى الآفاق حتى   رضيت من الغنيمة بالإياب
وقاهم جـدهم ببنى أبيهم   وبالأشقين ما كان العذاب
وما المرء مادامت حشاشة نفسه   بمدرك أطراف الخطوب ولا آلى
أرانا موضعين لأمر غيب   ونسحر بالطعام وبالشراب
عصـافير وذبان ودود   وأجرأ من مجلحة الذئاب

والله أنجح ما طلبت به والبر خـــير حقيبة الرحل

إلى عرق الثرى وشجت عروقى وهذا الموت يسلبنى شبابى
ونفسى سوف يسلبها وجرمى فيلحقنى وشـــيكا بالتراب
وأعـــلم أنى عما قليـل سأنشب فى شبا ظفر وناب

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان

أقامت على ما بيننا من مودة أميمة أم صارت لقول المخبب

فهـو لا تنمى رميته ماله لا عد من نفره
مطعم للصيد ليس له غيرها كسب على كبره
وخليل قـــد أفارقه ثم لا أبـكى على أثره
وابن عم قد تركت له صفوماء الحوض عن كدره

ونصرك للفريد أعز نصر
إن الكريم للكريم محل
هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وحسبك من غنى شبع ورى
ويحك ألحقت شرا بشر
إن الشقاء على الأشقين مصبوب
ولو أدركته صفر الوطاب
ستكفينى التجارب وانتســـابى
فيالك من نعمى تحولن أبؤسا
ويعدو على المـــرء ما يأتمر
إذا مالم تكن إبل فمعـــزى
اليـــوم خمر وغـــداً أمر
الأمر سلـكى وليس بمخلوجـــة
أخذاً من قوله :
نطعنهم سلـكى ومخـــلوجة

مالزمه امرؤ القيس
فى شعره

كان امرؤ القيس يكرر المعنى الواحد واللفظ الواحد فى قصائد متعددة مثل قوله (تبصر خليلى هل ترى)

قال :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن سوالك نقباً بين حزمى شعبعب

وقال أيضاً :

تبصر خليلى هل ترى ضوء بارق يضىء الدجا بالليل عن سرو حميرا

ومثل قوله (وقد أغتدى والطير فى وكناتها)

قال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وقال أيضاً :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد عبل اليدين قبيص

وقال أيضاً :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب

وقال أيضاً :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد عبل اليدين قبيض

وقال أيضاً :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها لغيث من الوسمى رائده خال

وقد جاء قوله (وقد أغتدى) فى قصائد أخرى

قال :

وقد أغتدى قبل الشروع بسابح أقب كيعفور الفلاة محنب

وقال أيضاً : —

وقد أغتدى ومعى القانصان وكل بمربأة مفتقر

وقال أيضاً : —

وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل شديد مشك الجنب فعم المنطق

ومثل قوله (له أيطلا ظبي وساقا نعامة)

قال : —

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب

وقال أيضاً : —

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقال أيضاً : —

له قصريا عير وساقا نعامة كفحل الهجان ينتحى للغضيض

ومثل قوله (كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب)

قال : —

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مخضب

وقال أيضاً : —

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنـاء بشيب مفرق

وقال أيضاً : —

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنـاء بشيب مرجل

ومثل قوله (ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض)

قال : —

ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأصهب

وقال أيضاً : —

ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

ومثل قوله (على الأين جياش)

قال :ـ

على الأين جياش كأن سراته على الضمر والتعداء سرحة مرقب

وقال أيضاً :ـ

على الأين جياش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حميه غلي مرجل

ومثل قوله (فعادى عداء بين ثور ونعجة)

قال :ـ

فعادى عداء بين ثور ونعجة وبين شبوب كالقضيمة قرهب

وقال أيضاً :ـ

فعادى عـــداء بين ثور ونعجة دراكا ولم ينضح بمـاء فيغسل

وقال أيضاً :ـ

فعاديت منه بين ثور ونعجة وكان عدائى إذ ركبت على بالى

ومثل قوله (فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة)

قال :ـ

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ذمول إذا صـــام النهار وهجرا

وقال أيضاً :ـ

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة مداخلة صم العظام أصوص

ومثل قوله (بمنجرد قيد الأوابد)

قال :ـ

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وقال أيضاً :ـ

بمنجرد قيـــد الأوابد لاحه طراد الهوادى كل شأو مغرب

وقد جاء قوله (بمنجرد) فى مواضع أخرى

قال :ـ

بمنجرد عبل اليدين قبيض

وقال أيضاً :ـ

بمنجرد عبل اليدين قبيص

ومثل قوله (ألا رب يوم)

قال :ـ

ألا رب يوم صالح قد شهدته   بتاذف ذات التل من فوق طرطرا

وقال أيضاً :ـ

ألا رب يوم لك منهن صالح   ولاسيما يوم بدارة جلجل

ومثل قوله (إذا قامتا تضوع المسك منهما)

قال :ـ

إذا قامتا تضوع المسك منهما   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقال أيضاً :ـ

إذا قامتا تضوع المسك منهما   برائحة من اللطيمة والقطر

ومثل قوله (ألا عم صباحا)

قال :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى   وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وقال أيضاً :

ألاعم صباحاً أيها الربع فانطق

وحدث حديث الركب إن شئت فاصدق

ومثل قوله (فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد)

قال :

فأدبرن كالجزع المفصل بينه   بجيد الغلام ذى القميص المطوق

وقال أيضاً :

فأدبرن كالجزع المفصل بينه   بجيد معم فى العشيرة مخول

ومثل قوله (قفا نبك من ذكرى حبيب)

قال :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقال أيضاً :

قفانبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم خلت آياته منذ أزمان

ومثل قوله (وواد كجوف العير قفر)

قال :

وواد كجوف العير قفر مضلة قطعت بسام ساهم الوجه حسان

وقال أيضاً :

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل

ومثل قوله (وأضحى يسح الماء)

قال:

وأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الأذقان دوح الكنهبل

وقال أيضاً :

فأضحى يسح الماء عن كل فيقة يحور الضباب من صفاصف بيض

ومثل قوله (ذعرت به سربا نقياً جلوده)

قال :

ذعرت به سربا نقياً جلوده كما ذعر السرحان جنب الربيض

وقال أيضاً :

ذعرت به سربا نقياً جلوده وأكرعه وشى البرود من الخال

ومثل قوله (مكر مفر مقبل مدبر معاً)

قال :

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقال أيضاً :

مكر مفر مقبل مدبر معاً كتيس ظباء الحلب العدوان

ومثل قوله (فيارب مكروب كررت وراءه)
قال :

فيارب مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

وقال أيضاً :

فيارب مكروب كررت وراءه وعان فككت الغل عنه ففدانى

وغير ذلك مما يظهر عند تصفح كلامه

ولعل هذا وأشبابه مما أعجب به امرؤ القيس أو انفرد به وكان له فيه سابقة الابتـــداع ، فهو لا يزال يردده فى قصائده ويلح عليه بالاستعمال ويستقصى فى استخراج صور متعددة منه حتى يثبته ويقرره .

الدكتور طه حسين وامرؤ القيس

نتعرض فى هذا الباب للرد على عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فيما تناول به امرأ القيس فى كتابه الشعر الجاهلى : أما ماعدا ذلك من مباحثه فليس له دخل معنا فى بحثنا ولا يمس موضوعنا فى شىء وعلى ذلك فنحن لا نتصدى للدكتور إلا من ناحية امرىء القيس وحدها .

وأول ما بدأ به الدكتور كلامه عن امرىء القيس قوله « من امرؤ القيس أما الرواة فلا يختلفون فى أنه رجل من كندة ، ولكن من كندة ؟ لا يختلف الرواة فى أنها قبيلة من قحطان ، وهم يختلفون بعض الاختلاف فى نسبها وتفسير اسمها وفى أخبار سادتها ، ولكنهم على كل حال يتفقون على أنها قبيلة يمانية وعلى أن امرأ القيس منها ، ثم حام الدكتور بعد ذلك حول اختلاف الرواة فى نسب قبيلة كندة ، وفى تعدد أسماء امرىء القيس وألقابه وكنياته وأسماء أبيه وأمه وألقابهما ، وزيادة بعض الأسماء فى سلسلة نسبه أو سقوطها . حام حول ذلك ليجعله سبيلا موصلا لتأييده فيما وصل إليه من التشكك والتظنن . ولكن ابن خلدون قد كفانا الرد عن هذه الوقيعة التاريخية فإنه عقد فصلا خاصاً فى مقدمته تحت عنوان « فصل فى اختلاف الأنساب كيف يقع » ذكر فيه أن بعضاً من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء ... فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم ... ثم إنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمن ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر ، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ، ويلتحم قوم بآخرين فى الجاهلية والإسلام والعرب والعجم ، وانظر خلاف الناس فى نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شىء من ذلك ... ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود .

أما تعدد الأسماء والألقاب لشخص واحد فهذا كثير الوقوع فى كل

عصر وزمن . ومهما يكن من أمر الدكتور فإنه لم يمكنه أن ينكر وجود امرىء القيس ، ولم يشك فى هـذا ، بل إنه رجح ثم أيقن أن ذلك الشاعر قد وجد حقاً ، فإنه قال « ولعل هذا وأشباهه من الخلط فى حياة امرىء القيس أوضح دليل على ما نذهب إليه من أن امرأ القيس إن يكن قد وجد حقاً ونحن نرجح ونكاد نوقن به (أى بوجوده) ... » وأيقن أيضاً أن امرأ القيس عاش ووجد فى الجزيرة العربية أيام الجاهلية ، فإنه قال « امرؤ القيس الذى مهما يتأخر فقد مات قبل النبى ، والذى نرى نحن أنه عاش قبل القرن السادس وربما عاش قبل القرن الخامس أيضاً » وفى هـذا اعتراف صريح من الدكتور بأن امرأ القيس وجد فى الجزيرة العربية ، وضرب على أقدامه فيها ، واستنشى نسيم الحياة بين ربوعها ومعالمها . أما عن نقطة الشك فى تاريخ ميلاده فإن فى قول رينان « إن امرأ القيس أقدم شعراء المعلقات ولد حوالى سنة ٥٠٠ م » وفى قول لويس شيخو صاحب شعراء النصرانية إنه ولد سنة ٥٢٠ م وفى قول بعض المؤرخين إنه مات سنة ٥٦٥ م[1] ، فى كل ذلك ما يكفى لإثبات أن امرأ القيس ولد فى أوائل القرن السادس وعاش فيه ، ويبطل ما ذهب إليه الدكتور من أن امرأ القيس ربما عاش قبل القرن الخامس ، ويؤيدنا فى ذلك أيضاً ما ذكره الأستاذ نولدكى فى دائرة المعارف البريطانية ، فإنه قال « أقدم شعراء المعلقات على الأرجح امرؤ القيس المحسوب أمير الشعر العربى ، ولا يعلم زمانه بالتحديد ، ولكنه كان فى النصف الأول من القرن السادس ، وهو من بنى كندة الذين زال ملكهم بموت الملك الحارث بن عمرو سنة ٥٢٩ ميلادية » .

واعترف أستاذنا الدكتور طه أيضاً بأن له أثراً فيما يروى من شعره قال : « فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، وشبه الخيل بالعصى والعقبان وما إلى ذلك ، وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجده فى المعلقة وفى اللامية الأخرى فيه شىء من ريح امرىء القيس »

---

(١) ويقول نيكلسون إنه مات سنة ٥٤٠ م .

وقال أيضاً « ولعل أحق الشعر بالعناية قصيدتان اثنتان

الأولى قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

والثانية ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالى

فأما ما عدا هاتين القصيدتين فالضعف فيه ظاهر والاضطراب فيه بين والتكلف والإسفاف يكادان يلمسان باليد »

فالدكتور يسلم بصحة نسبة هاتين القصيدتين إلى امرىء القيس ، لأنه خصهما بالعناية ، وقال إن ما عداهما من شعره ظاهر الضعف والاضطراب والتكلف ، ومعنى هذا أن هاتين القصيدتين لا ضعف فيهما ولا اضطراب ولا تكلف ، وإذا كانتا كذلك فالمعنى أن نسبتهما صحيحة إلى امرىء القيس ونحن نسجل على الدكتور الاعتراف بهاتين القصيدتين من شعر ذلك الشاعر وإن كان قد حاول بعد ذلك أن يدخلهما ضمن دائرة شكه ، أما عن قول الأستاذ الدكتور إن ما عداهما ظاهر الضعف والاضطراب فإن الدكتور لو تفكر قليلا لرأى أن هناك ما يدعو أن يكون بعض ما عداهما ضعيفاً مضطربا ، وقد رأيت أيها القارىء رأينا فى ذلك عند الكلام على شعر امرىء القيس ، فقد قسمناه إلى طورين طور الشباب وهو فيه أبلغ ما يكون وقد مثل ذلك الطور شعر المعلقة والقصيدة الثانية (ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالى) وطوره بعد مقتل أبيه وقد عرت شاعريته فى هذا الطور فتور وضعف وقد بينا سبب ذلك فى حينه وفى موضعه من هذا الكتاب .

وقد عرج أستاذنا الجليل فى حديثه على كثرة الآراء النيابية ونظرية كروية الأرض فى موضـــع الكلام على الترجيح بالكثرة فيما لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق الرواة ، واطمأن إلى أن الكثرة فى العلم لا تغنى شيئاً ، وتناسى الدكتور أن المعلوم ينقسم إلى معقول كالمسائل الرياضية وهذه لا يمكن إدراكها إلا من طريق العقل ، وقسم آخر من أقسام المعلوم وهو المشاهد كالألوان . والمعقول يكتسب بالأدلة النظرية فلا يترجح فيه رأى

الأكثرية على الأقلية ، وفى بعض الأحيان تكون الأقلية على حق والأكثرية على باطل . أما المشاهد الذى يدرك بالحواس فإن كان المخبر به جمعاً كثيراً استوفوا شرط التواتر فإن العلم الحاصل من خبرهم يكون يقينا ويسقط بجانبه خبر الأقلية بلا نزاع فإن كانت الأكثرية لم تستوف شرط التواتر ترجح خبر أصدقهما وأنبههما حتى ولو كانت الأقلية ، فإن لم يستوف الفريقان شرط التواتر وتساويا صدقا ونباهة فالأكثرية هى الراجحة ، ومسألة امرىء القيس داخلة فى المشاهد ، وقد تواترت الروايات على أنه وجد حقاً ، وأنه قال شعراً وتحدث الرواة بذلك الشعر وبينوا ما هو مصنوع منحول منه وما لا شك فيه ولا انتحال . ونحب أن نقول للدكتور أيضاً إنه تناسى فى هذه النقطة نفسها أن الحقائق تنقسم إلى قسمين حقيقة مجردة وحقيقة تاريخية ، فالحقيقة المجردة صادقة فى نفسها وكنهها ، ولا يمكن أن يتطرق الكذب إليها ولا أن تتحمله بحال من الأحوال ، فهى بعيدة كل البعد عن الشك ولا يمكننا إلا التسليم بها على أنها صادقة واضحة ، ومثالها « الواحد نصف الاثنين » والحقيقة التاريخية فى نفسها صادقة لأنها ظهرت فى عالم الوجود وتحدث بها الناس ودونها التاريخ ، وقد تكون هذه الحقيقة كاذبة الكنه وقد تكون صادقة الكنه ، فالكاذبة كإنكار كروية الأرض فتلك النظرية حقيقة تاريخية قال بها قوم فى عصر من العصور وحدثنا التاريخ عنها ، فهى من هذه الناحية صادقة ، ولكنها فى كنهها باطلة كاذبة إذ ثبت أن الأرض كروية خلافاً لزعم المنكرين . أما الحقيقة التاريخية الصادقة الكنه فهى كوجود امرىء القيس ، فقد تحدث التاريخ عن وجود هذا الشاعر فى الجزيرة العربية ، وقد وجد هذا الشاعر حقاً ، واعترف الدكتور بذلك ، ومثل تلك الحقيقة الأخيرة حقيقة وجود امرىء القيس يمكن إدخالها ضمن دائرة الحقيقة المجردة ، لأنها لا تحتمل الكذب لا فى نفسها ولا فى كنهها ، فلا معنى لأن يسوى أستاذنا الدكتور بين الحقيقة المجردة وغيرها ابتغاء أن يصل إلى إنكار شعر امرىء القيس وقصته التاريخية .

أما ما أراد أن يستند إليه الدكتور في إنكار قصة امرىء القيس فهو تعرضه لذكر أسرة الأشعث بن قيس ، فقد قال « وهنا يحسن أن نلاحظ أن الكثرة من هذه الأساطير والأحاديث لم تشع بين الناس إلا في عصر متأخر ، في عصر الرواة المدونين والقصاص ؛ فأكبر الظن إذاً أنها نشأت في هذا العصر ولم تورث عن العصر الجاهلي حقاً ، وأكبر الظن أن الذي أنشأ هذه القصة ونماها إنما هو هذا المكان الذي احتلته قبيلة كندة في الحياة الإسلامية منذ تمت للنبي السيطرة على البلاد العربية إلى أواخر القرن الأول للهجرة . فنحن نعلم أن وفداً من كندة وفد على النبي وعلى رأسه الأشعث بن قيس ، ونحن نعلم أن هذا الوفد طلب — فيما تقول السيرة — إلى النبي أن يرسل معهم مفقهاً يعلمهم الدين ، ونحن نعلم أن كندة ارتدت بعد موت النبي ، وأن عامل أبي بكر حاصرها في النجير وأنزلها على حكمه وقتل منها خلقاً كثيراً ، وأوفد منها طائفة إلى أبي بكر فيها الأشعث بن قيس الذي تاب وأناب وأصهر إلى أبي بكر ، فتزوج أخته أم فروة وخرج - فيما يزعم الرواة — إلى سوق الإبل في المدينة فاستل سيفه ومضى في إبل السوق عقراً ونحراً ، حتى ظن الناس به الجنون ، ولكنه دعا أهل المدينة إلى الطعام وأدى إلى أصحاب الإبل أموالهم ، وكانت هذه المجزرة الفاحشة وليمة عرسه ، ونحن نعلم أن هذا الرجل قد اشترك في فتح الشام ، وشهد مواقع المسلمين في حرب الفرس وحسن بلاؤه في هذا كله ، وتولى عملا لعثمان ، وظاهر علياً على معاوية ، وأكره علياً على قبول التحكيم في صفين ، ونحن نعلم أن ابنه محمد بن الأشعث كان سيداً من سادة الكوفة ، عليه وحده اعتمد زياد حين أعياه أخذ حجر بن عدي الكندي ، ونحن نعلم أن قصة حجر بن عدي هذا وقتل معاوية إياه في نفر من أصحابه قد تركت في نفوس المسلمين عامة واليمنيين خاصة أثراً قوياً عميقاً مثل هذا الرجل في صورة الشهيد ، ثم نحن نعلم أن حفيد الأشعث بن قيس وهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد ثار بالحجاج وخلع عبد الملك وعرض ملك آل مروان للزوال ، وكان سبباً في إراقة

دماء المسلمين من أهل العراق والشام ، وكان الذين قتلوا فى حروبه يحصون فيبلغون عشرات الألوف ، ثم انهزم فلجأ إلى ملك الترك ، ثم أعاد الكرة فتنقل فى مدن فارس ، ثم استيأس فعاد إلى ملك الترك ، ثم غدر به هذا الملك فأسلمه إلى عامل الحجاج ، ثم قتل نفسه فى طريقه إلى العراق ؛ ثم احتز رأسه وطوف به فى العراق والشام ومصر .

أفتظن أن أسرة كهذه الأسرة الكندية تنزل هذه المنزلة فى الحياة الإسلامية وتؤثر هذه الآثار فى تاريخ المسلمين لا تصطنع القصص ، ولا تأجر القصاص لينشروا لها الدعوة ويذيعوا عنها كل ما من شأنه أن يرفع ذكرها ويبعد صوتها ؟ بلى ! ويحدثنا الرواة أنفسهم أن عبد الرحمن ابن الأشعث اتخذ القصاص وأجرهم ، كما اتخذ الشعراء وأجزل صلتهم ، كان له قاص يقال له عمر بن ذر ، وكان شاعره أعشى همدان

فما يروى من أخبار كندة فى الجاهلية متأثر من غير شك بعمل هؤلاء القصاص الذين كانو يعملون لآل الأشعث . وقصة امرىء القيس بنوع خاص تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن بن الأشعث ، فهى تمثل لنا امرأ القيس مطالباً بثأر أبيه . وهل ثار عبد الرحمن عند الذين يفهمون التاريخ إلا منتقماً لحجر بن عدى ، وهى تمثل لنا امرأ القيس طامعاً فى الملك وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث يرى أنه ليس أقل من بنى أمية استئهالا للملك وكان يطالب به ، وهى تمثل لنا امرأ القيس متنقلا فى قبائل العرب وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث متنقلا فى مدن فارس والعراق ، وهى تمثل امرأ القيس لاجئاً إلى قيصر مستعيناً به وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث لاجئاً إلى ملك الترك مستعيناً به ، وهى تمثل لنا أخيراً امرأ القيس وقد غدر به قيصر بعد أن كاد له أسدى فى القصر ، وقد غدر ملك الترك بعبد الرحمن بعد أن كاد له رسل الحجاج ، وهى تمثل لنا بعد هذا وذاك امرأ القيس وقد

مات فى طريقه عائداً من بلاد الروم وقد مات عبد الرحمن فى طريقه عائداً من بلاد الترك .

أليس من اليسير أن نفترض بل أن نرجح أن حياة امرىء القيس كما يتحدث بها الرواة ليست إلا لوناً من التمثيل لحياة عبد الرحمن ، استحدثه القصاص إرضاء لهوى الشعوب اليمنية فى العراق ، واستعاروا له اسم الملك الضليل اتقاء لعمال بنى أمية من ناحية واستغلالا لطائفة يسيرة من الأخبار كانت تعرف عن هذا الملك الضليل من ناحية أخرى ، اه بنصه

ونلاحظ على الدكتور فيما سبق أن التاريخ حدثه بقصة امرىء القيس وحدثه بقصة عبد الرحمن بن الأشعث فآمن بالثانية وجعل الأولى لوناً من التمثيل لحياة عبد الرحمن ، ولا ندرى السبب الذى حفز الدكتور إلى هذا فجعله يكذب التاريخ حيناً ويصدقه حيناً آخر وفات الدكتور حين ظن اختلاق قصة امرىء القيس أن التاريخ كثيراً ما يعيد نفسه ، وأنه كله حوادث متشابهة وقد وقع للدكتور فيما قاله شيء من التحوير فإنه ذكر أن الأشعث بن قيس هو الذى أكره علياً على قبول التحكيم ، والحقيقة غير ذلك فإن الأشعث وإن كان قد تكلم مع على بشأن قبول التحكيم إلا أن الذى أكرهه على ذلك هم القراء الذين كانوا معه حين انخدعوا برفع المصاحف من جيش معاوية ويقول الدكتور أيضاً إن محمد بن الأشعث عليه وحده اعتمد زياد حين أعياه أخذ حجر بن عدى الكندى ، وزياد بن أبى سفيان لم يعتمد على محمد ابن الأشعث فى أخذ حجر بن عدى ، كما يقول الدكتور بل قال لمحمد والله لتأتينى بحجر أو لا أدع لك نخلة إلا قطعتها ولا داراً إلا هدمتها ثم لا تسلم منى حتى أقطعك إرباً إرباً ، ثم أمهله ثلاثاً وأرسله إلى السجن ، فخرج محمد منتقع اللون يتل تليلا عنيفاً (يسحب من عنقه) أفمثل هذا الرجل يقول فيه أستاذنا الدكتور « عليه وحده اعتمد زياد » ؟ أم هى سنة العرب فى أخذ سيد بسيد والاستقادة من رجل برجل واستهزازاً للحمية والإباء فى نفس

من يفوتهم هرباً لكيلا يظلم فيه غيره . فإنه إذا عرف من أخذ به أسلم نفسه .

والدكتور بعد أن قال إن زياداً اعتمد على محمد بن الأشعث فى أخذ حجر بن عدى يقول بعد ذلك هل ثار عبد الرحمن بن محمد عند من يفقهون التاريخ إلا منتقما لحجر ؟ أفليس الأقرب إلى الصواب أن يثور عبد الرحمن منتقما لإهانة والده ؟

ويقول الدكتور أيضاً إن كندة اصطنعت القصاص لينشروا لها الدعوة ويدعى أن الرواة أنفسهم يحدثوننا أن عبد الرحمن اتخذ القصاص وكان له قاص اسمه عمر بن ذر . ونحن نريد أن نعلم من من الرواة تحدث بذلك؟ ولعل الأستاذ الدكتور اطلع على ما قاله الطبرى فى تاريخه فتأول فيه ، فقد قال الطبرى « قال أبو مخنف حدثنى عمرو بن ذر القاص أن أباه كان معه هناك (فى بلاد الترك) وأن ابن محمد (عبد الرحمن) كان ضربه وحبسه لانقطاعه إلى أخيه القاسم ، فلما كان من أمره الذى كان من الخلاف (أى الثورة على الحجاج وخلع عبد الملك) دعاه فحمله وكساه وأعطاه ، فأقبل فيمن أقبل ، وكان قاصاً خطيباً » فالعبارة صريحة فى أن عمراً (لا كما يقول الدكتور عمر) كان قاصاً وأن أباه كان قاصاً خطيباً وأنهما كانا فى بلاد الترك يقاتلان كما يقاتل قراء البصرة والكوفة — حتى إن أقوى كتائب عبد الرحمن كانت كتيبة كل جندها من القراء والعلماء ، وأن عبدالرحمن كان ضرب ذراً وحبسه لانقطاعه إلى أخيه القاسم فلما احتاج إلى المقاتلة دعاه فحمله ، يعنى فأركبه وجعله من فرسانه لا من قصاصه ، فمن أين يؤخذ أن عمراً بن ذر أو أباه ذراً كان قاصاً لعبد الرحمن بن الأشعث اتخذه وأجره ليضع له ولأسرته الأخبار كقصة امرىء القيس ، وبخاصة إذا علمنا أن الأب منهما ضرب وحبس .

ولقد عقد الدكتور مشابهة بين امرىء القيس وعبد الرحمن بن الأشعث

وادعى أن عبد الرحمن ثار منتقما لحجر بن عدى، كما أن امرأ القيس قام مطالباً بثأر أبيه ، وذكر فى وجه الشبه أن كلا منهما طامع فى الملك متنقل فى البلاد يستعين بملك ، امرؤ القيس بقيصر وعبد الرحمن بملك الترك ، وأن كلا منهما غدر به الملك الذى التجأ إليه .

ونحن نلقى عليك قصة عبد الرحمن بن الأشعث فى حدود الاختصار والإيجاز مع عدم الإخلال لتعلم أن بينها وبين قصة امرىء القيس فرقا كبيراً وأمداً بعيداً .

يذكر المؤرخون أن الحجاج كان يبغض عبد الرحمن بن الأشعث ويقول ما رأيته قط إلا أردت قتله ، وكان عبد الرحمن يعرف هذه السريرة من الحجاج ، ويقول أنا أزيله عن سلطانه . وكان الحجاج والياً على العراق وخراسان وسجستان فجهز جيشاً لغزو بلاد رتبيل ملك الترك وبعثه تحت راية عبد الرحمن . فسار عبد الرحمن بالجيش حتى دخل فى طرف من بلاد رتبيل ، ثم عقد الرأى مع الجيش على أن يرجئوا التوغل فى البلاد إلى العام المقبل ، وبلغ الحجاج ما عزم عليه عبد الرحمن من هذا التأخير فأمره بالمضى فى سبيل الفتح وهدده بالعزل إذا هو لم يفعل ، فائتمر عبد الرحمن والجيش الذى تحت قيادته بخلع الحجاج ، ثم نادوا بخلع عبد الملك أيضاً ، وبايعوا عبد الرحمن وأقبلوا إلى العراق . ثم دارت رحى الحرب بين عبدالرحمن والحجاج ، وكانت عاقبتها أن انقلب عبد الرحمن منهزما إلى سجستان ولحق بكرمان ، فلقى بها من عامله عليها نزلا مهيئاً ، ثم رحل إلى زرنج فتنكر له عامله هنالك ، وأغلق باب المدينة دونه ، فانصرف إلى بست ، وكان عامله عليها عياض بن هميان فاستقبله ، ثم أوثقه فى غفلة من قومه لينال به عند الحجاج قرباً وسلاما ، وكان رتبيل قد ركب لاستقبال عبد الرحمن فنزل على بست وهدد عياضاً فأطلق سبيل عبد الرحمن وحمله رتبيل إلى بلاده ، وأنزله فى جواره وأكرم مثواه ، ولكن الحجاج تتابعت كتبه ورسائله إلى رتبيل

كى يبعث إليه بعبد الرحمن ، وكان من أثر هذه الكتب وما تحمله من ترغيب وترهيب أن بعث رتبيل بعبد الرحمن مقيداً إلى عمارة بن تميم ليضعه فى يد الحجاج ، فرمى عبد الرحمن بنفسه من سطح قصر فهلك ، أو مات مسلولا ، واجتز رأسه بعد ذلك وأرسله عمارة إلى الحجاج .

وإنا لنرى فى عرض هذه القصة على وجهها التاريخى ما يكفى لنقض ما يدعيه الدكتور طه من المشابهة بينها وبين قصة امرىء القيس ومن أن قصة امرىء القيس موضوعة رمزا لها

وأول ما يخطر لنا أن عبد الرحمن بن الأشعث لم يقم للأخذ بثأر حجر ابن عدى ، ونستبعد ما يدعيه الدكتور من قيام عبدالرحمن مطالباً بثأرحجر لأن القرابة بينهما لم تكن من الشدة بحيث تحمل عبد الرحمن على الخوض فى محاربة دولة ذات شوكة انتقاما منها لتلك القرابة ، فإن عبد الرحمن إنما يلتقى بحجر فى الأب الخامس وهو معاوية بن جبلة ، ويضاف إلى هذا أن القاتل لحجر معاوية بن أبى سفيان وصاحب الدولة يوم ثورة عبد الرحمن إنما هو عبد الملك بن مروان ، ويزاد على هذا أن قتل معاوية لحجر كان فى سنة ٥١ هـ وثورة عبد الرحمن على عبد الملك كانت فى سنه ٨١ هـ . وثلاثون سنة تمر على الحادثة من شأنها أن تخفف من تغيظ النفس لها إلى حد ألا يبقى فيها من أثر الغيظ ما يدفع إلى اقتحام الأهوال والمخاطرة بالحياة فى فتنة عمياء .

ويبدو لنا بعد هذا أن ابن الأشعث إنما طلب الملك بالجيش الذى كان تحت قيادته ، ولم يستعن على طلبه بملك كما يقول الدكتور ، وكل الذى وقع من رتبيل أنه استقبله بعد عودته مهزوماً يائساً من الملك الذى طمع فيه ولم يرج منه ابن الأشعث أكثر من أن يحميه ويؤامنه من سطوة الحجاج ، ثم إن ابن الأشعث إن طلب الملك فإنما هو طامع فيه يطلبه ظلماً وعدواناً ، ولكن امرأ القيس ما كان مغتصباً ولا ظالماً ، وإنما كان يطلب ميراث أبيه

وعرش أجداده . وابن الأشعث أيضاً ليس شاعرا . ولا ابن ملك ، ولا قتل أبوه فخرج يطلب ثأره ، خلافا لامرىء القيس الذى كان شاعرا وابن ملك وقتل أبوه فقام يطالب بدمه وملكه . وابن الأشعث لم يكن فى سيرته متفحشاً ولا متعهرا كامرىء القيس ، فإذا قابله القصاص برجل فلن يكون هذا الرجل امرأ القيس فى تبطله وفحشه . وابن الأشعث لم يكد له رسل الحجاج عند ملك الترك كما ادعى الدكتور ، ولئن كان أحد قد كاد له عند هذا الملك فإنما هو رجل تميمى من بطانة ابن الأشعث نفسه ، ولكن امرأ القيس كاد له رسول الأسديين عند قيصر وما كان هذا الواشى من بطانة امرىء القيس . وابن الأشعث لم ينتقل فى مدن فارس والعراق مستنصرا مستجيشاً كما فعل امرؤ القيس فى قبائل العرب التى تناوحت بركابه أحياؤها بل كان عبد الرحمن بن الأشعث محارباً يرحل بالجيش وينزل بالجيش . وابن الأشعث إما أنه مات منتحرا أو مسلولا واجتز رأسه خلافاً لامرىء القيس الذى تقرح بدنه من حلة قيصر أو من الجدرى — وهو الصحيح عندى — ولم يحتز رأسه . وابن الأشعث طوف بجثته فى الآفاق بعد موته ومثل بها وامرؤ القيس دفن مهيباً محترما وأمر قيصر بإقامة تمثال له ينصب على قبره فأين إذا ابن الأشعث من امرىء القيس ، وما دخل هذا فى ذاك . فضلا عن أنه ليس من الفخر لكندة أن تختلق قصة امرىء القيس الذى كان طريدا شريدا فاحشاً عاجزا ضائعاً ضليلا ، ولو كان الحديث منتحلا اصطنعه الكاذبون الوضاع الذين يريدون مجدا وسيادة لكان هناك ما يدعو هؤلاء الكاذبين إلى اختراع قصة من أولها إلى خاتمتها تعطى صاحبها وقومها شرفاً ومجدا وسيادة لا أن تكون لهم عجزا وسبة .

ثم كيف يخاف القصاص من عمال بنى أمية ؟ فيحملهم هذا الخوف على أن ينتحلوا قصة امرىء القيس ويضعوها رمزا لقصة ابن الأشعث ويلفقوا هذا التلفيق البعيد ، ويضعوا هذه القصة المخزية التى لم تكسبهم شرفاً بل زادتهم سبة وعجزا ، على أنهم يرون المؤرخين يذكرون خبر ابن الأشعث

ويقصون حروبه . وهل كانت دولة بنى أميـة من الضعف بالمنزلة التى تخاف فيها ابن الأشعث ميتاً ؟ وهى التى كسرته حياً ثائراً فى مائة ألف مقـاتل . ولو قد خاف القصاص عمال بنى أمية لخافوهم فى الحسين بن على وفى عبد الله ابن الزبير اللذين كانا يطلبان الخـلافة ، ولو قد خافوهم لخافهم المؤرخون أيضاً ولما وصلت إلينا قصة ابن الأشعث . وإن كان القصاص قد وضعوا قصة امرىء القيس إرضاء لهوى الشعوب اليمنيـة فأين كانت أسـد وكنانة وتغلب وبكر ؟ وكل هؤلاء لم يكن يهمهم أن يمالئوا كندة فى الإسلام على ما اخترعت من قصة فيها نيـل كبير من أنفسهم ومساس بعصبيتهم ، تلك العصبية التى استند إليها الدكتور فيما ذهب إليه من أن كندة اخترعت قصة امرىء القيس وما يتصل بها من الشعر ، فهل كان لليمنيين عصبية يختلقون لها القصص التى لها مساس بعصبيـة غيرهم ولم يكن لسواهم عصبية يدافعون عنها . نحن نرى أن قصة امرىء القيس لو لم تـكن حقاً يعرفها الناس ويحفظها الرواة قبل أن يولد ابن الأشعث والحجاج لقام بنو أسد وبنو كنانة وكذبوا كندة فى قصتها ورموها بالإفك والاختلاق

وبعد أن خرج الدكتور من قصة ابن الأشعث ومقابلتها بقصة امرىء القيس قال « ستقول وشعر امرىء القيس ما شأنه وما تأويله ؟ » وذكر أن شأنه يسير ، وتأويله أيسر ، وقسم ذلك الشعر إلى قسمين أحدهما يتصل بالقصة التى أشار إليها وشأنه شأنها من الانتحال ، وثانيهما لا يتصل بتلك القصة وإنما يتناول فنوناً من القول مستـقلة من الأهواء السياسية والحزبية

وقد رددنا فيما مضى رأى الدكتور فى انتحال القصـة . وقد تضافرت آراء المؤرخين على وجود شاعر جاهلى فى الجزيرة العربية اسمه امرؤ القيس ابن حجر وأن له شعرا يدور على ألسنة الرواة ، والدكتور نفسه اعترف وأيقن بوجوده التاريخى . أما هذا الشعر المضاف إلى امرىء القيس فقد نقده العلماء وبينوا ما هو منحول مصنوع ، وارتابوا فى قصائد بجملتها فردوها

ونبهوا عليها ، ويكفى أن تطلع على ديوانه فى كتاب العقد الثمين لترى القصائد والأشـــعار التى نبه على انتحالها واصطناعها ، ولترى أيضاً القصائد التى سلمت له وصحت نسبتها إليه . وفى الحق أن الأقدمين نقدوا شعر امرىء القيس وغيره من شعراء الجاهلية جهد المستطاع فردوا ما قام الدليل على اصطناعه وكفوا عن البقية لأنها جاءت عن طريق الثقاة . ولقد روى شعر امرىء القيس أبو عمرو بن العلاء والأصمعى وخالد بن كلثوم ومحمد بن حبيب ثم جاء أبو سعيد السكرى وربط جميع هذه الروايات وضبطها . وأعاد مراجعته وضبطه بعد سعيد راويتان هما العباس الأحول وابن السكيت . ورواه أيضاً أبو عبيدة . وكل هؤلاء من ثقاة الرواة الذين لا يمكن الطعن عليهم ولا تجريحهم ، وهم فوق ذلك أذكياء وجداً أذكياء لا تخفى عليهم خافية فى نقد الشعر وبيان المنحول منه من غير المنحول ، فإن جاز عند إنسان أن شك فى شىء من أشعار الجاهلية ليكونن امرؤ القيس آخر من يتطرق إليهم الشك أو تتصل بحياتهم التهمة

والدكتور قد افترض أن هذا الشعر شأنه شأن القصة ، وقد علمنا مقدار ما ذهب إليه الدكتور ورددنا ادعائه فى انتحـال القصة ، وبما أنه اعتبر انتحال هذه القصة مقدمة لرفض الشعر المتعلق بها فإذا كانت المقدمـة باطلة غير واقعة كانت النتيجة أيضاً باطلة غير صحيحة ، فالقصة صحيحة والشعر المتعلق بها صحيح النسبة إلى امرىء القيس كذلك . أما عن ذهاب امرىء القيس إلى قيصر فليست الروايات العربية وحدها تذهب إلى أن امرأ القيس رحل إلى القسطنطينية مستنجداً بملك الروم على بنى أسد فإن مؤرخى الروم أنفسهم ذكروا أحاديث هذا الشاعر فى كتبهم ، ونحن ننقـل لك عن كتاب شعراء النصرانية فإنه قال « وقد جاء ذكر امرىء القيس فى تواريخ الروم مثل نونوز وبروكور وغيرهما ، وهم يسمونه قيساً ، وقد ذكروا أنه قبل وروده على قيصر يوستنيان أرسل إليه وفداً يطلب منه النجدة على بنى أسد وعلى المنذر ملك العراق ، ثم قال ناقلا عن هؤلاء المؤرخين الرومانيين أيضاً

« إن امرأ القيس لم يلبث أن سار بنفسه إلى القسطنطينية فرغبه قيصر ووعده ، وقد ذكر نونوز المؤرخ أن يوستنيان قلده إمرة فلسطين إلا أنه لم يسع فى إصلاح أمره وإعادته إلى ملكه ، فخرج امرؤ القيس وعاد إلى بلده وكانت وفاته سنة ٥٦٥ م أصابه مرض كالجدرى فى طريقه كان سبب موته »

وقال الأستاذ نيكلسون فى كتابه تاريخ آداب العرب « كان حجر أبو امرىء القيس ملكا على بنى أسد فى أواسط بلاد العرب ، لكنهم عصوا عليه وقتلوه ، ولم يستطع امرؤ القيس أن يأخذ بثأره منهم لأن الملك المنذر انتصر لهم ، فتوجه امرؤ القيس إلى القسطنطينية ، وأكرم الإمبراطور يوستنيانوس وفادته ، لأنه كان يود أن يعيد مملكة كندة لتكون شوكا فى جنب الفرس ، وجعله أميرا على فلسطين ، لكنه توفى فى أنقرة وهو ذاهب إليها وكان ذلك سنة ٥٤٠ م . »

أما عن عجب الدكتور من أن امرأ القيس لم يؤثر عنه شىء فى وصف القسطنطينية فإذا لم يكن يكفيه قوله :

تذكرت هندا وأترابها — فأصبحت أزمعت منها صدودا
ونادمت قيصر فى ملكه — فأوجهنى وركبت البريدا

أو قوله حين توجه إلى قيصر :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه — وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما — نحاول ملكا أو نموت فنعذرا
وإنى زعيم إن رجعت مملكا — بسير ترى منه الفرانق أزورا
لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها — ولابن جريج فى قرى حمص أنكرا

إن لم يكن يكفى الدكتور هذا الشعر وما جاء فيه ويأبى إلا أن يصف امرؤ القيس القسطنطينية وصفاً جغرافيا مفصلا فنحن نحتج عليه بحادثة من هذا النوع ، فإن المتنبي جاء إلى مصر ، وعاش فيها ، وخالط أهلها ، ومع ذلك

فهو لم يصفها فى شعره ، ولم يذكر شيئا عن قبابها وحصونها ومدنها وأهرامها وما زاد إلا على أن ذكر فى شعره لفظ « الهرمين » فقط كما ذكر امرؤ القيس لفظ « قيصر » فهذا من ذاك . فضلا عن هذا أن امرأ القيس لم يعش طويلا بعد أن ورد القسطنطينية ، ولم يكن مع خيبة أمله بالذى يتفرغ لقول الشعر ووصف مظاهر الروم ، ولو كان الأمر راجعا إلى القصاص كما يفترض الدكتور وهم الذين قالوا هذا الشعر كله لو كان الأمر كذلك ما عجزوا عن أن يقولوا أبياتا يسدون بها هذا النقص الذى تخيله الدكتور .

وشبيه بهذا العجب عجبه أيضاً من أنه لم يؤثر عن امرىء القيس شىء فيما كان بين خاله مهلهل التغلبى وبين قبائل بكر من الوقائع ، وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب ، فقد قال الدكتور فى موضع من كتابه « الأدب الجاهلى » إنه مقتنع بأن كثيراً من الشعر العربى الجاهلى قد ضاع ، واستند فى ذلك إلى قول أبى عمرو بن العلاء « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » ونحن نوافق الدكتور فيما استند إليه من قول أبى عمرو بن العلاء ، وفى هذا القول ما يتخذ حجة عليه ، فإنه من الجائز أن يكون امرؤ القيس قد قال فى ذلك شعراً ولكنه ذهب بقتل الرواة الذين قتلوا فى حروب الردة والفتن والفتوح ، زد على ذلك أن تلك الوقائع لم يشهدها هو بنفسه وليس لعصبيته فيها من أثر فمن اليسير أن نفهم أنه لا يهتم بأن يقول فيها شيئاً .

وتعرض الدكتور أيضاً للغة امرىء القيس فقال « كيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز ، بل فى لغة قريش خاصة . ستقول : نشأ امرؤ القيس فى قبائل عدنان ، وكان أبوه ملكا على بنى أسد ، وكانت أمه من بنى تغلب وكان مهلهل خاله ، فليس غريبا أن يصطنع لغة عدنان ، ويعدل عن لغة اليمن ولكننا نجهل هذا كله ، ولا نستطيع أن نثبته إلا عن طريق هذا الشعر الذى ينسب إلى امرىء القيس ، ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل ، ونحن قد أبطلنا للدكتور رأيه فى أن هذا الشعر منحول ، وأقمنا

الأدلة على أنه لامرىء القيس ، وإذاً يثبت من هذا الشعر أن لغة ذلك الشاعر هى لغة البلاد التى نشأ فيها ، وهـذا ما يقره العقل ، ويدل عليه النقل . ومما يؤخذ على الدكتور طه أنه صدق الرواة وكذبهم فى آن واحد ، وليس ذلك بمستساغ ولا مقبول فالنقيضان أو شبههما لا يجتمعان ، فإما أن يصدق الدكتور الرواة فى أن امرأ القيس يمانى النسب نزارى الدار والمنشأ وإما أن يكذبهم فى الأمرين جميعاً ، أما أنه يقسم قولهم إلى شطرين ثم يصدقهم فى شطر ويكذبهم فى شطر فذلك مالا نقره عليه ، يقول له الرواة هو يمانى نشأ فى نجد فيؤمن لهم الدكتور بأنه يمنى ، ويأبى أن يقبل أنه نشأ فى نجد ، فهو يقول الرواة صادقون ولا صادقون أى كاذبون فى آن واحـــد وهذا نوع من المغالطة والإجحاف المنطقى الذى أخذ به الدكتور لحاجة فى نفسه ، والأستاذ فى هذا الموضع قد وقع له شىء من التردد والتحوير أيضاً فإنه بعد أن قال « إن امرأ القيس يمنى ... وشعره قرشى اللغة لا فرق بينه وبين لغة القرآن فى لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الـكلام ، ونحن نعلم ... أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز فـكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز؟ بل فى لغة قريش خاصة ؟» واسترسل فى كلامه إلى أن قال « وإذاً فـكيف نظم امرؤ القيس اليمنى شعره فى لغة القرآن مع أن هذه اللغة لم تـكن سائدة فى هذا العصر الذى عاش فيه امرؤ القيس ؟ وأعجب من هـذا أنك لا تجد مطلقاً فى شعر امرىء القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من أنحاء القول يدل على أنه يمنى » وكأنى بالدكتور فى قوله هذا لا يريد أن يتبين قول الرواة إن امرأ القيس يمنى النسب ، نزارى الدار والمنشأ .

ويا ترى لو جئنا إلى الدكتور بطفل أعجمى وتركناه ينشأ ويترعرع فى بيئة عربية ألا يحس الدكتور بأن هـذا الفتى لا يتكلم إلا اللغة العربية ، وأن لغة جنسيته تمحى من نفسه محواً تاماً ، ولا يظهر لهـا أثر فى كلامه . ولا يخفى على الدكتور أن العامل الأول فى تكوين اللغة المحاكاة والتلقين ، فلا

يأخذه العجب بعد ذلك إن وجد امرأ القيس ينشد شعره بلغة حجازية لأنها هى البيئة التى نشأ فيها والتى تلقى على يديها لغته .

فقد استرضع فى بنى دارم ونشأ وترعرع فى بنى أسد والبراجم . وقد ذكر هو فى شعره أنه كان ربيبهم ومسترضعاً فيهم وذلك فى قوله ينعى على البراجم ويربوع ودارم وآل مجاشع خذلانهم عمه شرحبيل من قبل وخذلانهم إياه من بعد :

فما قاتلوا عن ربهم وربيبهم ولا آذنوا جاراً فيظعن سالما

فقد عنى بربهم عمه شرحبيل وعنى بربيبهم نفسه لأنه نشأ فى كنفهم وكان مسترضعاً فيهم .

ومهما يكن من قيمة ما مضى من قول الدكتور فإنه حين تناول فى بحثه أبياتاً من معلقة امرىء القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر مع العلم بأن الأبيات التى رفضها والتى قبلها عدنانية قرشية ـ وهذا هو وجه المآخذ والضعف فى آرائه ـ رفض مثلا هذين البيتين :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

وقبل البيت الذى يتلوهما ورضى أن يكون صحيح النسبة إلى امرىء القيس ، وهو :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فلماذا قبل الدكتور هذا البيت ورفض الأولين ؟ أهو يمنى اللغة وهما قرشيان ؟ أفيه شىء يخالف لغة عدنان وقريش التى نزل بها القرآن من حيث اللفظ والأسلوب والإعراب وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ، أم وقعت المعجزة وبلغ تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محوا تاما فى هذا البيت فقط ؟ أم كان قبول الدكتور لهذا البيت فلتة لم يردها لأن فى قبوله إياها نقضا لما قاله أولا . ونأخذ على الدكتور قوله إن لغة القرآن — أى اللغة القرشية — لم تكن سائدة فى العصر الذى عاش فيه امرؤ القيس . ولعل هذا التوهم خالج الدكتور حين ظن أن امرأ القيس ربما

عاش قبل القرن الخامس ولا ندرى مقدار هذه القَبْلِيَّة عند الدكتور أهى عام أم أعوام وقرون ؟ ولكننا قد أثبتنا أن امرأ القيس عاش فى القرن السادس . وبعد هذا فنحن نلفت الدكتور إلى الأسواق التى كانت تقام فى الجاهلية فى أنحاء الجزيرة العربية ، والتى كانت تجتمع فيها العرب للبيع والشراء ولتناشد الأشعار وإلقاء الخطب والمفاخرات والمنافرات وكل ما يتعلق بفنون القول ، نلفته إلى ذلك وإلى أن اللغة التى اتخذت فى تلك الأسواق هى لغة قريش ، وقد أجمع المؤرخون جميعاً على ذلك والسبب فى هذا — أن قريشاً فى مكة وهى حاضرة العرب ، وطبيعى أن يكون سكان الأمصار أدنى إلى منازع المدنية من غيرهم من أهل البدو ومن سكان الريف من القرى ، وأن يكونوا أيضاً ألطف أذهانا وأرق حاشية من هؤلاء وهؤلاء ، وأنهم لهذا ولما خصهم الله به من كثير من المواهب كانوا على استعداد قوى لإصلاح لسانهم وتهذيب لغتهم بأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم فى مواسم الحج وفى هذه الأسواق الأدبية المطيفة بمكة حتى عذب أسلوبهم ، ورقت حواشى لغتهم ، وكانوا أهل بيت تعظمه العرب وتحج إليه وتقيم فيه بين أظهرهم الأيام الطوال ، وكانت لهم وحدهم ولاية هذا البيت والحكومة بين العرب مع ما كانوا فيه من بسطة الغنى وثروة التجارة ، وقد أدى ذلك إلى تظاهر هذه الأسباب القوية لسيادة قريش التى بسطتها على العرب قبل الإسلام بعدة قرون ، وكان طبيعياً أن تنتقل هذه العذوبة القرشية إلى ألسنة القبائل المختلفة بحكم ما فى الإنسان من الميل إلى تقليد الأكمل ، ونزوعه إلى التقرب من مظاهر الحضارة ، وكانت تجارة قريش فى بلاد اليمن والشام وغيرها وإذعان أهل هذه البلاد لما انبسط من نفوذ قريش ولما قوى من سيادتها ؛ مما قد دعا أيضاً إلى تسرب هذا الأسلوب المهذب إلى تلك القبائل اليمنية بعد اندثار ملكهم ، وبعد ما عظم من أمر قريش . وظهر الإسلام والعرب كافة فى وحدة لسانية لا يشوبها إلا ما كان باقياً من الخلاف فى اللهجات وصور النطق بالكلام

وإذاً فاللغة القرشية كانت لها السيادة على الجزيرة العربية ولو لم تكن

لها السيادة قبل نزول القرآن لما تهيأت عقول العرب لقبوله وفهم أسراره وإعجازه .

وقد عاد الدكتور بعد ذلك فقال « وهذا البحث ينتهى بنا إلى أن أكثر هذا الشعر الذى يضاف لامرىء القيس ليس من امرىء القيس فى شىء » ومعنى هذا أن أقل الشعر الذى يضاف لامرىء القيس هو من امرىء القيس فى شىء ، وعلى ذلك يكون الدكتور قد ناقض نفسه فبينما هو ينكر شعر امرىء القيس جملة فيما سبق من أقواله إذا به يعترف هنا ببعض منه قليل .

ثم أخذ الدكتور يذكر رأيه فى المعلقة وادعى أنه لا يعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهر فى هذه القصيدة ، وذكر الدكتور أن القدماء يشكون فى صحة هذين البيتين :-

ترى بعر الآرام فى عرصاتها ... وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحملوا ... لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وأنهم يشكون فى هذه الأبيات :-

وقربة أقوام جعلت عصامها ... على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعته ... به الذئب يعوى كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى إن شأننا ... قليل الغنى إن كنت لما تمول
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ... ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل

ونحن نقول للدكتور إن نقد الرواة للقصيدة وتمييز هذه الأبيات الستة بالنحلة يدل على أن أصلها ثابت النسبة لامرىء القيس أكثر مما يدل على انتحالها . وقال الدكتور « وهم بعد هذا يختلفون اختلافا كثيراً فى رواية القصيدة فى ألفاظها ، وفى ترتيبها ، ويضعون لفظا مكان لفظ ، وبيتا مكان بيت ، وليس هذا الاختلاف مقصورا على هذه القصيدة وإنما يتناول الشعر الجاهلى كله ، وهو اختلاف شنيع يكفى وحده لحملنا على الشك فى قيمة هذا الشعر ،

وهو اختلاف قد أعطى للمستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى ، فخيل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة أيضاً ، وعندنا أن ما يقول به الأستاذ الدكتور دليل على عدم انتحال هذا الشعر فى الإسلام فما الذى اضطر المنتحلين إلى اصطناع ذلك الشعر بلا وحدة فيه ولا شخصية على خلاف ما ألفوا من قول الشعر ؟ أما كان المعقول والقريب إلى النفس أن يفتعلوه على نحو ما كانوا يقولون ؟ وإذا كانت قصيدة امرىء القيس منتحلة فقد اصطنعت على رأى الدكتور فى الوقت الذى دون فيه الشعر فى الصحف ، والذى اصطنعها لابد أن يكون من المهرة القادرين على قول الشعر وإنشاده ، أفما كان من الواضح أن يدونها ويذيعها فى الناس واضحـــة جلية ، يرددونها عنه مدونة فلا يكون فيها بيت مختلف فيه ، ولا اضطراب فى ترتيب أبياتها . نحن لا ننكر أن فى بعض الشعر الجاهلى اضطرابا ، ولكن هذا الاضطراب لا ينهض حجة على انتحال هذا الشعر ، وقد رد هذه الشبهة المستشرق « تشارلس لايل » فى مقدمة المفضليات فقال « إن فى كثير من هذه الأشعار كلمات أو أشطار أبيات منقولة عن محلها وهذا شىء طبيعى فى أشعار لم تدون قط ، بل كانت مروية حفظا، ينقلها المتأخر عن المتقدم ، وليس فى هذا التعبير معنى للتزوير، ونجد فى آخر بعض القصائد أبياتا — يقصد بذلك أن الراوى لم يمكنه أن يعرف محلها من القصيدة فوضعها فى آخرها — وهذا أيضاً لا يدل على الاختلاق بحال » .

أما سبب اختلاف الرواة فى ألفاظ الشعر ومواضع الأبيات فهو كما قال الأستاذ الكبير السيد (مصطفى صادق الرافعى) أنهم كانوا قوما لا يكتبون ولا تدونون ، وكان اعتمادهم على الحفظ ، ومع الحفظ النسيان ، فإذا نسى أحدهم كلمة فى بيت من الشعر وضع مكانها كلمة غيرها تؤدى معناها أو تقاربها ، وما كانوا يرون فى هذا بأسا مادام الغرض الذى يرمى إليه الشاعر قائما ، ثم يكون غيره لا ينسى فيروى الشعر على أصله فتجتمع روايتان ، فإذا كانوا ثلاثة فتكون الروايات ثلاث كل منها بلفظ غير الآخر وهلم جرا . وقد

يحفظ أحدهم القصيدة فإذا قرأها يوما على غيره قدم وأخر فى بعض أبياتها كما تتفق له حالة الذاكرة فى ساعته تلك لا كما حفظها من قبل إذ ليس عنده أصل مكتوب يعارض عليه . ويصنع غيره مثل هذا الصنيع بضرب آخر من التقديم والتأخير كما يتهيأ لذاكرته ، ثم يكون غيرهما قد رواها وتثبت فى حفظه فيأتى فى القصيدة الواحدة ثلاث روايات متعارضة وإذا كثرت أبياتها كثرت رواياتها على حساب ذلك . وقد فصل الأستاذ الرافعى فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية أسباب هذا الاختلاف .

ونريد أن نبين للدكتور أن قصيدة امرىء القيس لم تخل من الوحدة والشخصية أما عن الوحدة فإن امرأ القيس ساق القصيدة كلها لغرض واحد ذلك الغرض هو العبث واللهو الذى تفنن فيه امرؤ القيس وجعله أشكالا وأنواعا فى تلك القصيدة ، فليس التشبيب بالنساء وركوب الجياد وذكر محاسنها ووصف الطبيعة واستجلاء مظاهرها ليس هذا كله إلا لذة للنفس ولهوا وعبثا ، وعلى ذلك فالوحدة فى قصيدة امرىء القيس ظاهرة ظهورا جليا لا ينبغى أن تخفى على الدكتور وهو أستاذ الأدب وتاريخه . وأما عن الشخصية فإنا نعلم من تاريخ أمرىء القيس أنه كان فى حياته الأولى أخا صبوات وصنو لذات وخدين خلاعة ولهو ، وليس أدل على تلك الشخصية الماجنة ـ شخصية امرىء القيس فى شبابه قبل مقتل أبيه ـ من هذه القصيدة . وعلى ذلك يكون قول الدكتور إن القصيدة خلت من الوحدة والشخصية أمر لم يقم عليه دليل ، ومارأى الدكتور فى قول نيكلسون عن تلك القصيدة « أما معلقة امرىء القيس فقد تسابق النقاد الأوربيون إلى التغنى بجمال تعبيرها ، والتحدث بفاخر تصويرها وحلاوة أبياتها وسحر تمثيلها المنوع ، ومما زاد إعجابهم بها ذلك الشعور بأفراح الحياة وتمجيد الشباب الذى أوحى إلى الشاعر معانيها الخلابة ومبانيها البالغة أعلى درجات الفصاحة » .

وقال الدكتور « ونظن أن أنصار القديم لا يخالفون فى أن هذين البيتين قلقان فى القصيدة وهما .

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

فقد وُضع هذان البيتان للدخول على البيت الذى يليهما وهو

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وهذان البيتان أشبه بتكلف المشطر والمخمس منهما بأى شىء آخر ، ونحن نستدل على براءتهما من هذا القلق وهذا التكلف الذى يدعيه الدكتور بأنهما مرا على فصحاء العرب ونقاد الأدب الذين لم يكن أمهر منهم فى معرفة الفصيح وغير الفصيح والمتكلف والمطبوع والضعيف وغير الضعيف وهم مع ذلك لم يحسوا فى هذين البيتين شيئا مما يرميهما به الدكتور ، وكل ما عابوه على امرىء القيس فى هذه الأبيات أن قوله :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

قد انسلج بوصف الليل من غير أن يذكر مقول القول، وجعل هذا البيت متعلقا بالبيت الذى يليه . وهو قوله : —

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وهناك فريق لم يتذوق حلاوة المجاز والاستعارة لأن له ذوقا غليظا فى الأدب قد عاب قول امرىء القيس : ـ

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

لكن الآمدى آجره الله ردهم إلى محجة الصواب وسفه رأيهم . وبعد هذا فإن شيوخ الأدب والمتأدبين ساقوا فى كتبهم ما يشهد بأن هذه الأبيات التى وصف بها امرؤ القيس الليل كانت تقع منهم موقع الإعجاب، ويضربون لها أرجلهم طربا ، كما حكى المرزبانى فى كتابه الموشح أن الوليد بن عبد الملك وأخاه مسلمة تشاجرا على شعر امرىء القيس والنابغة الذبيانى فى وصف الليل أيهما أجود فرضيا بالشعبى أن يكون حكما بينهما ولما حضر أنشد الوليد:ـ

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب

وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس : —

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى   بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها   بأمراس كتان إلى صم جندل

فضرب الوليد برجله طربا فقال الشعبي بانت القضية .

ولا نعني بما قدمناه أن يكف المحدثون عن نقد الشعر الذى وقع تحت نظر القدماء ولم يتعرضوا له بالنقد وإلا كنا جامدين ، فمن الجائز أنهم لا ينتقدون البيت حتى يلوح لهم ما فيه من مغمز خفى ، ومن الجائز أن يلوح لهم هذا المغمز ولكنهم يستهينون به فلا يذكرونه ، ومن المحتمل أن يذكوره ولكنه لم يصل إلينا فى هذه الكتب التى بقيت مما تركوا . وإنما نقصد أن ما ذهب إليه الدكتور فى هذه الأبيات لا يمكن أن ينهض دليلا على أن هذين البيتين قلقان فى القصيدة .

بعد هذا ذكر الدكتور أن ما فى القصيدة من لهو وفحش أشبه بأن يكون من انتحال الفرزدق ، وأن ما فيها من وصف امرىء القيس لخليلته وزيارته إياها وتجشمه ما تجشم للوصول إليها وتخوفها الفضيحة حين رأته وخروجها معه وتعفيتها أثارهما بذيل مرطها وما كان بينهما من لهو كل هذا أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة ، قال « وانسرع القول بأن وصف اللهو مع العذارى وما فيه من فحش أشبه بأن يكون من انتحال الفرزدق منه بأن يكون جاهلياً . فالرواة يحدثوننا أن الفرزق خرج فى يوم مطير إلى ضاحية البصرة فاتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير ، وإذا فيه نساء يستحممن فقال : ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ، وولى منصرفا ، فصاح النساء به : ياصاحب البغلة

فعاد إليهن فسألنه ، وعزمن عليه ليحدثهن بحديث دارة جلجل ، فقص عليهن قصة امرىء القيس وأنشدهن قوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل
(الأبيات)

والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته وأنه قد ليم على هذا الفحش وعلى هذه الغلظة لايجدون مشقة فى أن يضيفوا إليه هذه الأبيات فهى بشعره أشبه . وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء وهم ينتحلونها من عند أنفسهم ، ومهما يكن من شىء فلغة هذه الأبيات كلغة القصيدة كلها عدنانية قرشية يمكن أن تصدر عن شاعر إسلامى اتخذ لغة القرآن لغة أدبية .

أما وصف امرىء القيس لخليلته وزيارته إياها وتجشمه ما تجشم للوصول إليها وتخوفها الفضيحة حين رأته وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها وما كان بينهما من لهو ، فهو أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة منه بأى شىء آخر . فهذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر فن عمر بن أبى ربيعة ، قد احتكره احتكاراً ولم ينازعه فيه أحد . ولقد يكون غريباً حقاً أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتى ابن أبى ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبى ربيعة قد تأثر بامرىء القيس مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرىء القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء من الوصف فكيف يمكن أن يكون امرؤ القيس هو منشىء هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة والذى كون شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ولا يعرف له ذلك ؟

وأنت إذا قرأت قصيدة أو قصيدتين من شعر ابن أبى ربيعة لم تكد تشك فى أن هذا الفن فنه ابتكره ابتكاراً واستغله استغلالا قوياً . وعرفت العرب له هذا . وقل مثل هذا فى هذا القصص الغرامى الذى تجده فى قصيدة امرىء القيس الأخرى : « ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالى » ففى هذا القصص

الفاحش فن ابن أبي ربيعة وروح الفرزدق . ونحن نرجح إذاً أن هذا النوع من الغزل إنما أضيف إلى امرىء القيس ، أضافه رواة متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين » اه بنصه .

ونحن نأخذ على أستاذنا الدكتور طه أنه أنكر الوحدة والشخصية فى القصيدة ، ثم عاد فقال إن مافيها من فحش وغرام هما للفرزدق وعمر ابن أبى ربيعة ، وهما شاعران إسلاميان يظهر فى شعرهما الوحدة والشخصية لأنهما من شعراء الإسلام الذين قال الدكتور عن شعرهم إنه يتحدى أى ناقد أن يعبث به أقل عبث دون أن يفسده ، وقال إن وحدة القصيدة فيه بينة ، وإن شخصية الشاعر فيه ليست أقل ظهورا منها فى أى شعر أجنبي . ونحب أن نسائل الدكتور بعد هذا الذى ذهب إليه من أن قصيدة امرىء القيس إسلامية لا جاهلية . نحب أن نسأله عن قوله إن القصيدة خلت من الوحدة والشخصية ، أين ذهبت هذه الوحدة وتلك الشخصية ؟ أتبخرت على مر السنين أم سلطت عليها قوة سحرية وأشار إليها الشياطين بعصيهم فاختفت تحت الأرض ؟ أم أن الأستاذ الدكتور يعدل عن رأيه فيعترف بأن الوحدة والشخصية ظاهرتان فى القصيدة . وإنا لنعجب أيضاً من أن تكون تلك القصيدة شركة بين ثلاثة من الشعراء وكلهم جليل الخطر فى شعره ولا يخبرنا النقاد والرواة بهذا وهم هؤلاء الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة فى الشعر إلا ردوها إلى صاحبها . وإذا كان الفرزدق قد عرف بنحو من الشعر فهل يجب أن يكون له مبتدعا لم يسبقه به امرؤ القيس ، ألا إن الدكتور لا يستند فى هذا الظن إلا إلى أن هذا الفحش أشبه بفحش الفرزدق ، وذلك شيء عجيب فإن تشابه الشعرين لا يمكن أن يقوم دليلا على أن هذا الشعر للفرزدق ، خصوصاً وأنا نعلم أن الفرزدق كان مشهورا بسرقة الشعراء يغير عليهم وينهب شعرهم وينسبه إلى نفسه ويجعله من شعره غير مبال أن يعرف الرواة عنه ذلك ، أو أن يكون الشاعر المسلوب حياً أو ميتاً ، وقد شهد عليه

الأصمعي وغيره بأنه كان لصاً ماهرا في سرقة الشعر يسرقه عنوة واقتدارا وقد جاء في الموشح وخزانة الأدب الكبرى أن الفرزدق سرق من ابن ميادة قوله :

لو أن جميع الناس كانوا بتلعة وجئت بجدى ظالم وابن ظالم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أعقابنا بالجماجم

فأدخلهما الفرزدق في شعره وقال :

لو أن جميع النـاس كانوا بتلعة وجئت بجدى دارم وابن دارم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أعقـابنا بالجماجم

وفي الأغاني والموشح أيضاً أنه سرق من ذى الرمة قوله :

أحين أعاذت بى تميم نساءها وجردت تجريد اليمانى من الغمد
ومدت بضبعى الرباب ومالك وعمرو وشالت من ورائى بنو سعد
ومن آل يربوع زهاء كأنه دجى الليل محمود النكاية والورد
وكنـا إذا الجبـار صعر خده ضربناه فوق الأنثيين على الـكرد

وسرق من الراعى قوله :

كم من أب لى يا جرير كأنه قمر المجرة أو سراج نهار
لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكم وأوابدى بتنحـــل الأشعار

وسرق من جميل قوله :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وفي الموشح أيضاً أن الفرزدق سرق من الأعلم العبدى تسعة أبيات وأدخلها في قصيدته « عزفت بأعشاش وما كدت تعزف »

وسرق من النابغة الجعدى :

وصهباء لا تخفى القذى وهى دونه تصفق فى راووقها ثم تقطب
تمززتها والديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

أخذه الفرزذق نسخاً فقال .

وإجانة ريا الشروب كأنها إذا صفقت فيها الزجاجة كوكب
تمززتها والديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

ولقى الفرزدق أبا عمرو بن العلاء فى المربد فسأله أبو عمرو هل أحدثت شيئاً يا أبا فراس ؟ فقال نعم ثم أنشده

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

فقال له أبو عمرو هذا للمتلمس ، فقال اكتمها فى نفسك فاضوال الشعر أحب إلى من ضوال الإبل ، وخير السرقة ما لم تقطع فيه اليد .

فشاعر كهذا كثير السرقات يرغب فى انتحال شعر غيره ويدعيه لنفسه لا يمكن بحال من الأحوال أن يقول شعراً ثم ينحله سواه . فلا يمكن أن يكون الفرزدق هو الذى صنع هذا الشعر وأسنده إلى امرىء القيس ، وكل ما فى الأمر أن الفرزدق تأثر بامرىء القيس لأنه كان تلميذاً له ، فقد كان من رواته بشهادة ابن عبد ربه ، فإنه قال فى العقد الفريد «كان الفرزدق أروى الناس لأخبار امرىء القيس وأشعاره ، وذلك أن امرأ القيس رأى من أبيه جفوة فلحق بعمه شرحبيل بن الحرث وكان مسترضعاً فى بنى دارم فأقام فيهم وهم رهط الفرزدق » والذى نأخــذه على الدكتور أيضا أنه مع جنوحه إلى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق وإن كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقة ، ونعنى بها القصة التى قيل فيها إن الفرزدق خرج فى يوم مطير إلى ضاحية البصرة وتتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير فيه نساء فقال ما أشبه اليوم بدارة جلجل — إلى آخر ما جاء عن تلك القصة التى ذكرها الدكتور فى كلامه :

أما عن اللهو الذى جاء فى القصيدة ويدعيه الدكتور لعمر بن أبى ربيعة فهو عنده لم يخرج عن دائرة الشك ولم يقم دليلا على دعواه . على أن الأقدمين قالوا إن امرأ القيس سبق إلى أشياء ابتدعها واتبعه فيها الشعراء منها

استيقاف صحبه ، والبكاء على الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض وما إلى ذلك مما ذكره ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء .
وبهذا تقدم امرؤ القيس الشعراء لأنهم اتبعوه فيها ولم يتبع هو أحدا فيها .
وفن ابن أبى ربيعة واللهو الذى جاء فى القصيدة (وادعى الدكتور أنه لعمر ابن أبى ربيعة) كل هذا داخل فى رقة النسيب التى سبق إليها امرؤ القيس قبل سائر الشعراء وقبل أن يولد ابن أبى ربيعة ، فإذا كان ابن أبى ربيعة قد استحسن أسلوبا من أساليب امرىء القيس فى النسيب فأكثر منه واستنفد منه جانبا من شعره فليس معنى هذا أنه اخترع هذا الفن واحتكره ، ولو كان هذا الغزل واللهو من مبتكرات ابن أبى ربيعة لما فات هذا رواة الأدب ونقاده ولذكروا ذلك وجعلوا الفخر كل الفخر فيه لابن أبى ربيعة ، ولكن الرواة جميعا متفقون على أن امرأ القيس هو السابق إلى النسيب ورقته وإلى أشياء أخرى ، ومتفقون أيضا على أن ما فى المعلقة وما فى القصيدة الثانية (ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى) من لهو وعبث وغيره هو من شعر امرىء القيس ، فإذا كان بينه وبين شعر ابن أبى ربيعة تشابه واضح فمن مقتضيات هذا أن نعترف بأن امرأ القيس كان أستاذاً لعمر بن أبى ربيعة فى هذا الفن . أما سكوت الرواة وعدم إشارتهم إلى أثر امرىء القيس فى عمر بن أبى ربيعة كما قال الدكتور فإنه — إن صح — لا ينهض دليلا على أن هذا الشعر لابن أبى ربيعة ، بيد أن فى قول الرواة إن امرأ القيس سبق الشعراء إلى أشياء ابتدعها واتبعوه فيها كرقة النسيب ... دليلا على أثر امرىء القيس فى ابن أبى ربيعة لأنه من شعراء الغزل ، ولأنه لاحق لامرىء القيس ، وانظر ما قاله صاحب شرح شواهد الكشاف عند إيراده لشىء من قصيدة امرىء القيس (ألا انعم صباحا) فإنه ذكر أن قصيدة عمر بن أبى ربيعة (أمن آل نعم) مشابهة لقصيدة امرىء القيس بمعناها مشابهة اليوم للأمس ، ومطابقة لها مطابقة الخمس بالخمس . وننتهى إلى أن امرأ القيس هو الذى سن الغزل لابن أبى ربيعة ، وسن الفحش للفرزدق ، وسن فنونا من القول لسائر الشعراء بعده .

ثم تحدث الدكتور عن الوصف الذى جاء فى القصيدة ، فقال « بقى الوصف ولا سيما وصف الفرس والصيد . ولكننا نقف فيه موقف التردد أيضا ، واللغة هى التى تضطرنا إلى هذا الموقف . فالظاهر أن أمرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخيل والصيد والسيل والمطر ، والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفة من قبل . ولكن أقال هذه الأشياء فى هذا الشعر الذى بين أيدينا أم قالها فى شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ولم يبق منه إلا الذكر وإلا جمل مقتضبة أخذها الرواة فنظموها فى شعر محدث نسقوه ولفقوه وأضافوه إلى شاعرنا القديم ؟ هذا مذهبنا الذى نرجحه فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، وشبه الخيل بالعصى والعقبان، وما إلى ذلك ، ولكننا نشك أعظم الشك فى أن يكون قد قال هذه الأبيات التى يرويها الرواة . وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجده فى المعلقة وفى اللامية الأخرى فيه شىء من ريح امرىء القيس ، ولكن من ريحه ليس غير » ونحن نعجب للدكتور فإن الرواة حدثوه بأن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد وشبه الخيل بالعصى والعقبان ووصف الصيد والسيل والمطر وأجاد فى هذا الوصف ونبغ فيه ، يقول له الرواة ذلك فيؤمن الدكتور على كلامهم، ويقول صدقوا . ثم يقول الرواة هذا شعره الذى يظهر فيه وصفه وروحه فيقول الدكتور لم يصدقوا . وذلك لعمرى منطق غير مستقيم يجمع الدكتور فيه بين النقضين ، فالرواة عند الدكتور صادقون كاذبون معا . وإذا كان الدكتور لم يعتمد على الرواة فى أن امرأ القيس وصف الخيل والسيل فليقل لنا من أين جاء هذا العلم ؟ هل تنزل به وحى السماء ؟ كلا ولكن الدكتور يأخذ عن الرواة ما يصادف هوى فى نفسه ويرفض مالا يتفق مع نزعاته ولا عجب فى ذلك ولا غرابة فإن الدكتور يلح عليه الشك ، ثم يلح عليه الشك فلا يضبط مقدماته ولا نتائجه فيلتوى عليه السبيل ولا يعرف إلى أى غاية يسير .

ثم عرج الدكتور بعد هذا على القصيدة التى يروى أن امرأ القيس قالها

فى منازعة شعرية بينه وبين علقمة ، فقال « هناك قصيدة ثالثة نجزم نحن بأنها منتحلة انتحالا . وهى القصيدة البائية التى يقال إن امرأ القيس أنشأها يخاصم بها علقمة بن عبدة الفحل ، وإن أم جندب زوج امرىء القيس قد غلبت علقمة على زوجها ، وأنت تجد القصيدتين فى ديوان امرىء القيس وديوان علقمة . فأما قصيدة امرىء القيس فمطلعها : —

خليلى مرابى على أم جنـــدب لنقض لبانات الفؤاد المعذب

وأما قصيدة علقمة فمطلعها : —

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب

ويكفى أن تقرأ هذين البيتين لتحس فيهما رقة إسلامية ظاهرة ، على أن هذين الشاعرين قد تواردا على معان كثيرة ، بل على ألفاظ كثيرة ، بل على أبيات كثيرة تجدها بنصها فى القصيدتين معا ، وعلى أن البيت الذى يضاف إلى علقمة وبه ربح القضية يروى لامرىء القيس ، وهو : —

فأدركهن ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

والبيت الذى خسر به امرؤ القيس القضية يروى لعلقمة وهو : —

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أهوج منعب

وأنت تستطيع أن تقرأ القصيدتين دون أن تجد فيهما فرقا بين شخصية الشاعرين ، بل أنت لا تجد فيهما شخصية ما ، وإنما تحس أنك تقرأ كلاما غريبا منظوما فى جمع ما يمكن جمعه من وصف الفرس جملة وتفصيلا ، وأكبر الظن أن علقمة لم يفاخر امرأ القيس ، وأن أم جندب لم تحكم بينهما ، وأن القصيدتين ليستا من الجاهلية فى شىء » جزم الدكتور بأن هذه القصيدة منتحلة انتحالا لأن فيها رقة إسلامية ، ولو تدبر قليلا لرأى فى شعر بعض شعراء الإسلام غرابة يعسر فهمها كرؤبة والعجاج ، ولرأى أيضا فى شعر بعض شعراء الجاهلية سهولة ورقة ونحن لا نحتج عليه لهذه السهولة بأكثر من الشعر الذى سلمه لعلقمة كقوله : —

فإن تسألونى بالنساء فإننى خبـــير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المـال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

وإنى ما رددت دليل الدكتور إلا لأبين المـآخذ على براهينه ، ولـكنى لا أذهب مع ذلك إلى أن القصيدة قد سلمت لامرىء القيس ، فإن هناك طائفة من الرواة القدامى قد سبقوا الدكتور وأنـكروا هذه القصيدة فقد ذكر المرز بانى فى الموشح حين ساق منازعة امرىء القيس وعلقمة واحتكامهما إلى أم جندب بعد أن ذكر ذلك قال « وقد روى هـذا الحديث أيضاً ابن الكلبى ورواه أيضا عبد الله بن المعتز وذكره فيما أنـكر من شعر امرىء القيس » وكان حماد يروى القصيدتين لامرىء القيس وكان المفضل يرويهما لعلقمة .

وإلى هنا ينتهى بنا نقد ماتعرضنا له من آراء أستاذنا الدكتور طه ونخرج من ذلك على أن امرأ القيس وجد حقا ، وأن القصة التى ذكرها المؤرخون والرواة عنه هى قصته حقا ، وأن الشعر الذى يضاف إليه هو شعره حقا ، وأن الدكتور كان فى بحثه متجنيا على امرىء القيس وقصته وشعره ، وأنه لم يكن فى تشككه موفقا . والحمد لله أولا وآخراً .

مصادر البحث

من أهم المصادر التى اعتمدنا عليها فى استقاء مباحث هذا الكتاب ، ما يأتى :-

طبقات الشعراء لابن سلام
الشعر والشعراء لابن قتيبة
الفهرست لابن النديم
الأغانى لأبي الفرج الأصفهانى
مهذب الأغانى للخضرى
أمثال الميدانى
المزهر للسيوطى
شرح القصائد العشر للتبريزى
شرح المعلقات السبع للزوزنى
شعراء النصرانية للأب لويس شيخو
العقد الثمين فى شعراء الستة الجاهليين
العقد الفريد لابن عبد ربه
العمدة لابن رشيق
الكامل لابن الأثير
جمهرة أشعار العرب
خزانة الأدب للبغدادى
مذكراتى الخاصة
معجم البلدان
معجم ما استعجم
وصف جزيرة العرب للهمدانى

نقد الشعر لقدامة
رجال المعلقات العشر للغلاييني
تاريخ آداب العرب لجورجي زيدان
إعجاز القرآن للباقلاني
الشهاب الراصد لمحمد لطفي جمعة
الوسيلة الأدبية للمرصفي
تاريخ الطبري
تاريخ ابن خلدون
مقدمة ابن خلدون
النفحة الملوكية في أحوال الأمة العربية الجاهلية للقلوصيني
المعلقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطي
تحت راية القرآن للرافعي
معاهـــد التنصيص
مجلة المقتطف
مجلة الشرق
نقض الشعر الجـاهلي للخضر حسين
في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين
نقد الشعر الجاهلي للخضري
أدبيات اللغة العربية لعاطف باشا بركات
الوسيط للاسكندري
نهاية الأرب للنويري
شرح ديوان امرىء القيس للوزير ابن أيوب
شرح ديوان امرىء القيس للطوسي
تاريخ العرب وآدابهم للمستشرق فانديك
أديان العرب في الجاهلية والإسلام

دائرة المعارف للبستانى
المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها
تاريخ العرب قبل الإسلام
تاريخ التمدن الإسلامى
محاضرات التاريخ الإسلامى للخضرى
عيون الأخبار لابن قتيبة
الملل والنحل للشهرستانى
فجر الإسلام لأحمد أمين
بدائع البداية لابن ظافر
نزهة ذوى الكيس فى شعر امرىء القيس
رياض الفيض
المواهب الفتحية لحمزة فتح الله
البيان والتبيين للجاحظ
تاريخ آداب العرب للرافعى
الموازنة للآمدى
الموشح للمرزبانى
تزيين الأسواق للأنطاكى
الروض الأنف (السيرة) لابن هشام

الفهرس

الموضوع	الصفحة

تصويبات

ندت عن النظر بعض أخطاء مطبعية لا يخفى تصويبها على القارىء الكريم ، وهى : ـ

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٢	٩	يتبع	يتتبع
١٤	٢٣	أو	و
١٨	١٥	يتهيا	يتهيأ
٢١	٩	أبو أجأ	أبا أجأ
٥٠	١٠	طرقت	طرقتك
٥٥	٨	وأويا	وألويا
٧٢	١٤	ضارح	ضارج
٧٤	١٧	ودنوه ـ أبو عمر	ودونوه ـ أبو عمرو
٧٩	٩	العبيط	الغبيط
٨٠	١	الثاني	الأول
١٦٢	٢٢	الملعل	المعلل
١٦٦	٤	عن	من
١٧٧	١٧	هلى	علىّ
١٨١	٩	إطناب	إطناباً
١٨٥	١٠	حسنا	حسناً